www.liilas.com/vb3
^RAYAHEEN^

ملك النـــور

تأليف

ميشال زيفاكو

تعريب

طانيوس عبـــدو

الطبعة الثانيـــة

النـــاشر

دار الفكر – بـــيروت

ص. ب. ٣١٩٨

١
الكنز

تبدأ حوادث هذه الرواية في كلكوتا عاصمة الهند سنة ١٧٥٧ فقد كان السير روبرت ويلدن سائراً على جواده عند بزوغ الفجر من شاندر ناجور الى كلكوتا وهو من اشراف نورمانديا ولا يزال في مقتبل الشباب وكان يسير بين الاشجار والحقول وهو يناجي نفسه فيقول :

ان الشريف لا يحنث بما وعـــد وقد وعدت تلك المنكودة الحسناء اللادي سيسلي زوجة اللورد سبيرتهون حاكم الهند ان اخلصها من اخيه السير جاك الاحدب .

وقد اتى هذا الاحدب الشقي امس الى كلكوتا يحمل نبأ موت ليونيل الصغير ابن اللورد الحاكم .

غير ان اللادي كتبت الي ايضاً في اليوم نفسه وها انا الآن على اتم التأهب .

وفيما هو سائر رأى امامه رجلين كان احدهما يحمل طفلة على كتفيه وكانا يلتفتان من حين الى حين الى الوراء فقال السير روبرت في نفسه :

ترى العلهما يحتاجان الي.

وقد دفع جواده حتى وصل اليهما وسمع احدهما يقول لرفيقه : لقد تعبت من حمل توبسي وحبـذا لو كان هذا الفارس يضعها

امامه على جواده الى ان نبلغ كلكوتا .

فأجابه رفيقة وهو فتى لا يتجاوز السابعة عشرة من عمره اسكت يا ناثانيل فانك ستبقى مدى حياتك جباناً مستكدياً دون قلب . هات طفلتك فانا احملها ولا نحتاج الى هذا الرجل .

فقال السير روبرت اراك شديد الكبرياء ايها الفتى .

قال نعم ويحق لي ان اتكبر .

وقد حاول ان يستمر في سيره فاوقفه السير روبرت وقال له: ارى انك من طائفة النور الراحل وانك لم تقل لي هذا القول الا لحقدكم علينا ولكني لست ضابطاً في الجيش ولا عضواً في مجلس اللوردية اي اني لست من الذين طردوكم من لنـــدرا وما زال رفيقك قد تعب من حمل بنته فلماذا لا احملها على جوادي وهو لا يتعب من حملها .

ثم التفت الى الرجل الكهل وقال له ، هات بنتك وقل لي اين اضعها حين اصل الى كلكوتا .

قال تفضل يا سيدي وضعهـــا في الحانة الكائنة عند باب العاصمة فان صاحبها يعرفها ويعرف بنتي .

فاخذها فوضعها امامه على الجواد وابتعد عنها فقال الفتى لرفيقه لقد اخطأت يا ناثانيل بما فعلت .

قال الحق انه اذا رضي ان يكفل بنتي ويتولى تربيتها يكون قد احسن الي غاية الاحسان .

قال كيف ذلك اتتخلى عن بنتك ؟

بل ء الارتياح فانها سيئة الطباع تزهلني ببكائها من الصبح الى

المساء واني اصبحت مضطراً بعد موت امها الى ان اصحبها معي اين ذهبت وفوق ذلك فقد حاولت امس ان تخنق ذلك الكلب الصغير وهو كل مورد رزقي كما تعلم .

لا تنسى اني ساغدو يوماً ملك النور . — ماذا تعني ؟

— اعني اني في هذا اليوم اطردك اقبح طرد فانك شر الاباء ولا يليق بالطائفة ان تكون منها .

فضحك ناثانيل وقال اني اذا لم اصلح ان اكون رئيس عائلة فلي صفات طالما شكرتني عليها الطائفة .

نعم اعلم انك من كبار اللصوص وانك كنت تستعين بكلبك فتنهب مخازن المجوهرات في لندرا ولكننا الان في الهند وأحب ان اعلم ماذا تريد ان تصنع في كلكوتا .

اني آت اليها لاعلم اذا كانت المجوهرات موفورة في مخازنهـا كما كانت في مخازن لندرا .

فنظر اليه الفتى نظر المحتقر وقال اما انا فلي غرض آخر من القدوم الى كلكوتا . — ما هو غرضك ؟

هذا سر لا ابوح به ولكني اخبرك كي لا ترهقني بالاسئلة اني قادم اليها للبحث عن كنز .

فظهر الاندهاش العظيم على وجه الكهل ووضع الفتى سبابته على فمه فقال له :

اني اذا اكتشفت هـــذا الكنز يصبح افقر فقير في طائفتنا اغنى من لورد في انكلترا ولا تعود بعد ذلك محتاجاً الى كابك .

اذا كان ذلك فسأحاول ان احب بنتي .

ولبثا يسيران ويتحادثان الى ان وصلا الى كلكوتا وعند ذلك ودعه الفتى فقال له الكهل الى اين انت ذاهب يا جان ؟

قال الى حيث ابحث عن كنزي .

ـ هل اراك في كلكوتا ؟

ـ ربما التقينا هذه الليلة في محلتنا ثم افترقا فذهب الكهل الى الحانة ليرى بنته وذهب جان في طريق المرفأ .

كانت طائفة النور تدعو هذا الفتى جان دي فرانس فما زال سائراً حتى وصل الى المرفأ وهناك وجد كثيراً من الجنود وعمال الميناء مجتمعين حول راقصة هندية ورجل هندي كان يعزف بقيثارة فدنا جان منها وتفرس بوجه الهندي فقال في نفسه نعم هذا هو .

وعند ذلك اطلق مدفع من الثكنة اشارة الى افتتاح المرفأ فتفرق الجميع وذهب جان مسرعاً فسار في زقاق ضيق حتى انتهى الى كوخ مبني بالقصب فاضطجع على الارض بجانب ذلك الكوخ واطبق عينيه يوهم انه نائم .

وبعد هنيهة اقبل الهندي والراقصة ورأى الهندي جان بجانب الباب فرفسه برجله وقال له باللغة الهندية قم من هنا ايها الكلب الدنس فان مكان هذا الكوخ كان مقدساً .

ولكن جان فتح احدى عينيه ثم اغمضها فقالت الراقصة انه سكران فدعه وشأنه ثم دخلت مع الرجل الى الكوخ وجعلا يتحدثان .

اما جان فانه ابتسم ابتسام الظافر فقد كان حديثهما يصل اليه

وكان عارفاً بدقائق اللغة الهندية كابنائها .

قبل ذلك بساعة كان فريق من الضباط الانكليز مجتمعين في خمارة عند باب كلكوتا وهم يتحدثون عن اللورد حاكم الهند ويعجبون لما يرون منه من دلائل الهم والتفكير الدائم فقال لهم احد الضباط لا تعجبوا ايها الرفاق فقد قيل انه اختصم مع امرأته ونفاها الى قصر له في ايكوسيا وانه يكره مولودها الاخير منذ ولادته .

وكان بين الحاضرين طبيب انكليزي يدعى بولتون فاعترضهم قائلاً :

لكم ايها السادة ان تقولوا ما تشاؤون عن اللورد اسبرتهون وعن ظلمه وتغاضيه عن واجباته في هذه البلاد واما اذا ذكرتم زوجته اللادي فلا تذكروها الا بالاحترام فهي الملاك الذي يمثل الطهارة والفضيلة وكرم الاخلاق في الارض .

فقال الضابط اهي حسناء مع هذه الفضائل ـ ان لها جمالا يفتك النساك .

اذا كان ذلك فحدثنا بما تعلمه عن هذين الزوجين .

ماذا تريدون ان تعلموا ؟

ـ لماذا ارسل اللورد امرأته الى ايكوسيا .

لان اخاه الاصغر السير جاك الذي جاء امس الى كلكوتا قد وشى بها الى اخيه وحمله على الشك بولادة ولديه وقد مات ولده الصغير وهو لو مات ولده الآخر ايضاً لما حزن .

كيف ذلك امات ولده الصغير ؟ ان اخاه جاء بهذا النبأ .

وعند ذلك دخل رجل يحمل بين يديه طفلة فصاح الجميع قائلين : هوذا السير روبرت ويلدن .

ودخل السير روبرت فحياهم وقال لهم انظروا ما كان صيدي في هذا الصباح ارأيتم اجمل من هذه الطفلة ؟

وقال الطبيب اظن انها ابنة احد اولئك النور الذين يطوفون في شوارع كلكوتا .

قال هو ذاك فاسقوني كأساً من الشمبانيا .

فصب له الطبيب كأساً وقال له من اين انت قادم ؟

قال من غابات بردوان حيث كنت اصيد الفيل .

ـ وقد عدت الى كلكوتا لتصيد النمر اليس كذلك ، هو ذاك

وقد جلسوا يشربون ويتحدثون الى ان جاءهم رسول من الحاكم يدعوهم للذهاب الى التمرينات فانصرفوا مسرعين وخلا السير روبرت بالطبيب فقال له اني ما اتيت الى كلكوتا للصيد كما توهمت .

قال نعم فاني لا اجهل علاقتك باللادي سيسلي امرأة الحاكم وفرط احترامك اياها وانك حاقد اشد الحقد على السير جاك فهل علمت ان ليونيل الصغير ابن اللورد قد مات .

قال نعم ولكني هنا فلا يستطيع السير جاك قتل الولد الآخر

وعند ذلك دخل ناثانيال والد الطفلة فلما رأته بنته تعلقت بالسير روبرت فقال لها :

كيف هذا يا ابنتي العلك خفت من ابيك ؟

فاجابته قائلة وهي تبكي نعم فلا اريد ان اعود اليه ، لماذا

ـ لانه يضربني .

فنظر اليه السير روبرت نظرة منكرة وقال له ويحك ايها الرجل اتضرب بنتك ، امثل هذا الملاك يضربونه ؟

قال نعم اضربها لانها تضرب كابي وهو سبب رزقي وفوق ذلك فقد باتت حملا ثقيلا علي بعد امها .

فتمعن هنيهة وقال له اتريد ان تتخلى عنها لي . ثم قال للطفلة اتريدين ان تبقي معي يا بنتي فاني اعلمك القراءة في كتاب فيه صور واشتري لك دمية تلعبين بها .

فطوقت عنقه بيديها الصغيرتين وقالت : نعم نعم ابقى معك .

فاخرج السير روبرت من جيبه كيساً مملوءاً بالذهب فدفعه الى النوري وقال له بملء الاحتقار .

خذ هذا الكيس وانصرف فانك لا تستحق ان تكون ابداً وسأتولى تربيتها .

فاخذ النوري الكيس وخرج وهو يلاعب كلبه مسروراً من هذا الاتفاق .

...

وفي اليوم التالي اعد اللورد الحاكم حفلة صيد دعا اليها فريقاً من الضباط واعيان الانكليز فكان بعضهم يركبون الفيلة وبعضهم يركبون الجياد .

وكان اللورد الحاكم راكباً على فيل ابيض ويجانبه الطبيب بولتون والسير روبرت على جوادين وهما يسيران جنباً الى جنب ويتحدثان فقال الطبيب :

اذن لقد عزمت على مبارزة السير جاك .

قال دون شك .

متى ؟

– حين نعود من الصيد .

– ولكن اتظنه يرضى بالمبارزة ؟

سأرغمه على القبول متى صفعته امام ضباط اخيه .

احذر فان السير جاك سافل شرير فقد يشيع انك عاشق امرأة اخيه .

– ان اخاه لا يصدق قوله .

– بل انه يثق بكل ما يقوله وعندي انه خير لك ان تترك الصيد وتعود الى السير جاك فتقتله وتهرب فان لاخيه هنا مطلق السلطان .

– سأرى في اقتراحك .

وفيما كان الموكب يسير اذ علا صياح الهنود الذين يتقدمونه فوقفت الافيال تضرب الارض بارجلها واخذت الجياد تصهل وقد بدت عليها علائم الرعب ثم رأوا نمراً هائلا اخترق دائرة الافيال ووثب الى الفرس الذي كان يركبه السير روبرت فاطلقوا عليه نحو عشرين رصاصة دون ان يصيبوه ونشبت براثن النمر في صدر الجواد فانقلب صريعاً الى الارض .

ولكن السير روبرت كان قد وثب عنه فبينما كان النمر مشتغلا بنهش الجواد صوب السير روبرت غدارته الى اذن ذلك النمر واطلقها فاخترق الرصاص دماغه وانقلب ميتاً .

وعند ذلك ظهرت نمرة اشد هولا من النمر فقتلت اثنين من الهنود تعرضا لها ووثبت الى الفيل الابيض الذي كان يركبه الحاكم فاطلق عليها طلقتين من غدارته فلم تسقط وجعلت تمزق جلد الفيل ببراثنها وهو يحاول ان يقبض عليها بخرطومه فلا يستطيع .

وقد اطلق الحاكم النار عليها ايضاً فلم تسقط وجعلت تصعد على الفيل حتى شعر اللورد بانفاسها النارية تحرق وجهه فصاح السير روبرت بالهنود قائلا ويحكم لماذا لا تطلقون النار .

فقال الطبيب انهم لا يفعلون حذراً من ان يصيبوا الفيل الابيض فانهم من الشيعة التي تعبد الافيال البيض .

واستمرت النمرة في صعودها حتى وصلت الى اللورد ولم يعد يستطيع استخدام سلاحه وما شكك الحضور انها افترسته .

وعند ذلك رأوا فتى قد انقض على النمرة ولم تكن غير هنيهة حتى سقط واياها على الارض ثم نهض وقد صاح صيحة انتصار فانه اغمد خنجره في عنقها والقاها تتخبط بدمها فلم يكد السير روبرت يتبين وجه الفتى حتى صاح مندهشاً وقال :

هذا هو الفتى النوري الذي لقيته مع والد الطفلة .

وعند ذلك احدق الضباط الهنود بذلك الفتى وتدانى اللورد الى النزول عن الفيل فادنى الفتى منه وقال له :

من انت وهل انت من الهنود ؟

قال اني نوري وادعى جان دي فرانس .

قال ان من كان له بسالتك فلا يخلق به ان يعيش عيش المتشردين

فهل تريد ان تكون في خدمتي فأضمن لك مستقبلك .

فنظر اليه جان نظرة انكار وقال ارى انك لم تحسن تقدير خدمتي ايها اللورد فاني من النبلاء واني نسبي يتصل بالكونت دي غرانفيل فلا اخدم احداً .

فاصفر وجه اللورد واخرج كيسه من جيبه وناوله اياه فأبى جان ان يمد يده اليه وقال ليبق كيسك في جيبك فما انا من طلاب الصدقة .

ثم أدار له ظهره فخرج من الدائرة وتوارى بين الادغال .

فقال اللورد مغضباً لقد تجاسر هذا الوقح على رفض مكافأتي

فقال له السير روبرت بلهجه المتهكم ولكنه انقذ حياتك يا مولاي فواحدة بواحدة .

فعض اللورد شفته وقال لرفاقه هلموا بنا أيها الاسياد فاننا لا نزال بعيدين عن مركز الصيد .

فهمس السير روبرت باذن الطبيب قائلا أما أنا فسأرجع الى كلكوتا حين نصل الى اول عطفة فاني أريد ان اصطاد الرجل قبل ان اصطاد النمر .

قال اذن اركب جوادي فسأركب أنا أحد هذه الافيال .

...

كانت أخت جان دي فرانس تلقب بملكة النور وكان جان على حداثة سنه مطلق النفوذ على الطائفة ليس لانه أخو الملكة بل لانه أشد رجال الطائفة ذكاء وابعدهم همة وأحذقهم فكراً وأرقاهم نفساً فكانوا يحبونه ويحترمونه ولا يخالفون له أمراً كائنا

أعطي حقيقة سلطان الملوك .

فلما ترك اللورد كما تقدم مشى بين الادغال الى ان وصل الى مكان اكتظت فيه الاشجار فوجد هناك رجلاً هائل الخلقة كانه من الجبابرة وهو نوري من طائفة جان كانوا يلقبونه بشمشون لشدة قوته .

وكان هذا الرجل مضطجعاً على العشب فلما رأى جان نهض مسرعاً ووقف بين يديه بملء الاحترام فقال له جان متى أتيت يا شمشون ؟

قال منذ ساعة أيها الرئيس .

ـ ألم يرك أحد حين خرجت من محلة الطائفة ؟

ـ كلا .

ـ هل اتيت بمركبة النقل ؟

ـ انها هنا وراء الشجرة .

ـ حسناً فاعلم الآن اننا سننقل على هذه المركبة من الذهب والجارة الكريمة ما لا يوجد بعضه في خزائن الملوك فاني كنت أبحث عن هذا الكنز في الليل والنهار .

ـ هل وجدت مكانه يا سيدي ؟

ـ نعم فان هؤلاء الحكام يحسبون انهم تمكنوا من الشعب فانهم سادوا عليهم ولكنهم لا يطيعون الا مكرهين وهم لا يحلمون الا بالاستقلال ولكن لا بد لهم من المال الكثير ولذلك فقد اجتمعت كلمة هذا الشعب بحملته على حشد الاموال فجعل الغني والفقير والتاجر والعامل يضع كل منهم ما يتيسر له اقتصاده في

www.liilas.com/vb3
RAYAH FENAN

صناديق خاصة بالمعابد كتب عليها صناديق الاحسان فيطوف كل يوم أحد كهنتهم فيجمع هـذه الاموال ويأخذها في كل اسبوع فيذهب في ظلام الليل الى غابة . وهناك يجد كاهناً آخر في انتظاره فيأخذ منه الاموال ويقول له اذهب واحذر ان تلتفت الى الوراء .

فقال له شمشون وهذا الكاهن الى اين يذهب بالمال .

قال يذهب به الى كاهن ثالث فيأخذه منه الى مكان سري لا يعرفه سواه . وهذا السر لا يعرفه في جميع الهند غير ثلاثة من البراهمة وامرأة تحرس الكنز في الليل والنهار وسأعرف هـذا السر بعد ساعة .

كيف ذلك ؟

– لقد عرفت ان احد الكهنة سيأتي في هذه الليلة بما جمعه من المال .

– كيف عرفت ؟

– ان أحد هذا الرجل الذي سيأتي الآن يتنكر في النهار بشكل عازف بالقيثارة ويطوف مع احدى الراقصات في شوارع كلكوتا حتى اذا أقبل الليل خلع تنكره وعاد الى حقيقته فهو من أعاظم الزعماء وأحد العارفين بسر الكنز وقد سمعته في صباح اليوم يحدث الراقصة بهذا الشان فعلمت من الحديث انه سيأتي في هذه الليلة الى نبيع الآلهة امور دافالي وهو على قيد بضع خطوات من هنا .

– ولكن أي شان لي أنا في هذه المهمة ؟

– انك سترى هذا الرجل حين يأتي فتتبعه وتسير ورائي

على بعد مائة خطوة .

وعند ذلك سمع جان وقع خطوات فقال لشمشون همساً انك تعلم باني أقلد صوت عصفور الليل فابق الآن هنا الى أن تسمعني أقلد ذلك الصوت فتاتي الى جهة مصدره .

وقد مشى جان فوق الاعشاب الى أن وصـل الى بقعة لا شجر فيها فنظر الى تلك الجهـات التي كان ينيرها ضـوء القمر فرأى شبحاً أبيض واقفاً بعيداً تحت شجرة كبيرة فقال في نفسه لا شك انه شبح الكاهن الذي ينتظر .

وقد سار من ورائه حتى وصل الى تلك الشجرة واختبا وراءها فلم تكن غير هنيهة حتى رأى العازف بالقيثارة قد وصل وسمع الكاهن صاحب الثوب الابيض يساله قائلا بماذا أتيت أيها الآخ .

فاجابه قائلا بكيسين من الذهب .

قال هاتهما واذهب واني اسال آلهة الهند ان يرافقوك في طريقك فاعطاه الكيسين ثم انحنى الى الارض فقبل طرف ثوبه الأبيض .

فقال له الكاهن اذهب والويل لك من غضب الآلهـة اذا التفت الى الوراء فانصرف الرجل ممتثلا دون ان يلتفت .

أما الكاهن فقد لبث في موقفه الى أن توارى الرجـل فانصرف عائداً ومشى جان في اثره مستهدياً اليه بثوبه الابيض فان القمر كان على وشك المغيب .

وكان الكاهن يسير مسرعاً الى جهة الخرابات فلا شك جان ان الكنز مدفون تحت خرائب هيكل سيوا وما زال في أثره حتى وصل اليها ورآه جان قد ولجها ثم رأى لهباً ظهر لحظة وانطفا

سار جان ودخل الى تلك الخرابات فادرك الكاهن وهو جالس بين ادغال متكدسة من الأعشاب اليابسة وقد أخذ قطعتين من الخشب الجاف وحك الواحدة بالاخرى حكاً متصلا حتى خرج منهما اللهب فالقاهما بين الاعشاب اليابسة وحسب جان انها ستلتهب من فورها ولكن اللهب الذي ظهر من الخشبتين توارى في الحال وساد الظلام .

وعند ذلك اضطجع الكاهن فوق الاعشاب على وجهه وصاح قائلا :

أيتها العذراء حارسة الكنز هل أنت ساهرة ؟

فسمع جان صوتاً من جوف الارض لم يتبينه أما الكاهن فانه القى الكبريت فوق الاعشاب الواحد تلو الآخر وخرج من تلك الخرابات .

وقد حبس جان أنفاسه كي لا يسمع الكاهن صوت خفوق قلبه حين مر به دون أن يراه وجعل جان يقول في نفسه :

ما زالت الاعشاب لم تحترق فلا شك انها تستر مدخل الدهليز وان الخشبتين اللتين القاهما الكاهن انما هما اشارة متفق عليها .

وقد صبر نحو ربع ساعة وخطر له أن ينبه شمشون بالصفير ولكنه خشي أن ينبه اليه الافكار ثم ذهب الى تلك الاعشاب بعد ان وثق من انصراف الكاهن وجعل يزيحها عن مواضعها فانكشف له ثقب ضيق ولكنه يتسع لمرور انسان فيه .

وكان هذا الثقب مدخل دهليز في جوف الارض وهذا الدهليز كثير الانحناء يشبه السلم فقبض جان على خنجره ودخل من ذلك

الثقب وجعل ينزل في الدهليز حتى انتهى الى ارض رطبة مستوية .

وقد رأى عند ذلك نوراً عظيماً يشبه انوار المشاعل وسمع صوت امرأة تغني باللغة الهندية فتقول :

انا ابنة ساشديفا حارسة الكنز .

قضى علي الكهنة ان اعيش كل حياتي في جوف الارض وان اعيش بجانب ذهب وجواهر لا فائدة لي منها .

قضوا علي ان لا ارى وجه السماء واشعة الشمس وان لا اشم عطر الازهار .

اني صبية جميلة وحين كنت فوق الارض كان الفتيان يلتفون حولي ويلقبونني بآلهة الجمال .

قضى علي الكهنة ان اعيش بتولا وان لا اسمع كلمات الحب .

*

وقد رأى جان ارضاً متسعة فوقها من ارض الهيكل وفي وسط تلك الارض نار لم تكن تنطفىء في الليل والنهار .

ثم رأى على نور تلك النيران فتاة لم تقع بعد العيون على ابدع منها كانت تغني وترقص حول النار فلم تنتبه لسقوط جان فوقف هنيهة شبه مأخوذ امام هذه الفتاة ثم دنا منها فوضع يده على كتفها وقال لها :

انا هو الرجل الذي تنتظرينه فان الاله سيو الذي تحرسين كنزه قد اشفق عليك واجاب ملتمسك .

ولم يكن جاك اقل جمالاً منها فلما رأته وسمعت كلامه صاحت صيحة فرح ثم طوقت عنقه بذراعيها وقالت له لنهرب لنهرب .

قال اعم لنهرب يا ابنة الفردوس الى سيوا الذي ارسلني ولكن لنأخذ معنا هذا الكنز الذي تحرسينه .

فتراجعت الفتاة منذعرة وقالت اذن ما انت رسول الاله سيوا ما زلت تريد سرقة الكنز . اهرب ايها المنكود . كيف اتيت الى هنا ومن ارشدك الى طريق الكنز . اهرب ايها التاعس قبل ان يفاجئك الكهنة ويقتلوك .

وكان جان قد رأى تلك الدنانير الوهاجة والجواهر البراقة فقال لها احبك .

فعادت الى معانقته وقالت له اذن لنهرب معاً فاني اصحبك الى حيث تشاء ولكن دع هذا الكنز في مكانه فان الأله سيوا يصعقنا اذا سرقناه .

فهز جان كتفيه وقال لها اني اذهب بك الى اوروبا وهي بلادي وليس للاله سيوا شيء من السلطان هناك فنعيش اهنأ عيش بفضل هذا المال .

قالت كلا فان غضب سيوا ينزل بالناس اين كانوا فاكتف بي فانك ستجد من كنوز حبي ما لا تعادله كنوز الارض .

ثم تعلقت به وجعلت ترقص وترقصه وهي تغني وتقول كلا لم يقض سيوا على ابنة الهيكل ان تعيش تحت الارض . انها سترى النجوم وتستنشق اريج الزهر وتدوس رجلاها الصغيرتان على الاعشاب وتغمس شفتيها بمياه الينابيع .

ان ابنة الهيكل لا تحتاج الى الذهب واللآلىء فقد ظفرت بكنز الكنوز وهو الحب . لقد جاء الفتى الجميل الذي يحبني ويملأ فراغ

قلبي من الحب كما تملأ الاناءة اشعة الشمس .

وكانت تغني وهي ترقص رقصاً سريعاً وهو يحاربها ويقول في نفسه انها لا تلبث ان يستولي عليها التعب فاستولي على الكنز .

غير ان التعب ادركه قبل ان يدركها فقد كانت متعودة على هذا الرقص وقد اسكره صوتها الجميل ونظراتها الساحرة فاسترسل الى مراقصتها كما تشاء حتى انتهكت قواه وجلس على الارض وهو يلهث من التعب فدخلت الى غرفة في المغارة وجاءت بكاس ذهبية كان فيها سائل اصفر يشبه الخمر الاسبانية المعتقة فقالت له اشرب ما في هذه الكاس تعد اليك قواك .

فشرب كل ما في الكاس جرعة واحدة ولكن هذا الشراب لم يكد يستقر في جوفه حتى شعر ان جسمه ينتفض من البرد كأنه ملتف برداء من الثلج ثم شعر ان اعضاءه قد تشنجت وان لسانه قد انعقد ثم اطبقت عيناه وانقلب الى الارض دون حراك .

وعند ذلك برقت عينا الفتاة من الفرح وقالت لقد انقذته اذ لم يبق سبيل الى فراره فقد آن وقت مجيء الكهنة وسأخفيه وبعد انصرافهم ارد اليه الحياة ونهرب معاً .

وقد اخذت يديه وحاولت جره ولكنها لم تكد تفعل حتى افلتته وصاحت صيحة ذعر فقد فتح باب خفي في المغارة ودخل منه كاهنان يحملان مشعلين فلما رئيا جان على الارض صاح واحد منهما قائلا :

ما هذا ايوجد في الارض من يجرأ على اكتشاف هذا السر الذي لا يعرفه سوانا . اني باسم الهنا المعبود وباسم اخواننا المضطهدين

وبلادنا المغتصبة ودموعنا السائلة تحكم على هذا الجريء بالموت .

فصاحت الفتاة صيحة رعب اذ رأت الخنجر يلمع في يدكاهن سيوا .

●

ولنعد الان الى سراي اللورد الحاكم فقدكان ولده الصغير وهو لا يتجاوز الثالثة من عمره نائماً في سرير احدى ردهات القصر وبجانبه عبدان يحمل كل منها مروحة فيطرد بها الذباب عن ذلك الطفل .

وكان السير جاك اخو اللورد الحاكم وولده وهو في الرابعة عشرة من عمره جالسين على مقعد في تلك الردهة غير بعيد عن السرير فكان السير جاك ينظر الى ابن اخيه الصغير نظرات ملؤها الحقد ثم ينظر الى ولده ويقول له .

اي احسان احسن به هذا الطفل الشقي فاعدت له الاقدار هذا المستقبل الزاهر اما انت مثله جميل الوجه زكي الفؤاد لايجول في عروقك وعروقه دم واحد يا جيمس .

فأجابه ولده نعم يا ابي ولكنه ابن اخيك البكر .

ـ هو ذاك غير ان اخي شديد الهوس بصيد الحيوانات الضارية فما يمنع ان يقتله نمر او اسد .

ـ وهبه قتل فان ولده روجر يبقى حياً وهو في اتم عافية كما ترى .

ـ الم يكن اخوه ليونيل في اتم عافية ايضاً ومع ذلك فقد مات بين يدي حاضنته .

ـ واذا مات اخوه روجر .

ـ تصبح انت وريث لقب اللوردية اذا مات اخي قبلي .

ـ ان الاطفال الذين لم يخلقوا في الهند لايعيشون اذا لايطيقون احتمال مناخها الحار .

ـ نعم ولكن الخطر على الاطفال هنا لا يقتصر على الحميات فقد يموتون ايضا من عضاض الافاعي وغيرها من الحشرات السامة .

وفيما هما يتحدثان سمعا صوت ناي تعزف في الطريق تحت الردهة فقاما وأطلا فرأيا رجلا يلاعب الافاعي في الطريق والناس من حوله يتفرجون .

وقد وقفا يتفرجان الى ان شعر السير جاك بيد لمست كتفه فالتفت فرأى السير روبرت فيلدن فقال اهلا بك ايها الصديق فما شرفني بقدومك .

فتأبط السير روبرت ذراعه وقال له اذا كانت راقت لك هذه الفرجة فأنزل الى الطريق نرها عن كثب .

وقد تبادل الاب وابنه نظرة سريعة خفيت على السير روبرت ثم نزل الابن الى الطريق ودخل السير جاك بزائره الى احدى القاعات وقال له عهدي بك انك كنت في حفلة الصيد مع اخي فهل قتلت نمراً ام جئتني بنبأ من هذا الاخ العزيز ؟!

قال الحق اني قتلت نمراً ولكني سئمت من صيد النمور وجئت ابحث عن حيوان اشد فظاعة منها .

ـ ما هذا الحيوان .

ـ هو حيوان هائل من طبعه مهاجمة اعراض النساء .

فقطب السير جاك حاجبيه ومضى السير روبرت في حديثه فقال

وهو حيوان يمشي على قدميه كالانسان ولكن ليس له شيء من صفات الانسان ومع ذلك فانه يلقب بلقب الاشراف ويدعى السير جاك اسبرتهون .

فوقف السير جاك وقد وضع يده على قبضة حسامه وأخرج السير روبرت غدارة فصوبها اليه وقال :

انك اذا لم تصغ الي بملء السكينة المبت دماغك فاعلم اني لا اريد قتلك بالغدارة كما تستحق بل اريد قتلك ببارزة كأنك من الاشراف فقد وعدت ضحيتك اللادى سلى ان اقتلك او اموت من يدك .

فاستولى الخوف على السير جاك وقال له :

واذا ابيت ان ابارزك .

– اذن فاعلم انه لا يوجد ضابط انكليزي في هذه البلاد لا يعرفك حق العرفان ، وكلهم يحتقرونك ويودون لك الموت لتنجو الانسانية من شرورك فلا يوجد هنا من يحميك غير اخيك .

ولكن اخاك الآن في الصيد وهو لا يعود قبل الليل فاذا امتنعت عن مبارزتي صفعتك امام جميع الناس ثم قتلتك بالرصاص كما يقتلون الضواري .

فاصفر وجه السير جاك وهاج تأثره من الغضب فقال له ليكن ماتريد ولتتبارز الان .

فمد السير روبرت يده الى جهة البحر وقال له :

انظر الى هذه السفينة البيضاء فقد اتفقت معها على السفر وهي مسافرة بعد ساعة .

وانه يوجد بجانبها قارب وضعت فيه غدارتين وسنذهب اليه ونبعد به عن السفينة فاذا قتلتني فافعل بجثتي ما تشاء واذا قتلتك جعلت جثتك طعماً لسمك البحار فانك لا تستحق ان تدفن في الارض كما يدفن الناس .

– ولكني احب ان ارى ولدي على الاقل .

فأدرك السير روبرت انه يحاول الفرار فقبض على ذراعه بعنف وخرج به بالرغم عنه من القصر .

●

بينما كان السير جاك يسير مع خصمه الى البحر كان ولد السير جس قد ذهب للفرجة على الافاعي .

وقد ابتعد جميع المتفرجين احتراماً له حين قدومه حتى ان ملاعب الافاعي نفسه تهيب وامتنع عن ملاعبتها .

فأمره ان يعود الى عمله ثم دنا منه وهو يلاعب حية صغيرة فهمس في اذنه قائلا :

اتبيعني هذه الحية بخمسة جنيهات .

فسقط الناي من يده لفرط اندهاشه من هذا الثمن فقال له ارضيت . اسرع بالجواب فاني مستعجل .

قال رضيت يا مولاي .

ثم اسرع فأخرج من جرابه علبة صغيرة وضع فيها الافعى واقفلها وناوله اياها .

فأخذها جس ونقده الثمن وعاد الى ردهة القصر حيث كان ابن عمه الطفل الصغير نائماً في سريره .

وكانا العبدان اللذان يطردان الذباب بالمراوح عن سريره قد تركا السرير وذهبا الى آخر الردهة ليتفرجا على الحاوي فوقف جس وقفة المتردد وقد بحث عن ابيه فلم يجده فلم يطل تردده ومشى الى السرير فأزاح الغطاء عن الطفل وفتح العلبة فوثبت الافعى الى السرير فغطاهما بالغطاء وانصرف دون ان يراه العبدان .

فلما عاد العبدان الى السرير كان ذلك المركيز الصغير ابن اللورد الحاكم قد فارق الحياة وكان جس خرج من القصر باحثاً عن ابيه .

•

وبعد ذلك بنصف ساعة دوى طلقان ناريان في البحر ظهر دخانها من قارب .

اما ذلك القارب فانه دنا من سفينة بيضاء حتى التصق بها وكان شراعها منصوباً فخرجت من فورها من الميناء .

٢

عجائب

كان فارسان يسيران بين أحقول وقد اقفرت لهبوط الظلام فكان الاثنان ينظران الى كل الجهات عساهم يريان قبساً يسترشدان به فقد ضلا عن الطريق وكان هذان الفارسان اللورد أسبرتهون حاكم الهند والطبيب بولتون فقال اللورد :

أمقدر لنا ان نهيم كل الليل في هذه البراري ؟

فأجابه الطبيب قائلاً هذا الذي اخشاه .

قال اني سأموت من الجـــوع والعطش وان جوادي سيقتل التعب فأين نحن الآن .

ـ لا اعلم ولكني أظن اننا نبعد عشر مراحل عن كلكوتا ولكن انظر ألا ترى شبحاً أسود يتحرك ؟

ـ نعم ولكنه شجرة يحركها الهواء اذ لا يوجد انسان بهذه الضخامة .

وعند ذلك سمعا صوت هـذا الشبح يقول : جان ، جان ، أين انت ايها الرئيس ؟

فقال الطبيب لقد نجونا فاني اعرف صاحب هذا الصوت فهو شمشون الجبار .

وكان شمشون قد تبع سيده كما تقدم في الجزء السابق حـين ذهب الى الكنز وأمره أن ينتظره فانتظر كل الليل ثم اشرق الصباح ثم أذنت الشمس بالمغيب فكاد يجن من خوفه عليـه اذ خشي أن يكون الكهنة قد فتكوا به .

وقد جعل يهيم في تلك البراري باحثاً عن سيده وهو يقف من حين الى حين فيناديه بصوته الجهوري فلا يجيبه غير الصدى الى أن اتفق مرور اللورد والطبيب فدنا منه الطبيب وقال له :

ماذا أصابك يا شمشون ومن الذي تناديه ؟

قال اني انادي جان دي فرانس شقيق ملكتنا .

وكان شمشون قد عرف الطبيب اذ كان مديناً له بجميل لا ينساه فقد لقيه مرة في أحد شوارع كلكوتا مصاباً بطعنة خنجر في بطنه كادت تؤدي بحياته فعالجه وشفاه فقال ألا يوجد هنـا

مدينة قريبة .

قال لا يوجد غير كلكوتا وهي تبعد خمس مراحل .

– ألا يوجد مكان للمبيت ؟

– لا يوجد غير مضاربنا وهي تحت هذه القمة التي تراهـا وستجدان فيها خير مبيت .

فقال له اللورد اذن سر بنا اليها وسنكافئك .

ولم يكن شمشون يعلم انه يخاطب حاكم الهند فقال له لكن لا بد لي من البحث عن جان دي فرانس .

فقال له بولتون انه لا بد ان يكون رجع الى المضارب .

قال لقد اصبت يا سيدي الطبيب فان هذا الخاطر لم يخطر لي

ثم مشى امامهما فسارا في اثره يتحدثان بصوت منخفض .

فقال له اللورد .

اني أعجب بهؤلاء النورفان لهم نفوس الملوك وحالات المساكين ألا تذكر ما كان من هذا الفتى الذي انقذني من النمر ؟

– هذا هو الذي يبحث عنه شمشون .

– نعم نعم لقد ذكرت الآن فهو يدعى جان دي فرانس فما هذا الاسم الذي لقب نفسه به .

– انه يدعى بأنه من النبلاء .

فهز اللورد رأسه ضاحكاً وقال :

ايكون نبيلا ومتسولاً في حين واحد ولكنك اذكرتني بمناسبة الحديث عن هذه الطائفة حكاية جرت لي في لندرا منذ ثلاثة أو اربعة أعوام وسأقصها عليك كي لا تشعر بطول المسافة .

– اني مصغ اليك يا مولاي .

– تصور ايها العزيز اني أحببت مـدة أسبوع نورية كانت تحسبني من النور فقد خطر لي مرة ان اذهب الى المكان الذي يسمونه ساحة الملك .

– اني اعرف هذا المكان فقد اختبأت فيه مدة ستة أشهر لهربي من المدانين .

– وقد تنكرت بالملابس العامة وذهبت لارى ما تفعل هذه الطبقة من الناس في هذا المكان الشهير .

واتفق ان الزحام كان قليلا في تلك الليلة وكان هناك اثنان من طائفة النور يتحدثان بشأن حفلة قريبة سيعقد فيها زواج ولية عهد النور بولي عهد الدوق دي بولون .

وقد تبين لي من حديث الرجلين ان الخطيبين لم يتعارفا بعد وان هذا الزواج سياسي يراد به التوفيق بين طائفتي النور في لندرا وباريس وان الخطيب سيأتي من فرنسا الى لندرا ليعقد زواجه فيها وان الحفلة ستكون في ساحة الملك ليلة قدوم الخطيب .

فسألت احد الرجلين قائلا هل العروس حسناء .

قال لقد بلغ من جمالها ان اجمل سيدات لندوا لا تعد من وصائفها .

فهاج قوله رغبتي من رؤياها وقلت له اين يمكن مشاهدة هذه الفتاة .

قال انها تذهب في كل ليلة الى مضارب النور المخيم تحت جسر لندرا فتلقي عليهم اوامرها .

فاكتفت بهذا الجواب وبرحت الساحة على رجاء ان أرى تلك النورية .

وفي اليوم التالي اختبأت في مركبتي وتمكنت من رؤياها فاذا بها فوق ذلك الوصف .

وكان يصحبني خادم زكي الفؤاد فكان من ذكائه انه جعلني ابن لدوق دي بولون اي خطيب تلك النورية وخلوت بها في احد الغنادق .

وقد بالغت في ملاطفتها حتى غفرت لي اني ادعى اللورد اسبرتهون .

وأقمت معها اسبوعاً واحببتها حتى اني اردت ان اتوسط لطائفتها لدى اللورد المحافظ فلا ينفيها من لندرا .

ولكن رجال هذه الطائفة كانوا قد امعنوا بشرورهم حتى رجعت عن الوساطة حذراً من الفشل ونفيت الطائفة فسافرت ملكتها معها .

– ماذا كانت تدعى هذه الحسناء – سيلتيا .

– اما رأيتها بعد ذلك العهد – كلا .

– من يعلم فقد تكون في هذه المضارب التي تذهب اليها الآن .

فارتعش اللورد ولم يجب بشيء ورأيا عن ذلك انواراً تضيء فقال شمشون لقد وصلنا وهذه هي مضاربنا .

وكانت هذه المضارب مؤلفة من خمس خيام كبيرة ومركبتين ضخمتين كان يوجد فيها كثير من الآلات المختلفة واربع بقرات وقطيع من الماعز والخراف كانت موجودة في دائرة تبلغ مساحتها

مائة متر وهي مسورة بالقصب الهندي .

وكانت النار مشبوبة في ساحة في وسط الخيام وعليها دست كبير كانت عجوزان جالستين من حوله تطبخان فيه جدياً للعشاء وأمامهما خمسة من النور مضطجعون على الارض وكلبان كبيران ينظران الى قوائم الجدي البارزة من الدست ويهران وقد نفد صبرهما من الجوع وشغلا برائحة الطعام الشهية عن شم رائحة القادمين فلم يستقبلاهم بالنباح .

وكان يجري في الجهة اليسرى من المضرب حادثة اخرى وهي ان جميع رجال الطائفة وغلمانها كانوا واقفين بانتظام وقد تركز امامهم لوح كبير من الخشب ووقف رجل مستنداً ظهره الى هذا اللوح باسطاً ذراعيه عليه فكان يشبه بجملته شكل صليب .

وقد برز رجل من صف الواقفين فوقف على مسافة عشر خطوات من اللوح وعند قدميه كثير من الخناجر الحادة الطرف فكان يأخذ الخنجر ويرمي به اللوح فيشك به على قيد اصبع من وجه الرجل المصلوب ثم يأخذ غيره ويرمي به وهكذا على التوالي الى أن يشك الخناجر حول المصلوب وذراعه دون ان يصيبه باذى فيصفق له الحاضرون اعجابا بفوزه ويأتي سواه فيفعل هذا الفعل فانهم كانوا يتمرنون على استعمال السلاح بهذا الشكل ففي كل يوم يصلب واحد منهم فيرميه الباقون بالخناجر على ما تقدم .

وقد وقف اللورد والطبيب يتفرجان على هذا التمرين الخطر دون أن ينتبه لهم رجال القبيلة لانهماكهم بما كانوا فيه .

اما شمشون فانه اختلط بهم وجعل يبحث عن جان دي فرانس

فلم يره الى ان انتبه له واحد منهم فقال له :

ـ أهذا انت ياشمشون فمتى اتيت ؟

قال الآن فهل رأيت جان دي فرانس ؟

قال كلا فانه في كلكوته منذ يومين .

فتنهد شمشون وظهرت عليه علائم اليأس وعند ذلك رمى أحد اللاعبين آخر خنجر فأسرع سواه وقال :

لقد جاء دوري .

فصاح شمشون صيحة فرح فقد كان هذا القادم جان نفسه وأسرع اليه فقال له :

من اين اتيت ايها الرئيس ؟

قال لا اعلم واظن اني اتيت من عالم القبور ولكن اسكت الآن ستتحدث فيما بعد .

ثم اخذ الخنجر ورمى به اللوح فاخترق الخشب على قيد شعرة من اذن المصلوب .

وكان جاك اكثرهم تمرينا وأحذقهم رماية فشك ثمانية خناجر حول رأس الرجل فأصبحت شبه تلك الدائرة التي يرسمها المصورون من نور حول رؤوس القديسين .

ولما فرغ من ذلك ذهب الى المصلوب فانتزع الخناجر من حول رأسه وقال لرفاقه :

لقد جاء دوري الان فاني غبت يومين عن المضرب .

ثم وقف في موقف ذلك المصلوب وأمرهم أن يبدأوا التمرين به فانبرى واحد من الحضور ورماه بأربعة خناجر أصاب بها المرمى

ووقعت بجانب رأس جان في اللوح .

ثم رمى الخنجر الخامس فأصاب قبضة احد الخناجر المغروسة وهي من العاج فزلف عنها واصاب كتف جان .

وقد صاح الجميع صيحة رعب ولكن جان لم يتحرك من موضعه وتمتم بضع كلمات بصوت منخفض .

ورأى الطبيب بلتون ما كان وايقن انه مصاب بجرح بالغ فشق الزحام بعنف ووصل اليه .

أما النور فلم يندهلوا حين رأوا الطبيب فقد رأوه مراراً في سراي الحاكم حين كانوا يلعبون فيها هذه الالعاب .

اما الطبيب فانه اسرع الى ابعادهم عن جان ومزق قميصه وحاول ان يفحص الجرح .

ولكن جان اصفر وجهه ووهت رجلاه فطوقه الطبيب بذراعيه كي لا يسقط ونظر الى الجرح فرأى ان رأس الخنجر قد كسر ودخلت قطعته في كتفه فقال لهم :

اسرعوا بحمله الى خيمته فاني لا استطيع معالجته هنا .

فركضوا اليه يحاولون حمله ولكنه ابعدهم عنه وقال لهم دعوني فاني استطيع الوصول الى الخيمة وحدي .

وقد دخل الى أقرب الخيم منه وتبعه النور فجلس على حصير وخلع قميصه بينما كان بالتون يخرج عدة الجراحة ويعد المعدات اللازمة لضمد الجرح .

ثم أمر جميع النور ان يخرجوا من الخيمة وركع بجانب جان وجعل يخرج قطعة الخنجر من كتفه .

وكانت العملية مؤلمة جداً غير ان جاك لم يصح صيحة ألم وبلغ من تجلده انه لم يظهر على وجهه شيء يدل على التألم كأنما الطبيب كان يعمل بتمثال من الخطب .

فلما نزع القطعة واتم ضمد الجرح قال له وهو يمسح الالة الحق يا بني اني لم اجد اشد صبراً منك واني احمد الله الذي قدر لي المرور بكم في هذه الساعة فأخدمك خدمة فوق ما تتصورها فلو عالجك احد هؤلاء الدجالين لشوهك وجعلك اشل اليد .

واني ارجو ان تطيب بعد يومين ولكن لا بد لك ان تلزم الفراش في خلالها .

قال أألزم الفراش كل هذا العهد الطويل .

قال هذا ما اريده منك يابني .

فتمتم قائلا ولكن لا بد لي من الكنز ايضاً .

ولم يسمع الطبيب قوله فقال له :

سأعودك في الغد .

فكان الحاكم واقفاً الى تلك الساعة وقفة المتفرج فدنا من جان وسأله قائلا :

كم يبلغ عمرك ايها الفتى .

قال ستة عشر عاماً .

فقال الطبيب في نفسه :

أيكون عمره ستة عشر عاماً وتكون له جرأة الاسود وارادة القدر ومطامع سياسي غساوي ، انه لا يمر به عشرة اعوام حتى يصبح زعيم كل طائفته .

ثم وضع يده على رأسه وقال له بلهجة المشفق :

انك تتألم اليس كذلك .

فاطبق عينيه وقال كثيراً .

— ولكنك مع ذلك لا تشكو .

— ان الشكوى جديرة بالنساء والاطفال ولكني شديد الظمأ فأغيثوني بشربة ماء .

فأعد له الطبيب كأساً من شراب الليمون فسقاه اياه ثم قال له :

نم الآن يا بني فان النوم يفيدك اعظم فائدة .

فأطبق عينيه وهو يقول اشكرك يا سيدي الطبيب .

وبعد هنيهة نام نوماً هادئاً فالتفت الطبيب الى الحاكم وقال له ان التعب انهك جوادينا والمسافة من هنا الى كلكوتا تبلغ ثلاث ساعات الا ترى ان تقبل ضيافتهم وننام هنا بقية هذا الليل .

قال كما تشاء .

وعند ذلك فتح سجن الخيمة ودخل شمشون وحاول ان يبدو من جان فمنعه الطبيب قائلا انه نائم فلا تزعجه .

قال ان ملكتنا تريد ان تراكما .

فابتسم الطبيب ونظر الى الحاكم فقال له اللورد حسنا فهلم بنا الى جلالتها .

ثم ذهب الاثنان الى خيمة مزخرفة خارجة عن دائرة المضرب ورأيا رجلين عند بابها كأنهما يحرسانها في الليل والنهار فضحك الحاكم وقال :

اي فريق بينهما وبين الملوك فان لها ما لهم من الحاشية والحراس

وكان القمر يتلألأ في كبد السماء فلما وصلا الى الخيمة خرج منها غلام لا يتجاوز عمره ثلاثة اعوام وهو جميل الوجه يشبه ابن اللورد اتم الشبه فارتعش الحاكم حين رآه وفتح شمشون باب الخيمة وقال لهما تفضلا بالدخول .

وقد دخل الحاكم قبل رفيقه فوقف حائراً مبهوتاً اذ رأى امرأة في الخامسة والعشرين من العمر لها جمال يفتن الالباب وهي مضطجعة فوق حصير على الطريقة الشرقية فنظرت الى الحاكم وقالت له :

هل عرفتني ايها اللورد .

فقال بلهجة المتذهل اميرة النور .

قالت بل ملكتهم سينتيا .

ثم اشارت الى شمشون ان يخرج فقال لها اللورد أأنت هنا ؟

قالت نعم وستكون ضيفتنا هذه الليلة .

وعند ذلك دخل الغلام الى الخيمة فقال اللورد للطبيب ارجوك ايها الصديق ان تدعنا وحدنا .

فخرج الطبيب وهو يقول في نفسه لقد كنت اتوقع هذا اللقاء

وبعد خروجه دنا الحاكم منها وقال لها :

لقد كنت مخطئاً اليك ياسينتيا ولكني مستعد لاصلاح خطأي

قالت اني لا اسألك شيئاً ايها اللورد لا لي ولا لولدك هذا .

— ماذا تقولين اهذا الغلام ولدي .

انظر اليه فهو مثالك مجسما .

فاخذه اللورد بين يديه فجعل يقبله بلهف ثم قال لها حسنا

يا سينتيا ان ولدك سيكون غنياً قادراً فان لي مالاً كثيراً بحيث أستطيع ان اهب منه مقداراً عظيما دون ان اجحف بحق ولدي الشرعي فاعهدي الي بولدي فاني اربيه خير تربية واجعله من الاشراف .

قالت كلا فانه يكون نورياً مثل امه ولا تستطيع ان تسلبني اياه اذ تضطر الى الاعتراف بزواجك من نورية وهي فضيحة يحتنيها الاشراف .

قال ولكن لماذا تؤثرين عيش التشرد فهل تريدين ان تعودي الى لندرا فاني اقيمك في قصر ولعيشين ارفه عيش .

قالت كلا فاني اؤثر ان اكون ملكة في خيمتي الحقيرة على ان اكون عبدة في قصرك الفخم .

— ولكن دعيني انفع هذا الغلام بشيء .

— كلا ايها اللورد ولكن لي ما التمسه منك

— ماذا تريدين

— اريد ان تحمي طائفتنا التي يحميها الجميع

— اهذا كل ما تريدينه ؟

— نعم والآن استودعك الله ايها اللورد فقد امرت ان يحسنوا ضيافتك وضيافة رفيقك جهد الامكان .

ثم اشارت اليه ان ينصرف بجلال الملكات فنظر اليها نظرة اعجاب وقبل ذلك الطفل الذي لا يستطيع ان يعترف به وخرج فلقي الطبيب فقال له

تعال فاني لا اريد ان ابقى دقيقة في هذا المضرب واذا مات

جوادنا في الطريق سرعا الى كلكوتا مشيا على الاقدام .

٥

كان شمشون الجبار جالساً عند فراش جان كالكلب الامين فلم يغمض له جفن في تلك الليلة وليث ساهراً يصغي الى صوت تنفسات جان التي كانت تدل على انه شديد التعب

ثم سمعه يتنهد واشتد صوت تنهده فوقف شمشون قلقاً مضطرباً وفتح جان عينيه فقال

اني ظمآن

فافرغ له في كاس شراباً كان اعده له الطبيب فشربه بجملته وقال

رباه كم اتوجع ومع ذلك فلا بد لي من الحصول على الكنز قبل ان ينقله البراهمة من مكانه .

فقال له شمشون العلك وجدت الكنز ؟

قال نعم وهو اعظم مراراً من كنوز جميع ملوك الارض .

قال ولكن لماذا لم تدعني اليك يا سيدي .

قال اصغ الي تعلم السبب

ثم قص عليه كل ما جرى له في جوف الارض تحت خرابات الهيكل مع الفتاة حارسة الكنز وكيف انها راقصته حتى اعياه التعب فسقته شرابا يشبه الخمر الاسبانية .

وهو لم يعد يعلم شيئاً بعد ان اضاع رشده من هذا الشراب ولكنه حين استفاق لم يجد نفسه في تلك المغارة بل وجد نفسه ملقياً في الهواء الطلق تحت شجرة من تلك الاشجار الهندية المشهورة

بسموم اوراقها وظلها فان من يستظل تحتها يموت لا محالة .

وهذا النوع من الاشجار معروف في جميع الهند فلما رأى جان انه كان نائماً تحت تلك الشجرة الهائلة عجب كيف انه لم يمت وقال في نفسه :

لا شك ان الذين القوني هنا باتوا يعتقدون الان اني اصبحت من عالم الارواح .

وقد ذكر جان عند ذلك ان شرائع البراهمة تحرم سفك دم الانسان ولكنها لا تحرم قتله بالاختناق وانهم يكرهون النور كرهاً عظيماً ويخشون ان يتدنسوا بهم وهذا هو السبب الذي حملهم على ان يلقوه تحت الشجرة السامة .

هذا الذي خيل لجان انه حدث فيما كان يروي لشمشون ظنونه سمع وقع حوافر جواد فقال له :

اذهب وانظر ما هذا فان جميع رجالنا قد سكروا وناموا حسب عادتهم واخاف ان يكون الهنود قد غاروا علينا .

فخرج شمشون وقال جان في نفسه :

اني سأذهب هذه الليلة لاختطاف الكنز وسأصحب معي شمشون ولا ابالي بجرحي ولو قتلني .

وبعد هنيهة عاد شمشون الى الخيمة يصحبه ذلك الفارس الذي سمع وقع حوافر جواده فدهش جان حين رأى ان هذا الفارس انما هو الطبيب بالتون .

وكان العرق يسيل من وجه الطبيب وهو يحمل تحت رشاحه شيئاً لم يتبينه جان فقال له الطبيب :

اني لم ابت هنا وذهبت الى كلكوتا ثم عدت مسرعاً منها اليك لاحدثك بشأن خطير .

فاشار جان الى شمشون ان يخرج وقال له الطبيب والاضطراب باد في عينيه .

هل نحن وحدنا الان ؟ قال كما ترى — اواثق انه لا يسمع حديثنا احد — كل الثقة فقل ياسيدي ما تشاء فنظر اليه الطبيب نظرة الفاحص وقال له :

قل لي يا بني هل انت من اهل المطامع — ان لي مطامع ابناء الملوك .

— وهذه الاطماع اهي لخدمتك وخدمة قبيلتك .

— ثق انه متى اصبحت ملكا على طائفة النور لا يعودون يرسفون بقيود الذل ولا يطردون عن الابواب طرد الكلاب .

— اذن اصغي الي يا بني واعترض انهم اخذوا من طائفتكم غلاماً يتراوح عمره بين الثالثة والرابعة وانهم جعلوه ابن لورد عظيم وان هذا الغلام الذي ولدته امه النورية في البراري سيجلس يوما في مجلس اعيان المملكة ويجادل في شؤونها زملاءه اللوردية العظام .

فقال له جان الملك تهزأ بي يا سيدي وانت تعلم ان هذا الافتراض محال .

— ولكن هب ان هذا الافتراض اصبح حقيقة .

فبرقت عيناه كنجمين يضيئان في سماء مظلمة وقال انه اذا حدث ذلك فاني اسفك دمي في سبيل خدمة هذا الغلام واتمنى له ان يكون اعظم عظيم في بلاد الانكليز .

— اذن فاعلم اني قادم اليك لاخبرك ان هذا الافتراض الذي افترضناه ممكن الحدوث .

— كفى بربك يا سيدي فانك تضل صوابي .

فأخرج الطبيب من تحت وشاحه ذلك الشيء الذي كان يخفيه ووضعه على الفراش وكان ملتفاً بقطعة من القماش فأزاح القماش وظهرت من تحته جثة طفل فصاح جان قائلا :

ويلاه ما هذا .. ابن اختي سينتيا .

فهز الطبيب رأسه وقال كلا ليست جثة ابن اختك فانه في اتم عافية ولكن الشبه عظيم حتى انك خدعت به لاول وهلة كما استخدع انكلترا بحملتها . اتعلم من هو والد ابن اختك .

قال نعم فان اختي لا تكتم عني شيئاً من امورها فسان الذي خدعها يدعى اللورد اسبرتهون وهو الآن حاكم الهند .

— اذن فان هذا الغلام المسكين الذي تراه الآن كان يدعى في صباح هذا اليوم المركيز روجر دي اسبرتهون اتعلم ماذا يدعى الآن ؟ انه يجب ان يدعى اميري ابن سينتيا المتوفي بلسع افعى .

— لله مما اسمعه اتريد ان تستبدل ابن اللورد بابن اختي .

— هو ذاك واللورد ابو الولدين . — ولكن اختي قد ماتت من حزنها .

— كلا فان عزائها على فراقه انها ستغدو ام لورد .

— انك تغويني .

— بل اني اريد ان احقق امانيك واجعل ابن اختك من عظماء الارض فوثب جان من سريره وقال :

ليكن ما تريد وليعاقبني الله اذا كنت اسيء بما افعل فاعطني هذه الجثة وانتظرني خارج المضارب فلا يستطيع احد سواي الدخول الى خيمة اختي حيث ينام طفلها.

فدفع اليه الجثة وخرج وهو يقول :

لقد كنت اعلم يقيناً ان جان دي فرانس سيكون معنا وعلى ذلك فان موت ابن اللورد سيكون مكتوماً لا يعلم به الا انا واللورد وجان .

●

بزغت الشمس وصحت سنيتيا من رقادها وهي تبتسم فقد كانت حلمت ان ابنها بات له مستقبل زاهر وطال حلمها كل ليلها فما فتحت عينيها وجدت اخاها جالساً عند فراشها وهو يبتسم فقالت له :

لقد حلمت حلما سعيداً يا اخي .

قال ماذا حلمت يا اختي العزيزة .

قالت حلمت ان ولدي اميري قد اشتد وقوي وصار رجلاً يشبه بجماله الآلهة .

— سيصح حلمك يا سنيتيا .

— ولكن العجيب انه لم يكن يلبس كايلبس رجال قبيلتنا بل كان يلبس ملابس مذهبة وهو يتقلد حساماً مثل النبلاء ويلقبونه بصاحب السعادة .

ثم نهضت من فراشها وذهبت الى مهد ولدها فلم تكد تراه حتى تراجعت مذعورة وصاحت صيحة هائلة فقالت رباه ان

ولدي مات .

وكان جان يتوقع ما حدث فاسرع الى جثة ابن اللورد فحملها وقال لاخته : انظري اليه جيداً فما هو ولدك .

ثم كشف عن ذراع الطفل وقال لها :

انك تعلمين ان ولدك كان مرشوماً بعلامة طائفتنا فهل تجدين اثراً لهذا الوشم .

ولكن الام لا تحتاج الى مثل هذه العلامات لمعرفة ولدها فقد عرفته حين تمعنت في وجهه وقالت : نعم انه ليس ولدي ولكن ابن ولدي .

قال ان ابنك نائم الان في مهد من الحرير والعبيد يروحون حوله بالمراوح كي لا يزعجه الحر — ماذا تعني .

— اعني ان ابن اللورد الحاكم مات فحل ابنك محله وهو الان يدعى المركيز روجر دي اسبرتون .

فسقطت كل ركبتيها واهية القوى واخذت بالبكاء فقال لها جان :

ما هذا البكاء فان ولدك سيغدو سيداً عظيماً من كبار النبلاء وسيكون لوردا عظيماً يحضر جلسات مجلس الاعيان ويجالس الملك

— ولكنه عندي شبه ميت اذ لا اراه .

— كلا فاننا سنلازمه لزوم ظله ونحميه من كل طارىء ونعتزبه فنخلع عن رقابنا نير الذل والهوان ونشاركه في مجده .

ولكنها لم تنتبه لشيء من اقواله واسترسلت الى البكاء وهي تقول اريد ولدي . ردوا الي ولدي .

فنظر اليها جان تلك النظرات النافذة التي كان يستهوي بها قلوب رجال قبيلته وقال لها :

اني اذا ارجعت اليك ولدك يأتي يوم تندمين فيه الندم الشديد وتبكين بدموع من دم .

فأطرقت برأسها وجعلت تبكي وهي صامتة فقال لها :

لقد قلت لك سنتبعه في كل مكان فاذا احتاج الى دمائنا سفكناها في سبيله واذا اعوزه المال اعطيناه كنوزنا ينفق منها ما يشاء .

فحسبت ان اخاها قد جن وقالت له كنوزنا .

قال نعم فسيكون لنا في هذا المساء كنزا لا تعادله كنوز الارض وسيكون المستقبل لنا ولولدك .

●

والان لنبسط للقراء كيف كانت نجاة جان من قبضة البراهمة بعد ان تركناه مخدراً على الارض وخنجر الكاهن مشهر فوق صدره وقد قضى عليه بالموت لتجاسره على الدخول الى المغارة واكتشاف اسرار الكنز .

ان الفتاة الهندية حين رأت هذا الخطر المحدق به وصاحت بالكاهن قائلة :

ماذا تفعل ايها المنكود الا تعلم ان الاله الذي نعبده يحرم علينا سفك الدماء . قال يجب ان يموت .

قالت انه يموت ولكن دون ان نسفك دمه .

– اذن كيف يموت ؟

– احمله مع رفيقك والقياه تحت شجرة سامة فلا يشرق عليه

الصباح حتى يموت .

– لقد اصبت يا ناتا فانك على حداثة سنك لك حكمة الشيوخ وسنفعل ما اشرت به .

قالت ان موته سيكون محتما وقد تدركه النمور فتفترسه قبل الصباح .

وقد وافق الكاهنان على ذلك ودخلا الى مكان في المغارة فأتيا بخشبة فحملاه عليها وانصرفا .

ولكن الفتاة كانت قد اغتنمت فرصة بحثهما عن الخشبة فاسرعت الى زجاجة صغيرة وافرغتها في فم جان فلما ذهب الكاهنان به برقت عيناها من الفرح وجعلت تحدث نفسها فتقول :

نعم ان الشجرة السامة تقتل من ينام تحتها ولكن ابنة الكهنة التي قضي عليها ان تعيش في جوف الارض لا تريد ان يموت هذا الفتى الجميل الذي حرك عوامل قلبها ولذلك سقيته ترياقاً يقيه الموت من كل السموم وسيعود الي .

نعم انه سيعود فقد شعرت الى صدره يخفق خفوق صدري وسيذكرني حين يفيق ويعود الي فنهرب معاً الى حيث يشاء .

وقد نامت فلما صحت علمت من مقدار الخشب الذي التهمته النار ان زمن عودة الكهنة قد حان .

وقد اقبلوا بعد هنيهة فتجلدت اخفاء لاضطرابها وسألتهم اين وضعوه .

قالوا اننا وضعناه تحت شجرة سامة ولكننا لم نجده حين عودتنا فلا شك ان النمور اختطفته .

ثم تركوها وانصرفوا فكادت تجن من خوفها عليه وجعلت تضرع الى الاله سيوا ان يحميه ويقيه .

وفيما هي تصلي وتبتهل رأت جان داخل المغارة فصاحت صيحة فرح لا توصف وهجمت عليه فعانقته وهي تقول لم يكن عندي شك ايها الحبيب انك ستعود الي فدفعها عنه وهو يقول ارجعي ايتها الشقية فقد اردت قتلي بالسم والقيتني تحت الشجرة السامة

فضمت يديها وقالت كلا ايها الحبيب بل انقذتك من خناجر الكهنة لاني احبك .

فضحك جان وقال :

لا اعلم اذا كنت تحبينني ولكن الذي اعلمه اني محتاج الى هذا الكنز .

قالت ان ذلك لا يكون فاني لا اسرق اموال الهي قال اني اريد الكنز .

قالت بل انك لا تأخذ منه شيئاً فخذني الى حيث تشاء وساكون عبدة لك ولكن لندع كنزا الاله .

وقد عادت الى عناقه فصدها عنه بعنف وقال لها ان الوقت لا يتسع الآن للغرام فهل تريدين ان تتبعيني .

– نعم . – ولتأخذ معنا الكنز .

– كلا كلا . – اذن اصبري .

ثم وضع اصبعيه في فمه وصفر صفيراً خاصاً فلم تكن غير هنيهة حتى سقط من فم المغارة شمشون الجبار وناثانيال والد الطفلة التي تبناها السير روبرت .

وكان الاثنان مسلحين وهما يحملان كيسين كبيرين من الجلد فقال لهما قيدا هذه الحسناء وكماها كي لا تصيح .

وبعد ان امتثلا وضعا ما كان في المغارة من الجواهر والذهب في الكيسين وخرجا يتقدمهما جان فوضعوا الكيسين على مركبة وعادوا جميعهم الى المضارب وقد فاز جان بالكنز .

٣
المركيز

مضى سبعة عشر عاماً على الحوادث التي بسطناها كبر في خلالها ابن النورية اي ابن اخت جاك دي فرانس في قصر اللورد ابيه وكان يدعى المركيز روجر دي اسبرتهون وهو فتى في العشرين من العمر وله جمال تام وادب اتم . وقد بقي سر مولده مكتوماً عن جميع الناس ما خلا اباه وامه وخاله والطبيب بلتون .

وكان ابن عمه السير جمس قد اعتزل الخدمة في الجيش واقام في قصرهم القديم في اسبرتهون وهو في الثلاثين من العمر وله نظرات تدل على الحقد وشفتان رقيقتان تدلان على انه مفطور على الخبث

ففي يوم من ايام الربيع كان المركيز روجر سائراً على جواده يصحبه خادمه لزيارة ابن عمه السير جمس .

وما زال سائراً حتى وصل الى الغابة المؤدية الى منزل ابن عمه فانتبه لصهيل جواد كان يسير في تلك الغابة بغارسه فقال من عسى ان يكون هذا الفارس العله ابن عمي قادم لزيارتي .

ولكنه لم يلبث ان تبين خطأه بعد بضع خطوات فقال ترى من هو هذا الفارس ؟

فقال له خادمه اظنه ياسيدي ذلك الهندي الذي اشترى ارض الورد جاك جريجور منذ اسبوعين .

قال لقد سمعت شيئاً من اخبار هذا الرجل فقد قيل انه اتى بثروة عظيمة .

ثم واصل الاثنان سيرهما ولما توغلا في الغابة اعترض المركيز امرأة نورية تبلغ نحو الاربعين من العمر فقال لها ماذا تريدين

قالت اود لو اذنت لي ان ارى طالعك فاني اعرف باسرار المستقبل فضحك المركيز وقال احق انك تعرفين : قالت نعم :

قال لا ارى في سماء مستقبلي شيئاً من الغيوم فاني في العشرين من عمري ولي ثروة يبلغ ريعها الملايين وانا من لوردية انكلترا وقائد فرقة الملك .

قالت ان الاخطار قـــد تهدد الملوك انفسهم فدعني ارى باطن كفك .

فبسط لها يده وهو يبتسم فنظرت فيه وقالت :

ارى ان خطراً عظيماً يحدق بك وخير لك ان لا تذهب للصيد غداً .

– كيف عرفت اني سأصيد غداً .

– ألم اقل لك اني اعرف المستقبل – واي خطر عـلي من صيد الثعالب .

– ان من يصيد الثعلب قد يلقى في طريقه دباً كاسراً – ولكن الوحوش الكاسرة لا اثر لها هنا .

– انصحك ان تثق بما اقوله لك وان لا تذهب غداً للصيد .

– حسناً فسوف ارى والان فهل بقي لك ما تتنبأين لي عنه فعادت الى فحص يده وقالت لهانك من العشاق ياسيدي فارتعش وقال ذلك ممكن فهل انا مخطىء ايضا في هذا الحب فهزت رأسها وقالت انك قد تندم لحبك هذا .

– وانت ما زلت تعلمين كل شيء فقولي لي هل تحبني التي احبها

– سأجيبك في فرصة اخرى اذ يوجد في يدك خط لم يكتمل بعد والان استودعك الله واسأله ان يحرسك .

فرمى لها المركيز دينارين وواصل سيره وهو يقول ترى لماذا اندم لحبي من الن .

ثم قال لخادمه اتعرف هذه المرأة ؟

قال نعم فهي نورية ترتزق من هذا التدجيل فاطمئن ياسيدي فان نكهاتها لا تصدق .

●

كان السير جمس في احدى قاعات قصره فدخل اليه خادمه وقال له ان ابن عمك يا مولاي قادم لزيارتك .

قال كيف عرفت ذلك .

قال رأيته من الشرفة قادماً يجواده عند مخرج الغابة .

– اتعلم يا ويلسن ان ابن عمي كتب لي رسالة .

– نعم وقد دعاك فيها الى صيد الثعالب .

وقد رفضت الدعوة لثقتي انه سيزورني ويلح علي فأقبل .

– اذا كان ذلك فلماذا رفضت في البدء ؟

– لانه اذا حدثت نكبة غداً في الصيد فلا يظنون اني انا

اعددتها لاغتيال ابن عمي كي ارثه .

– اتتوقع يا مولاي حدوث نكبة غداً ؟

– نعم .

– كيف ذلك ؟

– ان من يصيد الثعلب قد يلقى دباً .

– ولكن لا يوجد هنا وحوش ضارية .

– سيوجد وحش في الغدبلون الجواد الذي يركبه ابن عمي العزيز

– انه لا يركب غير جواده نيشون الاسود كما تعلم .

– حسنا وان هذا الوحش ولعاً بالهجوم على الجياد السود.

فنظر اليه الخادم نظرة المتذهل دون ان يفهم فقال له :

– سأكشف لك هذا المعنى والان فلتتهيأ لاستقبال رئيس اسرتنا .

فخرج الخادم وجعل السير جيمس يقول اني لا ازال اعجب كيف انه سلم من الاعمى فقد رضعته في سريره حين كان له من العمر ثلاثة اعوام .

وبعد هنيهة دخل المركيز فبالغ السير جيمس بالاحتفاء به فأقام عنده ساعة وقد ألح عليه كثيراً حتى رضي بحضور حفلة الصيد ثم افترقا فشيعه الى الباب الخارجي .

وبعد انصرافه نادى خادمه وقال له تعال الان اخبرك بما عزمت عليه . اتذكراني كنت في الشتاء الماضي اذهب الى هايد بارك

– انك كنت تذهب كل يوم يا مولاي

– ذلك انه كان يوجد عند باب هذه الحديقة الكبرى رجل

يروض الوحوش الضارية فلبثت بضعة ايام احضر هذه الالعاب الى ان دعوت يوماً مروض الوحوش وقلت له كم تكسب في يومك ؟

قال عشرة شلنات تقريباً .

قلت اتريد ان تكسب ثلاثين ؟

قال دون شك فماذا تريد ان اصنع ؟

قلت اريد ان تلاعب الوحوش امامي وحدي في كل يوم .

فاتفقنا على ذلك وجعل يلاعب وحوشه مدة ثلاثة اشهر كل ليلة من انتصاف الليل الى الساعة الثانية بعده .

وكانت الطريقة التي اخترتها هي ان يلبس براثن دب كاسر عنده احذية من الجلد كي لا يستطيع الايذاء بها ثم يخرجه الى ساحة اللعب فيجد هناك رجلا يلبس ملابس الفرسان وهو يتخطى جواداً اسود فيسير بجواده حول هذا الدب ويجلده بسوطه جلداً اليما

وقد لبث الدب يصبر على الاذى مدة ثلاثة ايام وفي اليوم الرابع جعلت عيناه تتوهجان من الغضب حين يرى الفارس وجواده الاسود .

ولبثنا على هـــذا التمرين ستة اشهر وفي كل يوم يرى الدب الجواد الاسود ويشعر بالسياط تمزق جلده الى ان خطر لي ان اجربه آخر تجربة فأتيت بتمثال من الخشب البسته ملابس الفرسان واركبته على جواد اسود ووضعته في ساحة اللعب ثم امرت مروض الوحوش فنزع احذية الجلد من براثن الدب وفتح له باب القفص فلما رأى الجواد وفارسه هجم عليهما هجوماً هائلا ولم تكن غير هنيهة حتى بقر بطن الجواد وحطم التمثال الخشبي وبات الدب ممزقا

www.liilas.com

اتم التمرين .

فقال له الخادم اين هو الدب الآن .

قال لقد جاء به مروضه امس الى الغابة التي سنصيد فيها غداً

قال ولكن هذه الحفلة سيحضرها كثيرون وملابس الاشراف متشابهة ويوجد بين جيادهم بعض جياد سوداء .

قال لقد احتطت لهذا الامر ولكن المركيز سيصل الى موقف الدب قبل سواه .

– كيف ذلك يا سيدي .

– ذلك منوط بك فماذا يكون من الجواد اذا وضع تحت سرجة صنارة صيد وغرست في لحمه .

– انه يهيج في الحال ويجمح بفارسه .

– كلا انه لا يهيج في الحال بل بعد ساعة .

– كيف ذلك .

– ذلك ان تلف الصنارة بشمع ويخاط اسفلها بالسرج فمتى سار الجواد ساعه اذابت الحرارة الشمع ودخلت الصنارة الى لحم الجواد

والان فانك ستذهب في هذا المساء الى قصر ابن عمي فتنام هناك مع الجيـــاد وكلاب الصيد واذا كنت حاذقاً تمكنت من وضع الصنارة تحت السرج .

قال اطمئن فسيكون ما اردت .

قال وانا متى ورثت ملايين ابن عمي ولقبـــه اعرف كيف اكافئك .

●

وهنا لا بد لنا ان نذكر شيئاً بالايجاز عن ابطال هذه الرواية الذين تركناهم في الهند منذ سبعة عشر عاماً وقد عادوا كلهم اليها الان فان اللورد اسبرتهون اعتزل منصبه في الهند وعاد الى لندرا فمات فيها منذ عام وهو يعتقد انه ليس له غير ولد واحد من امرأته غير الشرعية اي ابن النورية .

وجان دي فرانس عاد مع طائفته الى لندرا تصحبه اخته ام المركيز .

وقد جاء بتلك الاموال العظيمة التي اخذها من هيكل سيوا واقام في لندرا متنكراً باسم النائب عثمان .

وناتا الهندية التي كانت حارسة الكنز اطلق الكهنة سراحها فحقدت حقداً عظيماً على جان وجعلت تطوف اوربا باحثة عنه للانتقام .

والسير روبرت قتل اخا اللورد بمبارزة وعاد الى لندرا مع الطفلة التي اشتراها مع ابيها ناثانيال النوري فرباها واوهم الناس انها ابنة اخ له متوف في الهند وهي الان في مقتبل الشباب تدعى مس الن ولها جمال نادر واللادي سيل امرأة اللورد اسبرتهون الشرعية عادت من ايكوسيا الى لندرا بصحبتها ولدها ليونيل ابن اللورد الاصغر ولكنهم اوهمت جميع الناس ان ولدها قد مات حذراً عليه من بطش اخي زوجها بعد ان وثقت انه يريد قتله وكتمت عن ولدها نفسه سر والده فهو يعتقد انه ابن احد الضباط وان اللادي سيل كفلته صغيراً وربته عندها .

والطبيب بولتون عاد ايضاً الى لندرا وهو مع السير روبرت

من اصدقاء المركيز روجر .

وكان المركيز روجر وليونيل ابن اللورد الشرعي يحبان مس الن وكلاهما لا يعلمان انهما اخوان ويجهلان انهما يحبان امرأة واحدة

ففي الليلة التي تقدمت حفلة الصيد كان نحو اربعين مدعواً جالسين على مائدة المركيز روجر بينهم مس الن تضيء اضاءة البدر بين النجوم .

وكان الجميع يتسابقون الى اكرامها ويطمعون بنيل ابتسامة منها ولكنها لم تكن تبتسم في تلك الليلة بل كانت منقبضة الصدر حتى لقد خيل للمركيز انه رأى دمعة سقطت من عينها

ولما فرغوا من الطعام جيء بالخمرة الفرنساوية وحان دور شرب الانخاب فوقف المركيز وكأسه في يده وقال :

ايها اللوردية والسادة اني شربت نخب مس الن الحسناء .

فشكرته الفتاة بابتسامة وقالت :

وانا اشرب نخب الكولونيل روجر .

فاجابها روجر ان الكولونيل روجر يضع فرقة تحت امرك .

فابتسمت وقالت ما عدا قائدها فيما اظن .

قال بل الفرقة وقائدها .

قالت احذر مما تقول فلو اعطيت هذه السيارة هنيهة لالتمست من الكولونيل التماسا : قال مري بما تشائين .

— اتفعل ما اطلبه اليك — دون شك .

اذن اني اسألك مركز ضابط في فرقتك فضحك وقال أأنت التي تتولين هذا المنصب .

قالت بل لفتى يتولى عمي حمايته وانا احبه حب اخ وهو ليونيل فارز .

قال ان اخي كان يدعى بهذا الاسم حين مات وهو في سن الرضاع .

وقد عينت هذا الفتى كما تريدين وسأجعله من اصدقائي .

فعادت الى شرب نخبه وشاركها الجميع في شرب هذا النخب وبعد ذلك نهضوا عن المائدة وقال لهم المركيز لا تنسوا انها الاسياد نحن سنركب الجياد في الساعة التاسعة في صباح غد واما السيدات فانهن يتبعننا في المركبات . فقالت مس الن اما انا فامتطي جواداً

فقال لها المركيز اذا كان ذلك فاني اعد لك جواداً لا يوجد جواد يماثله في ايكوسيا .

فمدت له يدها شاكرة فقبل يدها وقال في نفسه لم يعد لي طاقة على الصبر وسأبوح لها غداً بغرامي .

في صباح اليوم التالي ركب الجميع جيادهم واطلقوا بها الى الغابة فكانت مس الن تسير بجانب المركيز ووراءهما ابن عمه السير جيمس وخادمه ويلسن .

فلما وصلوا الى مكان الصيد ذاب الشمع وشعر جواد المركيز بوخز الصنارة فجعل يهيج ويحاول الركض والمركيز يمنعه كي لا يفارق مس الن الى ان قال لها هذه اول مرة رأيت فيها جوادي على هذه الشدة .

قالت اطلق له العنان فاني اتبعك .

فأرخى له عنانه فانطلق كالسهم وتمكنت الفتاة من ادراكه فقد

كان جواد شديداً وكذلك السير جيمس وخادمه فقد كانا لا يبعدان عنه اكثر من مائة خطوة خلافاً لبقية الفرسان فقد كانت جيادهم ضعيفة فلم تتمكن من اللحاق .

اما المركيز فقد شعر ان جموح جواده غير طبيعي وحاول مراراً ان يكبح جماحه فلم يستطع .

الى ان وصل الى قمة عالية وهناك صاحت الفتاة صيحة منكرة وغطت وجهها من الذعر فانها رأت وحشاً هائلا قد انقض من اعلا القمة انقضاض الصاعقة وهجم على جواد المركيز فبقر بطنه والقاه على الارض مع فارسه .

وقد حاول الوحش ان يبطش بالمركيز وعند ذلك سمع صفير تلاه صوت رجل يقول : تون . تون .

فالتفت الدب الى مصدر الصوت وظهر رجل هائل الخلقة من بين الاشجار فجعل الدب ينظر اليه بعينيه الصغيرتين نظر المتذهل فقال له الرجل تعال .

فمشى الدب خطوتين اليه كأنما صوت الرجل سحره فقال له نم هنا فامتثل طائعاً وجعل يلحس قدمي الرجل .

وقد جرت هذه الحادثة بدقيقة تمكن المركيز في خلالها من النهوض اذ لم يكن اصيب الا برضوض بسيطة .

اما الرجل فانه ابتسم للمركيز وقال له ارجو ياسيدي ان لا تكون اصبت باذى .

قال كلا ولكن وحشك كاد يفترسني .

قال انك واهم يا سيدي فهذا الوحش ليس لي . ـ ماذا تقول .

ـ اقول الحق فقد كان لي ولكني بعته منذ ثلاثة اعوام فلما سمع صوتي الان عرفني .

وكان السير جيمس وخادمه رأيا هذا المشهد من بعيد فقال الخادم ان مروض الوحوش قد خاننا ولا اجد خيراً من الهرب قال لقد اصبت فلنذهب .

وكانت مس الن قد اطمأنت خلافاً لجوادها فقد كان يرتعد فأمر الرجل الدب ان يصعد الى القمة فامتثل وعاد المركيز الى محادثته فقال له تقول ان هذا الوحش ليس لك . قال نعم فقد بعته حين اعتزلت مهنتي .

ـ لمن بعته ـ لرجل يدعى سيمون وهو يروض الوحوش .

فقالت مس الن وكيف اتفق وجود هذا الوحش هنا .

قال لا اعلم ـ وانت كيف اتفق وجودك هنا .

انا هنا بامر الرئيس ـ من هو هذا الرئيس .

ـ هو الذي اسفك في سبيل خدمته كل دمي .

ـ ماذا يدعى .

فمد يده مشيراً الى جهة الغابة وقال هذا هو فالتفت المركيز وصاح صيحة دهش اما الفتاة فانها كادت ان تسقط عن جوادها حين رأته .

وقد اقبل هذا الذي يدعونه بالرئيس فقال للذي انقذ المركيز لقد احسنت يا شمشون فانك اصدق المخلصين .

كان هذا الرجل جان دي فرانس الذي كان يعرفه اهل لندرا باسم النابلب عثمان .

وقد انحنى المركيز امامه مسلماً وقال اني نجوت من الموت باعجوبة ويظهر انك كنت سبب نجاتي .

قال هو ذاك .

فحاول المركيز ان يشكره ولكنه قاطعه باشارة وقال له انظر الى هذة القمة فان صاحب الدب كان مختبئاً فيها لينتظر قدومك فلما رآك اطلق عليك الوحش ولكنه كان يوجد رجل مختبئاً وراءه فاغمد خنجرين كتفيه واسرع في اثر الدب وغدارته في يده فلو لم يعرف صوت صاحبه القديم لاطلق عليه النار وقتله افهمت الان .

قال كلا فلم افهم السبب الذي حمل هذا الرجل على ان يطلق وحشه علي ـ انه لم يكن غير آلة في يد سواه .

ـ ألي اعداء يريدون قتلي .

ان من كان له صباك ونبلك وثروتك لا يخلو من اعداء ورجائي ان تأذن لي بأن لا اصرح بأكثر من هذا .

ولكن ارجو ان تقول لي على الاقل من الذي كان مختبئاً وراء مروض الوحوش وقتله .

ـ هو انا ـ افت .

ـ نعم والان ارجوك يا سيدي ان تأذن لي بالانصراف فاني ارى رفاقك قادمين وقد تأخروا عن انقاذك ولكنهم سيعطوك جواداً تعود عليه فاستودعك الله .

ثم نظر الى جواد مس الن وقال لها ان حزام جوادك قد ارتخى ياسيدتي فأذني لي ان اشده .

وقد دنا منها فشد الحزام وقال لها همسا :

يا تويسي النورية ان الرئيس يأمرك ان تذهبي بعد ثمانية ايام في الساعة العاشرة من المساء الى ديتفورد وان تنتظريه هناك وحدك

ثم ودع المركيز وانصرف وتبعه شمشون يصحبه الدب .

وعند ذلك التفت المركيز الى مس الن فرآها مصفرة الوجه تضطرب فحسب ان اضطرابها من حادثته وقال لها ما هـذا الاضطراب ؟

قالت اني اضطرب من خوفي عليك .

قال اعرفت هذا الذي انقذني . ـ قالت كلا .

وقد اطرقت برأسها الى الارض كأنها تريد اخفاء مخاوفها وعند ذلك القطع الحديث بينهما لقدوم رفاق الصيد .

●

اما عثمان او جان دي فرانس فانه عاد من فوره الى لندرا وذهب الى بائع المجوهرات وقال له اسعدت صباحاً يا ثانيال فوقف الرجل اجلالا له وحياه باسم الرئيس فقال له عثمان كيف مصير الاعمال؟

قال انها في خير حال .

فابتسم وقال له اذن انت غير آسف على الزمن القديم حين كنت ترتزق من سرقة كلبك .

قال كلا ايها الرئيس ولكن ـ ولكن ماذا ؟

ـ ولكني يخطر لي احيانا بعد هذه السعادة اني وحدي .

ـ تزوج .

– كلا ليس هذا الذي اعنيه فقد مت مرة بالزواج ولا يشتهي الموت من ذاقه وتكفي نادم لاني بعت بنتي فانها من دمي واني احن اليها .

اذن انت تريد ان تراها .

– واأسفاه كيف السبيل الى ذلك وانا لا اعلم ما جرى ولا اعرف اسم الرجل الذي اخذها مني .

– ان لندرا كبيرة غير ان من يبحث يجد . – احق ما تقول يا سيدي .

– انك علمت بالتجربة اني حين اقول امراً لا اخيب .

– انها تبلغ الان الحادية والعشرين من عمرها اذا كانت لاتزال باقية في قيد الحياة وقد كانت تشبه امها فهي لا بد ان تكون من اجمل الفتيات فاذا اشتغلت معي راجت تجارتي اعظم رواج .

– لقد عرفت الان معنى حنوك الابوي ولكني سأجد بنتك فهل هي موسومة بعلامة طائفتنا .

– دون شك فقد وسمتها حين ولادتها – اليس لها علامة اخرى؟

– نعم فقد عضها الكلب في حداثتها ولا بد ان يكون اثر هذا العض باقيا بين الابهام والسبابة .

– حسنا فسأبحث عن بنتك ولكني اشترط شرطا – ما هو؟

– هو اني حين ارشدك اليها واقول لك هذه هي بنتك تطالب بها

– هذا لا ريب فيه . فودعه وانصرف .

وفي اليوم التالي دخل ليونيل في فرقة المركيز وقد احسن استقباله وعينه ضابطا وجاءت امه من الريف فأقامت متنكرة

في لندرا فلم يكن يعرف امرها غير السير روبرت .

واما السير جيمس ابن عم المركيز فقد كان اسفه عظيما لخيبة مساعيه فصبر حتى اطمأن وايقن ان ابن عمه لم يعلم شيئاً من حقيقة امره فعاد الى الكيد له واغرى رجلا مشهوراً بالمبارزة ورشاه بالمال كي يبارز المركيز .

ولم يقتصر على ذلك بل انه اشترى حساماً مقلدا من نوري وهو سيف يتكسر لاول صدمة واهداه الى ابن عمه المركيز .

وكان عثمان قد عرف بامر المبارزة وعلم من النوري سر السيف فذهب الى المركيز وسأله ان يجعله من شهوده ففعل .

وفي اليوم المعين للمبارزة ابدل سيف الرجل بسيف المركيز المقلد وجرت المبارزة فدارت الدائرة على الرجل فأخبره عثمان بحكاية السيف المقلد ولكنه كتم عنه مكيدة ابن عمه فشكره المركيز شكرا حميا اذ انقذه مرة ثانية من الموت ولكنه كان شديد الاضطراب اذ ايقن الان ان له عدوا هائلا ولكنه لم يعرف هذا العدو فان عثمان ابى ان يخبره عنه مدعياً انه لم يعرفه بعد.

غير انه قال اطمئن فاذا كان لك عدو فلك كثير من الاصدقاء وان عيونهم لا تنام .

فلم يكن هذا الكلام الا ليزيد وواجس المركيز فانه لم يفهم سبب هذه الصداقة ولا ذاك العداء .

بعد حادثة الوحش بثمانية ايام كان عثمان يسير مسرعاً على ضفة نهر التيمس الى ان دخل الى مكان معين فالتفت الى ما حواليه ليرى اذا كان يتبعه احد فلما لم يجد ما يريبه صفر صفيراً خاصاً

بفمه ثم اتشح بردائه ووقف ينظر .

وبعد هنيهة سمع صوت المجازيف فالتفت فرأى قاربا يدنو مسرعا الى الشاطىء .

وكانت الساعة قد بلغت التاسعة من المساء وظلام الليل مشتد الحلك فنظر الى القارب محدقا وقال :

اهذا انت يا شمشون . قال نعم ايها الرئيس .

فوثب عثمان الى القارب ونظر في ساعته فقال :

لقد دنا الوقت فاسرع يا شمشون وسر بي الى دربيتورد !

وبينما كان القارب يسير كان عثمان يحدث نفسه فيقول، سوف نرى يا مس الن ما يكون .

وقد كان الهواء شديدا والتيار سريع الجريان فاندفع القارب بملء السرعة .

وكان الضباب شديد متلبدا حتى ان المصابيح التي كانت مضاءة على ضفتي النهر لم تكن ترى لشدة تلبد الضباب

ومع ذلك فان شمشون كان يسير بقاربه بملء المهارة ويدفعه بين السفن الكبرى دون ان يخشى الاصطدام .

وبعد ساعة وصل الى المكان الذي كان ذاهبا اليه فنظر عثمان الى منزل منعزل تحيط به الاشجار على الضفة اليمنى فلم يجد فيه اثرا للنور فقطب حاجبيه وقال في نفسه . ترى اجسرت مس الن على مخالفة امري فلم تحضر .

ثم امر شمشون ان يرسو عند ذلك الشاطىء وخرج من القارب فقال لشمشون :

ابعد قليلا ولا تعد الا حين اناديك بالصفير .

وقد مشى الى ذلك المنزل وسار بضع خطوات تحت جدرانه المظلمة وهو يقول . لا بد لنا ان تكون مس الن هنا .

وفيما هو على ذلك رأى فجأة نوراً قد لمع من وراء احد النوافذ ثم فتحت النافذة فدنا منها وسمع صوتا يقول لمن انت؟

قال انا هو الذي تنتظريه . قالت ان النافذة مفتوحة فادخل فتسلق الجدار الى النافذة ووثب منها الى الغرفة التي كانت فيها وهي غرفة مفروشة بالحرير ومزينة بالازهار وغير ذلك من التزيين الدقيق الذي لا يفهم اسراره غير النساء .

وعلى الجدران رسوم مصورة باليد كتب تحتها اسم الن دلالة على انها هي التي صورتها .

وبين هذه الرسوم رسم السير روبرت مما يدل على ان الفتاة كانت في منزلها الصيفي .

وان تربية الفتاة في بلاد الانكليز تختلف كثيرا عن تربيتها في سائر البلدان فان ذويها يمنحونها الحرية المطلقة فتركب الجياد وتسير وحدها في الشوارع وتتنزه في القوارب دون ان يصحبها احد اذا شاءت .

ولذلك كانت مس الن متمتعة بكل ما تتوق اليه نفوس العذارى من الحرية .

وكان السير روبرت قد ذهب منذ يومين الى ايكوسيا في بعض الشؤون وترك مس الن في لندرا مع مربيتها القديمة .

ولكنها كانت تاتي في كل مساء الى منزلهم الصيفي فتبيت فيه

وعند الصباح تركب قاربا وتعود الى لندرا .

وقد وقف عثمان امامها وبدأت هي الحديث فقالت :

لقد احببت ان اراك يا سيدي لاني لا ازال افكر الى الآن دون ان ادرك معنى ما قلته لي في حفلة الصيد منذ ثمانية ايام .

قال اذن انت تريدين ان اوضح لك معناه ؟

فاجابته بجفاء قائلة . — نعم ولا اريد ان تطيل انتظاري .

فجلس على كرسي امامها وقال لها :

اذن اعلمي ايتها العزيزة توبسي اني قادم اليك لاعقد معك محالفة

فوقفت عندما سمعت كلمة توبسي وقد توجهت عيناها واصفرت شفتاها كأنها رأت افعى فاجأتها وقالت له :

اني ادعى مس الن فالدن يا سيدي وامنعك عن ان تدعوني بغير اسمي .

فابتسم عثمان ابتسامة المتهكم وقال لها :

ليكن ما تريدين فقد قلت لك اني اتيت لعقد محالفة .

فنظرت اليه نظرة المحتقر وقالت :

مع من تريد ان تحالف ؟

قال مع قوم فقراء لا يحسدونك لثروتك والقابك اي مع طائفة اميري النورية مس الن .

فضحكت ضحكا مغتصبا وقالت :

أأنا احالف مع النور انك تقص علي حكاية شرقية .

قال نعم وهي حكاية هندية فان ملك النور يحبك كثيرا يا مس الن ويريد ان تكوني سعيدة في عائلتك الجديدة .

فقالت له بلهجة المتهكم احق ما تقول ؟

قال نعم وقداخشى ان تتمادي في اطماعك فارسلني اليك كي امديك نصيحة وهي نصيحة اخ صادق فائذني لي ان افترض هنيهة انك تدعين توبسي وانك ابنة ناثانيال النوري .

قالت اتم حديثك فانك اني مصممة على ان اسمعه بحملته .

قال واذا تم هذا الافتراض فان اصحابك يسرهم ان يعقد هذا الزواج الذي يعده لك السير روبرت فالدن .

— مع السير ليونيول . — نعم وهو يحبك بملء جوارحه .

— ولكن اذا خطر لي ان اطمع باحسن من هذا الزواج واردت ان اكون يوما مركيزة .

— اتريدين الزواج بالمركيز دي اسبرتون .

فقطبت حاجبيها لهذه المفاجأة وقالت :

لنفترض ان هذا الاسم يوافقني .

— ولكن لا يوافق رجال الطائفة على الاطلاق وليس من فائدتك ان يكونوا من اعدائك . فانقدت عيناها ببارق من الغضب وقالت :

ليطمع اولئك الذين تدعوهم اصحابي ان يحكموا على قلبي ومستقبلي ويزوجوني بما يشاءون .

كلا فانهم يتركون لك الخيار فلك ان تتزوجي بمن تريدينه ما خلا المركيز .

واذا اردت ان اكون مركيزة وان اتشح بوشاح اللوردية فماذا يكون . فوقف عثمان وقال :

يكون ان ملك النور ورعاياه يشهرون عليك حربا عوانا لا رحمة فيها ولا اشفاق .

فنظرت اليه بعينين تتوهجان من الغضب وثارت في قلبها الاحقاد فقالت :

حسنا فان توبسي النورية تقبل هذه الحرب واني اقاتل جموعكم وحدي غير هيابة من ملككم ورعاياه فقد ذكرت الان ايام حداثتي وذكرت نبرات صوتك التي وصلت الى مسمعي كالصدى البعيد وعرفتك حق العرفان فانت هو جان دي فرانس .

فكتف عثمان يديه وجعل ينظر اليها بملء السكينة ومضت في حديثها فقالت :

نعم انت هو جان دي فرانس اي انك نوري مثلي وابن الطائفة الممقوتة التي قدر لي بكد الطالع ان اكون منها وانا خلقت لاكون من بنات الملوك .

نعم اني اكره هذه الطائفة كرها لا تصفه الاقلام فقد ضربت فيها واهنت وتعذبت وان ذلك الوحش الضاري الذي كان يقول انه ابي كان يضربني دون ذنب وقد اغرى كلبه بي فدعاه يعضي عضا شوه يدي .

نعم اني اكره هذه الطائفة والالتجاء اليها واكرهك انت يا جان دي فرانس لاني اعلم انك رئيس هذه الطائفة . ارجع ايها اللص . الى الوراء ايها السفاك المتشرد فان هذه الثروة التي تتمتع بها انما هي من السرقة والآثام وسفك الدماء .

فكان جان يسمع حديثها وهو يبتسم حتى اذا انتهت قال لها:

احذري فاني قادر ان اجعلك تندمين .

قالت اخرج من هنا ايها المتشرد فاني لا اخافك .

ولكنه لبث واقفاً في مكانه فهاج غضبها واخذت سوطاً كان على مقعد بجانبها فضربته به على كتفه .

اما جان فانه لم يهجم عليها ويعصرها بين ذراعيه بل انه رجع خطوة الى الوراء وقال لها بصوت اجش :

انك ستبكين دماً لهذه الضربة . الى اللقاء يا توبسي .

ثم مشى الى النافذة فوثب منها وتوارى عن الانظار .

٤
السر

بعد ذلك بيومين بينما كانت مس الن جالسة في غرفتها دخلت اليها خادمة بعلبة متقنة الصنع ومفتاحها فيها فسألتها قائلة من اتى بهذه العلبة ؟

قالت رجل لا اعرفه يا سيدتي فقد اعطاني اياها وانصرف .

وكان يرد اليها اكثر الاحيان هدايا لا تعرف اصحابها ولكنها كانت هدايا بسيطة خلافاً لهذه العلبة فقد كانت من الذهب وهي مرصعة بالحجارة الكريمة فخطر لها في البدء ان ترسلها الى البوليس ثم ارادت ان تعرف ما يوجد فيها فأمرت الخادمة بالانصراف وفتحتها فوجدت فيها اكليلا من الماس موضوعاً على وسادة من الحرير الازرق وبجانبه ورقة مطوية ففتحتها بيد تضطرب وقرأت فيها جملة واحدة وهي :

« من اراد قدر » .

فمزقت الورقة مغضبة وقالت وانا ايضاً اريد ان اعرف من هذا الفتى الوقح الذي ارسل الي هذه الهدية .

وقد اخذت تفحص تلك العلبة الجميلة فصاحت صيحة فرح اذ قرأت عليها اسم الجوهري الذي باعها وعنوانه فأمرت باعداد مركبتها ثم اخذت العلبة وذهبت بها الى الجوهري فقالت له الم تخرج هذه العلبة من مخزنك .

قال نعم .

قالت من الذي اشتراها منك ؟

فنظر في دفاتره وقال لقد اشتراها مني الجوهري ناثانيل ومخزنه في استراند نمرة ١٠ .

فارتعشت حين ذكرت هذا الاسم اذ ذكرت به اسم ابيها ولكنها قالت في نفسها اية علاقة لابي وهو من اللصوص بهذا الجوهري الغني الذي يقيم في اعظم شوارع لندرا ثم ذهبت اليه ودخلت الى مخزنه فاستقبلها فتى فقالت له المسيو ناثانيل .

فقال كلا يا سيدتي وسأدعوه لك .

وبعد هنيهة اقبل ناثانيل فارتعشت اذ عرفت به اباها ولكنها اسرعت الى ضبط نفسها فان النساء اشد من الرجال في هذه المواقف اما ابوها فانه انحنى امامها وقال لها ماذا تامرين يا سيدتي

قالت لا شيء ولكني اريد ان اسألك عن هذه العلبة .

فبرقت عيناه اذ عرف انها بنته وقد ادهشه جمالها حتى خيل له انه يحلم فقال :

رباه ماذا ارى أأنت تويسي . انك غدوت اجمل من الملكات

فقالت له بلهجة ملؤها العظمة انك واهم فانا هي التي تدعوها بهذا الاسم .

وقالت له خادمتها التي كانت تصحبها اتجسر ايها الوقح ان تخاطب ابنة السير روبرت فالدن بهذه اللهجة .

قال انها بنتي ومتى كان الاب يحاسب بنته .

ثم دنا منها وحاول ان يعانقها فتراجعت عنه بانفة وقالت له : احذر ان تدنو مني .

قال لقد قلت لك انك بنتي وسأثبت قولي بالبرهان .

وقد حاولت ان تخرج من ذلك المخزن غير ان اباها تصدى لها عند العتبة وجعل يتكلم بصوت مرتفع حتى احتشد الناس عند باب مخزنه فخاطبهم قائلا :

نعم نعم انها بنتي . انظروا ايها الناس الا ترون هذه السيدة الحسناء . انها بنتي وقد سرقوها مني .

فتقدمت خادمتها وحاولت ان تشق الزحام كي تدع سيدتها تمر فاعترضها احد الحضور فدفعها الى داخل المخزن وقال له دعي هذا الرجل يتكلم . وقال آخر انها بنته فلنا يقول وقد سرقت منه

فقال ناثانيل نعم انها بنتي وسأبرهن على ذلك . فصاح الجميع قائلين هلموا الى البوليس .

فأشارت مس الن الى الحضور وقالت نعم سأذهب الى البوليس واثبت ان هذا الرجل منافق محتال . قال بل انت تكذبين .

قالت ايها الناس اني ادعى مس الن فالدن وانا ابنة اخ السير روبرت فالدن وقد ولدت في لندرا .

وكانت تقول هذا القول بلهجة تدل على صدقهـــا فانقسم الحضور الى قسمين قسم تشيع لهـــا وقسم تشيع لابيها .

وعند ذلك رأت احد ضباط البحرية فأشارت اليه ان يدنو منها وقالت له اتريد ياسيدي ان اتأبط ذراعك وتصحبني الى ادارة البوليس فاني ضحية مكيدة لا محالة .

قال بملء الارتياح . ثم اخذ بذراعها وسار واياها فتبعهما ابوها وجمهور من المتفرجين .

وقد وصلوا الى الادارة ودخلوا الى مدير البوليس فسمع قول الاثنين ثم قال لناثانيل .

كيف تستطيع ان تثبت انها تدعى توبسي وانها بنتك قال بالبرهان .

قال اني اتمنى لك ان تجد هذا البرهان فانك اذا اقتعتنا ردت بنتك اليك واما اذا لم تقنعنا تكون اهنت سيدة من اشراف الانكليز فتعاقب حسب النظام بغرامة قدرها مائة جنيه وتجلد خمسين جلدة في مكان عام .

فارتعد وجعل العرق يسيل من وجهه فقال له المدير الاوال مصراً على دعواك .

فظهرت عليه علائم التردد وقالت مس ان :

اذا اراد هذا الرجل ان يرجع عن دعواه فاني اغفر له والتمس من المدير ان يعفو عنه .

فهاج ناثانيل لما سمعه وقال كلا لا ارجع عن دعواي .

فقال له المدير اذن هات برهانك .

قال اني نوري الاصل ومن عادة طائفتنا انهم يسمون ابناءهم حين يولدون بعلامة خاصة بهم . قال ما هي هذه العلامة ؟

قال انهم رسم زاوية برسمه على الكتف الايسر ثم تسمه فلا يزول اثره مدى الحياة .

فقالت مس ان تخاطب المدير انك اذا وعدتني ياسيدي بان هذا الرجل يعاقب بأشد ما يقضي به القانون رضيت ان اكشف عن كتفي .

قال ان العقاب ينفذ فيه لا محالة اذا كان من الكاذبين .

فنادت احدى النساء واعطتها رداءها فجعلته شبه ستار بينها وبين الحاضرين ثم كشفت عن صدرها وخلعت اعلى ثوبها فظهر كتفها امام المدير وناثانيل وشاهدين أما أبوها فقد جحد الدم في عروقه اذ لم ير على كتفها أثراً من هذه العلامة وعـــاد المدير الى مجلسه وهو يقول ان هذا الرجل منافق .

ثم امر اثنين من رجاله فقبضا عليه وهو لا يكاد ان يعي من شدة خوفه .

وخرجت مس ان فلم تكد تتجاوز الباب حتى رأت رجلاً بملابس البحارة فعرفت من عينيه انه جان وقالت في نفسها :

لقد عرفت الان السبب في ما كان فانـــه . اراد ان ينتقم لضربة السوط .

ثم مرت به وقد نظرت اليه نظرة المنتصر وعادت الى منزلها

٥

ان من عـادة المحاكم الانكليزية البطء في القضايا الكبرى

والجنايات العظيمة ولكنها لا تتمهل في القضايا الصغرى ولا سيما قضايا البوليس وقد جرت على هذه القاعدة في محاكمة والدمس الن

ثم ان السير روبرت راعه ذلك الخطر الذي كان محدقا بربيبته وكان قد اعد عدته لاتقائه من زمن بعيد فانه حين اشترى توبسي من ابيها كان له بلت اخ يتيمة في الريف ماتت ولها عمر توبسي فأخذ اوراق ولادتها وكتم امر موتها في لندرا وأوهم الناس ان توبسي هي بنت اخيه فكانت تلك الاوراق تثبت مدعاه .

ثم انه كان يعرف رجلا من النور صناعته الوشم وكان له عليه فضل فأخذ منه دواء محاه اثر الوشم عن كتف توبسي .

فلما علم بما جرى لها مع ابيها ذهب الى مجلس العموم أي الى مجلس النواب وهو عضو فيه فبسط شكواه وقال ان الاشراف يحملتهم قد اهينوا لاهانته فكان ذلك باعثا الى التعجيل بقضاة ناثانيل فحاكموه وحكم عليه القاضي بأقصى درجات العقوبة وهي الغرامة والجلد في محل عام .

فلما كان يوم التنفيذ ازدحم الناس في ساحة العقاب وذهبت مس الن على جوادها الى تلك الساحة قبل موعد التنفيذ بنصف ساعة

وكانوا قد بسطوا النطع فوق دكة عالية ووقف الجلاد عليها فلما رأت هذا المنظر الرهيب اصفر وجهها ونسيت كل ما اساء اليها به ابوها في حداثتها .

ثم ان السير روبرت كان قد وعدها بان يلتمس له العفو ولم يف بوعده فجاءت الى ساحة العقاب على رجاء ان تلتمس له العفو بنفسها حين يأتي به الجنود .

وكان الناس يتقاطرون من كل جهة وقد غصت بهم الساحة على رحبها واشتد جزع مس الن فأرادت ان تشغل نفسها ورأت رجلا هنديا يعزف بالناي وامرأة هندية ترقص على عزفه فدنت منها كي تتلهى بهذا المشهد وسمعت المرأة تنشد اناشيد هندية وهي ترقص .

فكانت هذه المرأة بارعة في الجمال وهي ترقص رقصا عجيبا شغل مس الن عما هي فيه .

اما الهندية فانها ما زالت ترقص حتى انهكها التعب فجلست مربعة على الارض على الطريقة الشرقية واخذ الناس يلقون لها البنسات وغيرها من النقود الصغيرة .

ولكنها لم تكن تعبأ بشيء من ذلك بل جعلت تنظر الى السماء وقد شخصت اليها بحيث بانت شبه المأخوذة وجعلت تتحدث باللغة الانكليزية كأنها تناجي نفسها فتقول :

انا دايبي ناثا ابنة الكهنة وحارسة كنز الاله سيوا وانا التي حكموا علي ان اعيش كل عمري في جوف الارض لحراسة الكنز واثرته بالنيران المقدسة واي كنز هو فان الذهب كان متكدسا كحب الرمال واللآلىء كاعشاب الحقول فكنت احرس هذا الكنز واقول اقدر لعيني ان لا ترى نور الشمس ولقلبي ان لا يعرف الحب . وفيما انا على ذلك تجاسر رجل من الجنس الابيض على الدخول الي ومحادثتي بكلمات الحب .

فوضع رفيقها الهندي يده على كتفها يحاول منعها عن الكلام ولكن مس الن اعطته جنيهين وامرته ان يدعها تتكلم فمضت في

حديثها فقالت :

انه كان جميلا وكنت احبه ولكن هذا الرجل كان خائناً فانه لم يكن يريد حبي بل كان يريد اختلاس كنز الاله سيوا .

فقالت لها مس الن . — وماذا فعل هذا الرجل اسرق الكنز؟

قالت نعم . — كيف كان هذا الرجل .

— الى حين عرفته كان لا يزال غلاما فان هذه الحادثة جرت منذ سبعة عشر عاما .

— احق ما تقولين . — نعم فقد كانت عينيه تبرقان كالنجوم وشفتاه كالقرمز واسنانه بيضاء كاللآلىء وشعره اشد سواداً من الفحم . — اكنت تحبينه ؟

— نعم بقدر ما ابغضه الان فاني ما اجتزت البحار وما برحت بلاد الشمس الى بلاد الظلام الا لعلمي انه في اوربا ولكن اوربا كبيرة ولذلك فاني ابحث عنه منذ عشرة اعوام دون ان اراه .

وكانت مس الن تسمع حديثها وقد خامرها ريب بسارق الكنز وخطر لها خاطر بشأنه فقالت لها :

ماذا تصنعين اذا وجدته ؟ فجردت الهندية خنجراً وقالت :

اني طليت رأس هذا الخنجر بالسم فمن اصيب به لا يشفى .

— اين تقيمين في لندرا ؟

فذهلت الهندية وقالت لها لماذا تسألينني هذا السؤال .

— لاني اظن باني عرفت السارق .

فنهضت الهندية مسرعة وامسكت بلجام جواد مس الن وقالت لها :

بربك دليني عليه ودعيني اراه لحظة واحدة اكن عبدة لك ما حييت واذا اردت قتلي بعد ذلك فقد وهبتك دمي .

— قولي اين تقيمين — في فندق القرن الذهبي في وينغ — حسنا فسأراك .

وقد حاولت مس الن ان تنصرف ولكن الهندية حانت منها التفاتة الى الناس المزدحمين فصاحت صيحة منكرة وقالت لمس الن :

انظري الى هذا الرجل فان له نظراته .

وقد دلتها على رجل كان يشق الزحام ويسير الى مكان النطع فرأت مس الن رجلا بملابس البحارة وهو الرجل نفسه الذي رأته يوم خروجها من ادارة البوليس فقالت في نفسها :

اني لم اكن مخطئة بظنوني فانه جان دي فرانس .

ثم همست في اذن الهندية قائلة : هذا هو بعينه وقد عرفته حق العرفان .

فتركتها وهجمت تريد الوصول اليه فمنعتها شدة الزحام عن ان تخطو خطوة واحدة الى الامام فجعلت تصيح قائلة :

دعوني امر فهذا هو سارق الكنز .

ثم يكترث الناس لصياحها فحسبوها مجنونة ولبثوا شاخصين الى النطع فصاحت مس الن صيحة رعب وغطت وجهها بيديها ولم تستطع ان تتقدم خطوة فقد تلاصق الناس حتى باتوا كالبنيان المرصوص .

اما ناثانيل فقد جردوه من ملابسه العليا بحيث اصبح عاري الظهر وربطوه الى عمود واخذ الجلاد السوط وانهال عليه بالجلد

فصاح في الجلدة الاولى وان في الثانية واهتز في الثالثة حتى اوشك ان يكسر العمود وفي العاشرة تمزق جلده وسالت منه الدماء فكان يصيح صياحاً يقطع القلوب من الاشفاق .

وكانت كل ضربة تنفذ الى قلب مس الن نفاذ السم فقد نسيت كل شيء في تلك الساعة الرهيبة ولم تعد تذكر الا ان هذا الرجل الذي يتعذب انما هو ابوها .

وفي الجلدة العشرين انقطع صياحه وعاد الى الانين وفي الثلاثين أغمي عليه وانقلب رأسه الى كتفه فأمر المدير بالكف عن الجلد ولم تعد مس الن تستطيع الوقوف فانفلت بجوادها راجعه الى جهة التيمس .

وقد تشقوا ناثانيل من المنبهات وعالجوا صدغيه بالخل حتى استفاق فعاد الجلاد الى ضربه فأغمي عليه مرة ثانية فأمر المدير بمواصلة الضرب اذ لم يكن باقياً سوى عشر جلدات .

فلما جلد آخر جلدة استفاق من اغمائه وحاول ثاقه فضم قبضتيه وهدد بها الناس كأنهم هم الذين جلدوه فهاج ثائرهم ونقموا عليه لانه لم يكن من عامة الشعب بل كان معدوداً من الاغنياء .

فلما امره المدير ان يذهب الى منزله ورأى ما كان من هياج الناس خاف منهم اكثر مما خاف من السياط وخشي ان يجهزوا عليه على الطريقة الاميركية فركع امام المدير وقال له:

ارجوك ان تأمر بارجاعي الى السجن .

قال كلا فان ذلك غير ممكن.

وقد تركه الجلاد ونزل عن الدكة وتجمهر الناس حوله كالذئاب

ينتظرون الفريسة وعند ذلك سمع صوت يقول افسحوا افسحوا.

فصاح ناثانيل صيحة فرح اذ رأى رجال قبيلته اقبلوا لنجدته وبينهم شمشون وجان .

فكان جان يحمل فأساً طويلا فكان يلوح به والناس يبتعدون عنه الى ان حل شمشون ناثانيل الى مركبة كانت تنتظر فوضعه فيها وصعد اليها مع جان فسارت بهم وقال جان لناثانيل :

لا تجزع فسأنتقم لك .

وفي ذلك اليوم تنكرت مس الن بزي صبيان البحارة وذهبت الى فندق القرن الذهبي فجاءت بالهندية فأرشدتها الى منزل جان وقالت لها :

هذا هو منزل سارق الكنز وهو قوي شديد فلا تهاجميه مهاجمة فانك لا تقوين عليه بل اكمني له كي تغتاليه اغتيالا .

قالت ذلك من شأني وانني لا ارجع عما قيدت به نفسي .

فسأكون لك عبدة متى ظفرت بهذا الاثيم .

فانصرفت مس الن وهي واثقة من فوز الهندية فقد علمت انها مجنونة وان جنونها مقصور على الانتقام من ذلك الذي عبث بقلبها وسرق كنز الهها .

●

كان الانكليز في ذلك العهد اصحاب السيادة على قسم كبير من البلاد الاميركية قبل تحريرها واستقلالها .

وكان الاميركيون قد كثر تمردهم واستفحل امرهم وثاروا على الانكليز ثورتهم الكبرى فلم يجدوا بداً من ارسال قوة الى تلك

البلاد لقمع ثورتهم .

وكان الملك قد انتدب المركيز روجر لهـذه المهمة فتأهب للرحيل واعدت الدولة السفن لنقل الجند فسافر المركيز في طليعة جيش كثيف وصحبه ليونيل اخوه والسير جيمس ابن عمه .

وقد علم جان ان السير جيمس لم يتطوع في فرقة ابن عمه المركيز الا عن نية اغتياله فانه كان قد اعتزل الجندية لجبنه فخاف جان على المركيز خوفاً شديداً وجمع اربعين من رجاله الاشداء واخبرهم بعزمه على اللحاق بالمركيز الى اميركا فوافقوه على رأيه وامرهم ان يذهبوا الى باخرة كان قد استأجرها فذهبوا اليها وبقي هو في المنزل مع شمشون لاعداد بعض المعدات .

حتى اذا فرغ من معداته خرج وفي اثره شمشون كي يذهبا الى السفينة ولكنه لم يتجاوز عتبة الباب حتى شعر بطعنة في بطنه وسمع صوتاً يقول :

هذه يد الاله سيوا التي طعنتك ايها الاثيم .

وقد سقط جان بين يدي شمشون وهو يقول :

اني اخاف ان يكون الجرح قاتلاً فأسرع بي الى السفينة فاني اريد اصدار بعض الاوامر .

وكانت التي طعنته هذه الطعنة الهندية نفسهـا ولم يتمكن شمشون من ادراكها لانشغاله بحمـان فحمل سيده الى السفينة واركنت الهندية الى الفرار تصحبها مس الن وهي متنكرة بشكل غلام بحار .

وقد عادت مس الن وهي تتنهد تنهد الارتياح لوثوقها من

موت جان ولكن الخنجر لم يكن مسموماً كما توهمت وقد عالج جرحه في السفينة فشفي قبل ان يصل الى اميركا .

●

ولا نصف هنا ما كان من تلك الحرب الهائلة التي نشبت بين الانكليز والاميركان ولكننا نقول على سبيل الايجاز انها دامت ستة اشهر وان السير جيمس كاد لابن عمه المركيز عشر مرات وكان في كل مرة يتوهم انه فاز بقصده فيرد كيده الى نحره فان عين جان لم تكن تغفل عن المركيز الى ان افتضح امر السير جيمس وعرف المركيز ذلك العدو الذي يكيد له في الظلام فاكتفى بتحقيره امام الضباط او بطرده من الجيش وبارسال تقرير ضاف عنه الى الوزارة .

غير ان كل ذلك لم يرجع السير جيمس عن قصده الهائل بل زاده حقداً على ابن عمه فانضم الى جيش العدو .

وكان يعرف منافذ القلعة التي كان المركيز يحاصر فيها فاتفق مع احد ضباط العدو على ان يدخلا الى القلعة من ذلك المنفذ السري ليفسحا بابها الاكبر من الداخل .

وقد اكتشف جان هذه المكيدة في آخر لحظة ودخل السير جيمس الى القلعة وكاد يبلغ مراده من نسفها فباغته مع المركيز وهو في ردهة مشرفة على البحر فالقى بنفسه من فوق تلك الردهة من علو شاهق الى البحر واطلق الاثنان عليه نارهما فلم يعلما اذا كانا قد اصاباه لشدة الظلام .

ولكنهما اتيا بمشعل واطلا من الردهة فرأيا قارباً يسير مسرعا

الى جهة الاعداء فلم يتبينا من فيه فنزلا الى البحر وبحثا فلم يجد اثر الجثة .

وقد انقضت هذه الحرب بانتصار الانكليز وعاد المركيز بجيشه الى لندرا فجرى له استقبال حافل وازدحم الناس يوم الاحتفال وكان بين الجموع مركبة فيها سيدتان وهما اللادي سيسل امرأة اللورد اسبرتهون وام ليونيل وهي تعتقد ايضاً انها ام المركيز والثانية مس الن .

وكانت اللادي قد اتت لترى ولديها غير ان الزحام كان شديداً بحيث لا تستطع المركبة ان تتقدم فقالت اللادي لمس الن

ارى انه خير لنا ان نسير ماشيتين .

قالت كلا يا سيدتي فاني اخاف عليك من الزحام وفوق ذلك فان الموكب سيمر من هنا فاذا وقفنا في المركبة رأينا من نريد ان نراهم .

وعند ذلك سمع صوت قرع الطبول مؤذنة بوصول الموكب ودنت امرأة من المركبة فقالت للادي :

انك اذا كنت اماً يا سيدتي فاشفقي علي فاني ام واسمحي لي ان اصعد الى مركبتك عساي ان ارى ولدي بين القادمين .

فمدت اللادي يدها اليها فاعانتها على الصعود وقالت لها:

انك لا بد ان تكوني بكيت كثيراً ولكنك سترين ولدك فانه سيعود اليس كذلك .

فارتعدت المرأة وقالت نعم ايتها اللادي .

فهمست اللادي في اذن مس الن قائلة لا شك انها ام جندي

بسيط .

ولكن مس الن لم تجبها بل جعلت تنظر الى تلك المرأة محدقة ثم تاهت في مهامه التفكير كأنها تريد ازالة النقاب عن تذكار بعيد .

وعادت اللادي فقالت للمرأة انك ستجدين من الهناء حين تضمينه الى صدرك ما ينسيك ما لقيته من الشقاء ايام فراقه .

فلم تجبها المرأة بل سالت دموعها ثم جعلت تشهق بالبكاء .

وعند ذلك ضج الناس وعلت اصواتهم قائلين هو ذا الموكب .

فوقف النسوة الثلاث في المركبة ومر بهن الموكب فمر في طليعته على قيد عشرين خطوة منه فارس يحمل راية جعلها الرصاص شبه منخل واسودت من الدخان .

ثم ظهر الكولونيل روجر فسار امام الجنس وهو يبتسم وقد جرد حسامه وجعل يحيي الناس فيهتفون له هتاف يخرج من افواههم كهزيم الرعود فان هذا القائد الجميل الذي قاد جيشاً برمته لم يتجاوز عشرين عاماً .

فلما رأته تلك المرأة المجهولة صاحت قائلة

يا الله ما اجملك . ـ ثم سقطت مغمية عليها في المركبة .

وعند ذلك اسرع رجل فاختطف المرأة من المركبة وسار بها وهو يقول : ـ لقد فضحت امرك فما هذا الذي فعلته .

اما مس الن فانها لما رأت ذلك الرجل فاتسعت حدقتاها من الاندهال وقالت : ـ انه بعينه وكنت احسبه من الاموات .

ثم امسكت بذراع اللادي وقالت لها اتعلمين من هي هذه المرأة ؟

قالت كلا :

قالت انها ام المركيز روجر دي اسبرتهون فقد وقعت الآن اتم الوثوق .

اما المركيز فقد كان يسير والى جانبه ليونيل فلما وصلا الى المركبة صاح ليونيل قائلا : انهما فقال المركيز من هما ؟

وقد التفت فرأى مس الن فقال له ليونيل انها امي وخطيبتي

فاضطرب المركيز اضطراباً عنيفاً وقال :

ماذا تقول ان الفتاة التي تحبها هي .

قال هي مس الن .

فتوهجت عينا المركيز وغلى الدم النوري في عروقه ونسي انه كان يحب ليونيل شبه اخيه فقال له بلهجة ملؤها الحقد :

أأنت تحب مس الن .. حسناً وانا احبها ايضاً .

●

ولنعد الآن الى جان فانه اختطف اخته سينيتيا وسار مسرعاً في مركبته الى منزله .

وهناك عالجها حتى استفاقت فقال لها بصوت يتهدج من الحنو

ما هذا الذي فعلته يا اختي اتريدين اهلاك ولدك ونحن قد سفكنا دمنا في سبيله — انتا ذهبنا اربعين رجلا في خدمته فعدنا ونحن لا نتجاوز اربعة عشر .

قالت اواه يا اخي ان عذابي شديد لا يدركه غير الامهات فاني القى اشد العذاب منذ ثمانية عشر عاماً . ايكون لي ولد ولا يحق لي ان اراه واقيم واياه بل لا يحق لي ان اقول له انك

ولدي . انك لو اصبت بمثل نكبتي لاشفقت علي .

— ولكن تمهلي يا اختي فماذا كان مصير ولدك لو بقي بجانبك اما كان نورباً فقيراً معدماً مثلنا فاني لولا طمعي بمرقاته لما تجاسرت على سرقة الكنز .

وهو بدلا من ان يكون شقياً شريداً اصبح غنياً شريفاً وقائداً كبيراً ولوردا في مجلس الاعيان وهو سيتزوج اشرف فتاة من الانكليز ويوقع الملك بخط يده على صك زواجه وفي هذا المساء سيدعوه الملك الى تقبيل يده ويتعشى واياه على مائدة واحدة فالى اي مكان تريدين ان يرتقي بعد هذا الارتقاء .

فلم تجبه واستمرت في بكائها فقال لها :

اتريدين الآن ان يقذفوا به من قمة المجد التي رفعناه اليها فيسقط الى حضيض الذل والهوان ويطردونه كما يطردون الخدم فيقولون له :

انك لست المركيز روجر دي اسبرتهون ولست ابن حاكم الهند الشرعي بل انت اميري النوري اللقيط الذي قضى على اهله ان يضربوا في الارض اذلاء متشردين الا تعلمين ايتها المنكودة من هي هذه الفتاة التي كنت واياها في المركبة ؟

قالت كلا .

قال انها الد اعدائنا فهي مس الن ربيبة السير روبرت اي تويسي ابنة ناثانيل افهمت الان .

فاطرقت برأسها ولم تجب فقال لها :

لا انكر انك تتألمين لفراق ولدك لكنك تتنعمين بفوزه الباهر

www.liilas.com/vb3

واسمه الشريف واني اريد ان ازيد نعيمه فأزوجه باشرف فتيات المملكة ويكون له من السعادة ما لا ينالها بالاماني والاحلام .

قل اني سأفعل كل ما تريده يا اخي اتريد ان ابرح انكلترا وانفي نفسي في سبيل مجد ولدي .

قال كلا اني لا اسألك هذه التضحية وكل ما اريده منك هو ان لا تعرضي نفسك للافتضاح كما فعلت اليوم .

قالت سيكون ما تريد .

قال واني اريد ايضاً ان تقسمي لي انهم اذا اكرهوك على الاعتراف بان روجر دي اسبرتون هو ولدك ان تشجبي وتقولي كلا .

قالت سأنكره اذا سألوني .

قال اني اشعر بقلبي كأنه يكاد ان يخرج من صدري لسروره حين افتكر بان طائفتنا التي يحتقرها اولئك المتعجرفون منذ ستمائة عام اصبح لنا واحد منها يجلس في مجالسهم ويشاركهم في احكامهم ويأتي باعقاب يفعلون فعله من بعده وان كل هذا من صنعي .

وفيما هو يقول هذا القول خطرت له مس الن فبرقت عيناه بشعاع من الحقد وقال :

اني سأسحق هذه الفتاة كما يسحقون اناء الزجاج .

ثم التفت الى شمشون وقال له : ـ هل وجدت الطبيب بتلون ؟

قال نعم يا سيدي ولكن بعد العناء الشديد وسيزورك عند الظهر .

ـ هل عرفك ؟

ـ كلا . ـ هل عرف اني متنكر باسم النائب عثمان .

كلا ولكنه ذكر انه رآك مرة خارجاً من قصر المركيز روجر .

ـ اذن فهو لا يعرف لماذا دعوته الي .

ـ انه يتوهم بانك مريض . ـ وعند ذلك سمع قرع الباب الخارجي فقال لاخته :

ان الطارق هو الطبيب لا محالة فدعيني اخلو به لاني اريد محادثته في شؤون خطيرة .

فخرجت وبعد هنيهة دخل الطبيب بلتون فقال له انك دعوتني اليك يا سيدي فما تشكو ؟

قال لا اشكو شيئاً ولكن اريد محادثتك فان اقمت مدة طويلة في الهند ؟ اثني عشر عاماً .

ـ وكنت فيها طبيب اللورد اسبرتون الخاص وقد اتفق في ليلة انك ذهبت الى مضارب اللورد واخذت منهم غلاماً .

ـ كلا ان ذلك لم يكن واي شأن لي بالغلمان ؟

فابتسم جان وقال يسرني ان تكون كتوماً ولكنك لا تستطيع كتمان هذا السر عني فالظر الي الم تعرفني فنظر اليه محدقا وقال كلا .

قال اذا كنت لا تذكر انك اخذت ذلك الغلام فانك تذكر دون شك فتى جرحه احد النور في كتفه وعالجته .

وكان الطبيب لا يزال شاخصا الى جان فلما سمع هذا القول الاخير قال له اسمك جان دي فرانس . قال نعم انا هو .

قال انت .. انت . فخلع جان ملابسه العليا وكشف عن كتفه فان اثر الجرح كان لا يزال باقيا .

فقال الطبيب كفى كفى فقد عرفتك حق العرفان .

قال اني سأقص عليك في غير هذا المقام قصتي التي تشبه القصص الخرافية لغرابتها واما الان فاني اريد ان احدثك بشأنه .

– الا تعلم انه عاد الي لندرا ؟

– كيف لا اعلم وانا لم افارقه لحظة فانا الذي انقذته من الدب وانا الذي انقذته عشر مرات من كيد ابن عمه هنا وفي امريكا .

– اذن فهو عارف بكل شيء .

– بل انه لا يعرف شيئا وهو يعتقد انه ابن اللورد اسبرتهون الشرعي ولكن اعدائنا لم يموتوا كلهم ولا يزال يوجد اثر هائل يفضح سرنا وهو ان روجر موشوم بكتفه كسائر ابناء طائفتنا ولكن هذا الوشم لا يزول .

بل انه يزول بدليل ان مس ان قد ازالته فاعلم أنه يوجد عندي سائل يعالجون به اثر الوشم اسبوعا فيزول وهو عندي من عهد قديم فاخاف ان يكون قد افسد .

– اني امتحنه عندي فاعلم فساده من صلاحه تبقى ان نجد طريقة لمعالجة المركيز به وكيف نعلل له وجود هذا الوشم على كتفه

– اني سأقص عليك حكاية تزويجه والان فخذ هذا السائل وافحصه فمتى تبين لك امره عد الي اخبرك بما يجب ان تفعل .

فاخذ الطبيب الزجاجة وانصرف ونادى جان شمشون فقال له:

هـــل استأجرت المنزل الذي كنت اوصيتك ان تستأجره

لاختي ؟ قال نعم .

فدخل جان الى اخته وقال ها لا يجب ان تقيمي الان هنـا فاني اخشى ان يكونو عرفوك فيتخذوك سلاحا ضد ولدك وقد استأجرت لك منزلا تقيمين فيه مع ابنة عمي البيسي فازورك كل يوم متنكراً ولا يعلم احد اين تقيمين .

ثم نادى شمشون فامره ان يذهب باخته الى ذلك المنزل وبعد ساعة لبس خير ما عنده من الملابس وذهب الى نادي الحسان .

المقـــامر

٥

كان من نظام نادي الحسان الذي ذهب اليه جان ان يكون اعضاؤه الا من صباح الوجوه ومن اشراف الفتيان .

وكان المركيز روجر من اعضائه فاعد له اعضاء النادي حفلة تكريم بمناسبة عودته وانتصاره .

غير ان المركيز كان منقبض الصدر لما علمه من مزاحمة ليونيل له في حبه فذهب الى النادي وبعد انقضاء الحفلة قاموا الى موائد اللعب وعرض احد اعضاء النادي على المركيز ان يلاعبه فرضي بشرط ان يلعبا على مقادير كثيرة فانه اراد ان يشغل نفسه بالمقامرة عما هو فيه .

ولم يكن لديه في محفظته غير الف جنيه اوراقا مالية فخسرها بمدة وجيزة ثم لاعبه مالدن فخسر كل ثروته ثم لاعبه قصر من قصوره فخسره ايضا .

وهنا امتنعا عن اللعب وقد اسودت الدنيا في عيني المركيز

اذ خسر كل ثروته وحاول ان يخرج من النادي ولكن عثمان تصدى له فأدخله الى قاعة معلقاً وقال له انتظرني هنا ثم اعود اليك

ثم ذهب الى خصمه في المقامرة وقال له ان المركيز يريد ان يتنازل لك عن القصر الذي كسبته منه فتعالى معي كي نكتب لك صك التنازل .

فدخل الرجل وهو لا يعلم ما يضمر له جان فأقفل جان الباب من الداخل واشار الى الرجل ان يجلس امامه ثم اخذ من جيبه دفتر حوالات فكتب حوالة بخمسين الف جنيه على احد المصارف الكبرى وقال له اني اريد ان آخذ بثأر صديقي المركيز فهل لك ان تلاعبني على المبلغ الذي كسبته منه قال حبا وكرامة .

ثم اخرج من جيبه علبة عطوس واخذ منها شيئا ووضعها امامه فمد جان يده فأخذها واراها للمركيز فقال انظر الى هذه العلبة الجميلة فان فيها سراً دقيقا لا يعرفها الا انا وخصمك وهو انه كان يضعها بين يديه حين يعطيك الورق ويضغط على هذه اللؤلؤة الكائنة في وسط العلبة فتمثل محلها مرآة مسطحة ينظر اليها وهو يعطيك الورق فيرى ورقك اذ ينطبع رسمه عليها .

فاصفر وجه الرجل وقال اني لا استخدمها ولاهي تستخدم لمثل هذا الغرض .

قال ربما كنت مخطئا فهلم نلعب .

وقد اخذ جان الورق فخلطه ثم اعطاه ورقا واخذ لنفسه والعلبة بين يديه فربح كل ماخسره المركيز . وهنا غضب الرجل وقال انك تسرقني .

قال نعم اني سرقتك كما انت سرقت المركيز وكما كنت تسرق الناس منذ ثلاثة اعوام بهذه الحيلة الشائنة .

والان فاني امرك بالخروج من النادي وان لا تعود اليه الا اذا كنت تؤثر ان تبيت في السجن .

وقد اخذ من امامه الاوراق المالية التي كسبها من المركيز فاصفر وجه الرجل حتى صار كالاموات وقال له ولكن رد لي علبتي على الاقل .

قال كلا بل ابقيها عندي تذكاراً منك وخذ هذا الخاتم بدلا منها فهو يسوى ضعف ثمنها .

فأخذه الرجل وانصرف مسرعا خوف الفضيحة .

وكان المركيز ينظر اليها وهو شبه المأخوذ فلما انصرف الرجل قال لجان :

من انت فهل ارسلك الله الي لتقيني مما يحدث بي من الاخطار

قال اني اصدق الناس في خدمتك . بل انك مثال الصداقة وآية الاخلاص .

قال له بصوت يتهدج هل تحبني ؟

فعانقه عناقا طويلا وقال له اني احبك كما يحب الاخ اخاه اما وقد وثقت الان من حبي فقل لي من أنت؟

قال لا تسألني كشف سر لا اريد الاباحة به فثق بي واعلم اني عليك .

•

في ذلك اليوم كان السير روبرت فالدن في منزله مع ربيبته

مس الن واللادي سيسل والدة ليونيل فقد كانوا ينتظرونه .

وكان السير روبرت مطرقا يفكر ثم وقف فقال في نفسه لا بد من النهاية وقال لربيبته تعالي معي يا ابنتي الى غرفتي فاني اريد مباحثتك في بعض الشؤون .

وقد تبعته فاقفل باب الغرفة وبدأ الحديث فقال :

انك بلغت الحادية والعشرين من عمرك يا ابنتي وشهد الله اني احببتك ولا ازال احبك كانك ابنتي ولذلك لا اجد الان بدأ من ان اطلعك على اسرار لا يحمل اخفاءها عنك بعد ان بلغت سن الرشاد .

قالت اني سأحتفظ بهذه الاسرار .

قال انه منذ سبعة عشر عاما جاءت المركيزة دي اسبرتهون الى اللادي سيسل تسألني ان اسديها نصيحة فانها افترقت عن زوجها وهي في عنفوان شبابها فتعين زوجها حاكما للهند وذهبت هي الى ايكوسيا فاختبأت فيها هربا من غيرة زوجها وعنفه .

وكان لها ولدان بقي الكبير عند ابيه والثاني عندها فأرادت زوجها وهي بعيدة عنه ان هذا الولد قد مات اذ كانت تخشى ان ياخذه منها يوما على سبيل الانتقام لانه مات منذ ثلاثة أعوام وهو يعتقد ان ذلك الولد لم يكن من دمه والله يشهد ان امرأته كانت من اعف النساء واشرف الزوجات :

فتكلفت مس الن الدهشة وقالت كيف ذلك للمركيز روجر اخ ؟ نعم يا ابنتي — وهل يجهل ذلك .

— نعم — اين هذا الاخ ومن هو ؟

— هو الذي سيزورنا بعد ساعة فان اللادي سيسل كتمت نسبه حتى عنه — رباه ماذا اسمع اهو ليونيل .

— نعم ان ليونيل هو اخو المركيز روجر .

ولكن اللورد اسبرتهون مات منذ ثلاثة اعوام ولم تعد اللادي سيسل تخاف عنفه فلماذا لم تظهر امرها ولماذا لم تذهب الى ولدها البكر .

انا الذي اخبرتها بموت زوجها وكنت اعتقد ساعتئذ انها ستذهب من فورها الى قصر اسبرتهون ولكني كنت واهما فانها قالت لي :

ان شرائع اشراف الانكليز شديدة العنف فهي تمنح كل اموال العائلة وامتيازاتها للابن البكر وتحرم سائر اخوته من كل حق وهذا هو السبب من تمكن الحقد من ابناء الاسرات الشريفة .

الا تذكر ما كان بين السير جاك وبين اخيه زوجي .

اما ولدي ليونيل فهو يعتقد انه ابن ضابط لا ثروة له ومع ذلك فهو سعيد اتحسب انه يكون سعيداً حين يعلم حقيقة نسبه ويرى نفسه محروماً من كل حق .

فقلت لها وابنك البكر الذي لم يعرف امه .

قالت يكفيني انه سعيد واني لا اضيف شيئا الى هنائه اذا عرفته بنفسي وبأخيه وفوق ذلك فلا شك ان اباه علمه ان يحتقرني .

وقد رأيت انها مصيبة فيما ارتأته فانها قد تبذر بذور العداء بين الاخوين وهما سعيدان فوافقتها على رأيها .

وتوالت الاعوام الى ان شبت وشب ليونيل فرغبت يوما اذ

رأيت انه يحبك .

ورجائي يا ابنتي ان لا لا تؤاخذيني لقول ينكره قلبي وتقضي بقوله واجباتي وهو ان الاشراف عندنا متضامنون متساوون لا فرق بين الشقاليه والدوق في هذا التضامن واني قد وهبتك قلبي وثروتي ودعوتك ابنة اخي ولكن ضميري كان يؤنبني ويقول .

ايمكن ان تأذن لتوبسي الدورية بالزواج من نبيل وانت من النبلاء دون ان تكون من المذنبين ؟

ولذلك ذهبت الى اللادي سيسل فاعترفت لها بالحقيقة فابتسمت الي وقالت :

انك قد تكون مصيبا لو كان ليونيل سيعرف يوما انه ابن اللورد اسبرتهون ولكنه سيجهل سر مولده مدى حياته ويعتقد انه ابن ضابط فقير فاذا كان ذلك فلماذا تحول دون سعادته وهو يحبها .

فاقنعتني حجتها وبدأت اعود نفسي على ان اراك يوما زوجة ليونيل .

الى ان جاء يوم خيل لي فيه اني اكتشفت سر قلبك وعلمت انك لا تحبين ليونيل بل المركيز روجر .

فتنهدت مس الن تنهداً طويلا وأخذ بدها برفق فقال لها :

اصغي الي يا ابنتي فانك ما زلت لا تحبين ليونيل فان التضحية التي سألتك اياها ليست عظيمة وهي انه يجب عليك ان تبعدي عنك ليونيل وتعينيه على شقائه .

قالت ولكنك دعوتني الى ان افتكر باني ساكون امرأته .

— هو ذاك يا ابنتي غير ان ذلك حدث حين كنت اتوهم ان ليونيل سيجهل سر مولده مدى حياته .

— ألعله علمه ؟

فأجابها بلهجة تدل على انه يكتم سراً فقال :

انه قد يعلمه وقد يجيء يوم يرد فيه المركيز ثروته واتعابه الى ليونيل وذلك يسهل عقد زواجك بروجر الذي تحبينه .

قالت اذا كان ذلك فثقي انه لا يمضي شهر حتى يصبح ليونيل لا يفتكر بي .

وبعد هنيهة دخلت مس الن في غرفتها وكتبت الى ليونيل ما يأتي :

انك اذا كنت تحبني حقيقة ايها الحبيب وكان هذا الفراق لم ينسك من تحب فافعل ما اطلبه اليك .

اننا سنجتمع بحضور امك وعمي وستجد مني فتوراً في مقابلتك فلا تحزن فاني احبك ولكن هناك اسباباً تقضي علي ان اتكلف هذا الفتور حرصا على هنائنا .

ورجائي ان تكون هذه الكلمة كافية لاطمئنانك فاني احبك بملء جوارحي وستقف قريبا على الحقيقة .

الن ٢ م

وقد ارسلت هذه الرسالة مع خادم الى الثكنة التي يقيم فيها ليونيل وعادت الى غرفتها وهي تقول :

لا بد لو احد منهما ان يكون زوجي ولكن لا اتزوج الا من كان منهما مركيزاً . مسكين عمي فقد توهم اني احب .

ثم وضعت رأسها بين يديها وخاضت في عباب التأملات كأنها

قائد يضع خطة معركة .

●

بينما كانت هذه الحوادث تجري كان الملك قد فرغ من استعراض فرقة المركيز فدنا ليونيل من المركيز وقال له اتأذن لي ايها الكولونيل ان اذهب الان فارى امي ؟

فارتعش ونظر اليه نظرة منكرة فان الغيرة كانت قدعضت قلبه ومحت بلحظة كل آثار الصداقة حتى انه ندم وحاول ان يمد يده اليه ليصافحه ويعتذر ولكن مثال الن مر بخاطره في تلك اللحظة فشعر ان قلبه قد التهب وادار وجهه كي يخفي غضبه واجابه قائلا اذهب .

فحياه ليونيل التحية العسكرية وانصرف ولكنه لم يسر خطوتين حتى رجع فنظر اليه المركيز نظرة استكبار وقال له ماذا تريد؟

قال التمس ان تاذن لي بمقابلة وجيزة .

قال لا فائدة من ذلك .

ثم اعرض عنه وبقي ليونيل وحده وهو يحدث نفسه فيقول ترى هل اسات الى المركيز وانا لا اعلم .

وعند ذلك دنا منه احد الجنود وقال له لقد وردتك هذه الرسالة يا سيدي حين كنت مشتغلا بالاستعراض .

فاخذ الرسالة وتلاها فزادت هواجسه وقال رباه ماذا حدث ان المركيز يكرهني الان بقدر ما كان يحبني وقال لي اليوم انه يحب الن فلو تخير عمها بيني وبين المركيز لما فضلني عليه لامحالة .

ولهذا دب والياس ملء قلبه الى منزل السير روبرت حيث

لقي امه والن فاستقبلته الن استقبالا فاترا كاد يذهب بعقله لولم تنظر اليه نظرة مفادها تذكر ما كتبته لك فاطمئن .

وقد قام بينهم الى الساعة العاشرة فقام يريد العودة الى مسكنه واوصلته الى الباب فوضعت في جيبه مفتاحا وقالت له عد حالا من باب الحديقة فلي ما اقوله لك .

فذهب وقلبه موعب بالفرح والرجاء .

وبعد انصرافه قال السير روبرت لربيبته لقد احسنت يا ابنتي واني راض عنك — قالت مسكين ليونيل انه يتعذب كثيرا .

فتنهد وقال . — هو ذاك يتعزى يوما حين يغدو في مصاف اللوردية .

وكانت اللادى قد دخلت الى مخدعها وخلا المكان لروبرت وربيبته فقالت له : — اتاذن لي يا عماه لن اسالك سؤالا .

— سلي .

كيف تفترض ان المركيز روجر يتنازل بالرضى ام يكون ذلك بالاغتصاب . — بل بارجاع الشيء لصاحبه .

فتكلفت البساطة كانها غير عالمة بشيء وقالت :

اني لا ارى سببا يحمل ابن اللورد اسبرتهون البكر على ارجاع امواله لاخيه الاصغر — ساوضح لك هذه الابهام بعد ثلاثة ايام .

ثم قبل جبينها ودخل الى مخدعه بعد ان اوصاها ان تدخل الى مخدعها فاوهمته انها امتثلت فدخلت الى غرفتها وخرجت من باب آخر الى الحديقة فوجدت ليونيل ينتظرها هناك .

وقد ركع حين رآها فانهضته بيدها وقالت له تعالى نجلس تحت هذه الخيمة .

قال بالله كم انت مضطربة ايتها الحبيبة .

ولكن اضطرابه كان اشد حتى انها كانت تسمع خفوق قلبه فأجلسته بجانبها واخذت يده بين يديها وقالت ايها الحبيب يجب ان تثق بي .

قال ماذا تعنين ؟ ـ اريد قبل كل شيء ان تقسم لي يميناً .

على ماذا ؟ ـ على ان تكتم ما سأقوله لك عن امك .

ـ اني اعاهدك على الكتمان واقسم لك ـ اذن فاعلم ان عمي يريد تزويجي .

ـ رباه ماذا اسمع .

ـ اطمئن يا ليونيل فانه طامع ان يزوجني رجلا من كبار النبلاء ولا بد لي اتقاء لغضبه ان اتظاهر بالموافقة على مشروعه .

واذا وافقت الى النهاية فما يكون مصيري؟

ـ ايها الناكر الجميل ألم أقل لك اني احبك . اني اقسم لك بان لا اتزوج سواك .

فصاح صيحة فرح فقالت له :

اسكت فان عمي لم ينم بعد فاذا انتبه لنا قضى على آمالنا وذهبت ادراج الرياح ـ ولكن ما هو هذا الخطر الذي يتهددنا

ـ لا استطيع ان اقول لك شيئا الان .

ـ وانا اعرف ان هذا الرجل الذي يريدون ان يزوجوك به هو المركيز روجر اليس كذلك .

ـ نعم هذا هو ولكن كيف عرفت ذلك ؟

فحكى لها ما كان بينه وبين المركيز فابتسمت ابتسامة الواثقة من فوزها القريب وقالت :

اصغ الي فاني اقسم لك باني سأكون امرأتك قبل ثلاثة ولكن بشرط ـ ما هو هذا الشرط ؟

ـ ان تطيعني ـ مري أطع

ـ ان امك قد استأجرت منزلا يجوار منزلنا فستقيم واياها فيه ولا تزورنا الا في النادر وابق هذا المفتاح عندك فتعال كل يوم عند انتصاف الليل فنجتمع في هذه الحديقة واحذر ان تخاصم المركيز .

واأسفاه اني كنت احبه كاخي .

وقد اقاما نحو ساعتين يجددان العهود ثم افترقا بعدان تواعدا على اللقاء في الغد .

وعادت الى غرفتها وهي تقول في نفسها .

ان السير روبرت عمي العزيز سيكون له مني خير مساعد على كشف سر المركيز ولكنه يريد ان يستقل بالعمل .

وعند ذلك خطر لها الناباب عنان فاضطربت وقالت ان هذا الرجل وحده يستطيع احباط آمالي فلا اخشى السير روبرت ولا المركيز روجر لاكون يوماً مركيزة ولكني اخاف جان دي فرانس .

●

وفي اليوم التالي كان المركيز روجر جالسا في غرفته وهو في

اشد حالات الاضطراب فقد كان مفتونا بحب الن مع انه لم يبح لها بغرامه الى الان .

وكانت تتمثل له في كل سبيل حتى انه كان يذكرها وهو يقاتل الاعداء فلما علم انها خطيبة ليونيل شعر ان قلبه قد انسحق فكان يجول في غرفته كما يجول الاسد السجين في قفصه .

وكان يهيج في عروقه الدم التوري حتى يتغلب احيانا على تربيته الانكليزية فيتهم نفسه بالجبن لانه يخاصم ليونيل فيبارزه ويقتله .

ثم يعود اليه هداه وتهيج في صدره عوامل الكرم التي فطر عليها فيفتكر ان ليونيل كان صديقه وانه كان يحبه كاخ فيلعن ذلك الحب الذي ابتلي به ويعاهد نفسه على اخماد لهيبه بالصبر وتضحية هنائه في سبيل صديقه .

ثم يعود الى الهياج فينسى كل هذه العواطف الكريمة ويعجب كيف ان ليونيل لم يات اليه ويساله الايضاح عن مقابلته الجافية وان له ان يعلم ان الن منعته عن مخاصمته .

وما زال يتغلب على هذا العذاب الى ان خطر له ان يزور السير روبرت فكتب اليه ما ياتي :

« ان المركيز دي اسبرتهون يتشرف بان يطلب الى السير روبرت فالدن مقابلته ويرجوه ان ينوب عنه بتقديم احترامه لابنة اخيه »

وقد ارسل هذه الرسالة مع رسول فعاد اليه برسالة من السير روبرت تتضمن ما ياتي :

« ان السير روبرت فالدن يقدم للورد اسبرتهون تحياته واحترامه ويأسف انه لا يستطيع استقباله لاعتلال طرأ على صحته »

فمزق المركيز الرسالة وهو يتميز من الغيظ واطلق سراح الخادم .

وعند ذلك سمع صوت مطرقة على الباب الخارجي فاطل من النافذة كي يرى الطارق وهو يرجو ان يكون السير روبرت ارسل اليه رسالة اخرى .

ولكنه رأى امرأة مقنعة دخلت من الباب الى الردهة وبعد هنيهة دخل اليه خادمه برقعة زيارة هذه المرأة التي لم يكن مكتوباً عليها غير الحرف الاول من اسمها وهو !

فأمر بادخال الزائرة اليه وكان قناعها كثيفاً فلم يتبين وجهها ولكنه علم من خفوق قلبه انها هي نفسها حين سألته بصوتها الرخيم قائلة :

اتأذن لي يا سيدي المركيز بمقابلة وجيزة ؟

فاخذ بيدها وهو يرتجف من الفرح واجلسها على كرسي بجانب المستوقد فكشفت القناع عن وجهها وقال لها كأنه كان خائفاً ان يكون حالماً .

اهذا انت ؟

وكان وجهها مصفراً واثر الدموع لا يزال ظاهراً في عينيها فاجابته قائلة نعم انا هي فقد اتيت دون ان يراني احد لالجأ اليك .

ـ أأنت تلجأين الي .

ـ لا تتسرع يا سيدي المركيز قبل ان تسمع حديثي بالحكم علي .

ـ أأنا احكم عليك .. انك شديدة القسوة يا مس الن .

فاطرقت برأسها ووضعت يدها على عينيها وقالت بصوت ضعيف كانها تصلي .

اني اتيت اليك ياسيدي المركيز متوسلة فعاملني بالرحمة واشفق على اتعس امرأة في الوجود .

ـ أأنت تاعسة . أأنت تتوسلين . اني اخاف ان يكون الحزن دخل صوابي فلا افهم ما تقولين .

فنظرت اليه بعينين تبرقان كالماس الاسود وقالت له بصوت يتهدج ان السير روبرت يريد تزويجي .

ـ بليونيل .

ـ نعم وقد وعده عمي بالزواج فجاء امس يطالبه بتحقيق الوعد

ـ اواه لقد علمت الان السبب بقدومك الي فانك اتيت تتوسلين ان لا ابرزه وانت خائفة على حياة من تحبين .

فرفعت الى السماء وقالت حياة من احبه ؟

ـ نعم حياة الذي سيكون زوجك .

ولكن ان هذا الزواج لا يطول فان الله سيشفق علي ويدعوني اليه

ـ رباه ماذا اسمع الا تحبين ليونيل ؟

اني احبه حب فخ وهذا كل حبي .

فركع المركيز امامها وقد شعر ان السماء فتحت له ابواب النعيم وقال لها : اقسمي لي انك لا تحاولين خديعتي .

ـ اقسم ـ اذن انت لا تحبين ليونيل .

ـ اكنت هنا لو كنت احبه ؟

ـ اذن لقد اتيت تسألينني ان اسعى لنقض هذا الزواج البس كذلك ؟

ـ لا فائدة من مسعاك فقل لي أتثق بي ؟

ـ كما اثق بامي لو كان لي ام .

ـ اذا كان ذلك فاني اسألك ان تقسم لي يميناً كما سألتني .

ـ ماذا تريدين ان اقسم .

ـ اقسم لي ان تثق باخلاصي ثقة لا حد لها وانك تفعل كل ما اطلبه اليك ـ ان قلبي لك و

فمدت له يدها وابتسمت ابتسامة فتنت عقله ثم قالت اما وقد وثقت الان انك تحبني فساعرف كيف ادافع عن هنائنا ومستقبلنا

وقد نهضت تحاول الانصراف فسمعت من خارج الغرفة صوتا يقول لا حاجة الى الاستئذان فاني ادخل دونه .

فاسرع المركيز فاقفل الباب من الداخل وهو يقول هو ذا الطبيب بولتون ؛ فذعرت الن وقالت :

بولتون ..... انه سيفضح امري اذا وجدني هنا فازاح المركيز ستارة عن باب آخر في الغرفة وقال لها :

ان هذا الباب يؤدي الى الحديقة فاذهبي ايتها الحبيبة فقد رددت الحياة الي .

وكان الطبيب لا يزال يناضل الخدم عند الباب ففتح المركيز الباب ودخل الطبيب وهو يقول :

لقد كنت احسب اني احاصر حصناً فقد اصبحت غرفتك شبه قلعة .

فقال له المركيز اني كنت نائماً على الكرسي فلم اسمع صوتك فاعذرني ايها الصديق .

ثم مد له يده وصافحه فجلس الطبيب بجانبه وجعل يتفرس بوجهه باعجاب ويقول :

لقد صدق من قال الا الاسفار تحي نضارة الشباب فاني ارى الله الجمال ممثلا في المركيز روجر .

قال ولكني عاتب عليك فقد كنت ارجو ان اراك ساعة عودتي

قال لم يشغلني عن زيارتك شاغل ولكني صبرت الى ان تنتهي الحفلات الرسمية .

وقد طالما خطر لي ان اتبعك الى اميركا ولكن الشياطين ملأت كل جيوبي فلم تتسع لسواها .

اذا كان قد اعوزك المال فلماذا لم تطلبه من وكيلي فحك اذنه وقال وهو يبتسم :

لقد فعلت فاعطاني ولكن النقود التي اعطاني اياها كانت اسرع مني في السير فلما جاء موعد السفر وجدت انها سبقتني .

ـ الى اين ـ الى الحارة .

فضحك المركيز وقال انكم معشر الاطباء تنهون عن الخمر وتشربونها

قال ان الطبيب يصف الدواء ولكنه لا يشربه .

ثم اخرج من جيبه زجاجة صغيرة فوضعها على المستوقد وقال لنبدأ بالترتيب .

قال ما هذ ـ دواء عجيب ـ لا اظن انه لي فاني في اتم عافية .

ـ هو ذاك فانك في عافية اتمنى لك دوامها ومع ذلك فاني احضرت هذا العلاج خصيصاً لك .

ـ كيف ذلك ؟

فتكلف الطبيب الجد وقال له :

اني اتيت اليك ايها المركيز لمباحثتك في شؤون خطيرة

فابتسم المركيز وقال له ممازحاً :

انه اذا كانت حكايتك خفية كدوائك فاني سأرتعد من الرعب

ـ ان الحكاية تبدأ منذ سبعة عشر عاما ـ اذن انها من حكايات العهد القديم .

ـ كلا ايها المركيز فانك اخص رجال حوادثها .

ـ اذن قصها علي فقد بدأت اهتم لها .

ـ ان حوادثها جرت في كلكوتا عاصمة الهند في عهد اللورد ابيك فقد دخل رجلان في ليلة حالكة الاديم الى سراي ابيك وسرقا منها غلاما .

ـ من هما ؟ ـ من طائفة النور ـ من كان الغلام ؟ ـ انت

ـ يظهر انهما لم ينجحا فاني امامك ـ بل انهما نجحا فانه حين اشرقت الشمس كنت في مضارب النور على قيد ست مراحل من قصر ابيك .

ـ انها حكاية غريبة ـ ولكنها اكيدة .

ـ غير انه لم يذكرها لي احد قبلك .

ـ لانه لم يكن يعرف هذا السر غير ثلاثة وهم العبد الذي

كان ساهراً عليك حين رقادك وابوك وانا وقد مات ابوك والعبد فلم يبق غير انا من الواقفين على هـــذا السر — لكن اي غرض للنور من اختطافي .

— انهم كانوا يريدون ابقاءك عندهم رهينة كي يساوموا بك على افتدائك بمبلغ عظيم — افعلوه لمجرد الكسب .

— بل للانتقام ايضا فان اباك كان قد طردهم من كلكوتا وفي الليلة التالية دخل اثنان الى الخيمة التي كنت مسجونا فيها وهما مسلحان فتمكنا من انقاذك وكان هذان الرجلان اباك وأنا ولكن النور كانوا قد وشموا كتفك الايسر بعلامة طائفتهم .

— اهي هذه العلامة الزرقاء التي اراها على كتفي ولا اعلم كيف انت ؟

— نعم هي هذه العلامة التي طالما اضطرب لها ابوك اذ كان يخشى ان يجيء يوم يحسبون فيه ان المركيز روجر دي اسبرتهون فوري .

فوقف المركيز منذعراً وقد نظر الى الباب الذي خرجت منه مس الن فلم تخف هذه النظرة على الطبيب ولكنه كان قد اندفع في الحديث ولم يجد بداً من اتمامه فقال :

نعم ان هذا الخاطر كان يعذب اباك حتى انه جرب جميع ادوية الهند لازالة هذا الوشم فلم يتمكن من ازالته .

— ما هذا الخاطر الغريب ومن الذي يجسر على الشك بنسبي ؟

— الا تعلم ان من كان له نبلك وثروتك يكثر حاسدوه .

— ربما ولكن ما العمل وهذا الوشم لا يزول .

فقال له بصوت منخفض اني ابحث منذ عشرين عاما عن دواء يزيله فلم اهتد اليه الا منذ يومين .

— اذا كان ذلك ايها الصديق فهلم وجربه بي فان الهزء والفضيحة لا يجب ان ينالا امثالي .

— اذن سأزورك في كل ليلة ساعة رقادك واستعمل هـــذا الدواء ورجائي ان يزول الوشم في مدة اسبوع فلا يبقى له اثر

— على الرحب فتعال للعشاء معي في كل مساء وسنبدأ من هذه الليلة .

والان ارجوك ان تدعني وحدي هنيهة في هذه القاعة فان لدي اوامر مستعجلة اريد اصدارها .

فوضع الطبيب الزجاجة في جيبه وقال له :

وانا ايضا مضطر الى الانصراف لعيادة مريض في الشارع .

اذهب ايها الصديق وعد بعـــد ساعة فاني انتظرك فخرج بولتون حتى اذا وصل الى ردهة القصر اخرج من جيبه قفازاً كان قد لفيه على الكرسي الذي كان جالسا عليه ونظر فيه فوجده قفاز امرأة فضرب الارض برجليه مغضباً وقال :

لقد عرفت الان ما هي هذه الاوامر التي يريد اصدارها .

وقد خرج من القصر فلم يسر بضع خطوات حتى وقف اذ وجد مركبة تنتظر على بعد عشرين خطوة من باب القصر .

وكأنما قد رابه امرها فالتفت بوشاحه ووقف وراء احـــد الابواب دون ان يراه احد .

وبعد هنيهة رأى امرأة مقنعة خرجت من باب الحديقـــة

فصعدت الى المركبة وامرت السائق بالمسير .

فاسرع في اثرها وهو يقول في نفسه :

ليتعشى روجر هذه الليلة وحده فاني اريد ان اعرف من هي هذه المرأة التي سمعت الحديث الذي قصصته على المركيز .

اما المركيز فانه لم يكد يخرج الطبيب من عنده حتى اسرع الى الباب الذي خرجت منه الن فرآها تجتاز الحديقة .

اما الن فانها حين باتت في مركبتها جعلت تبتسم ابتسام الظافر وتقول في نفسها :

لقد اصاب من قال ان للنور الهاً يرعاهم فان هذا الطبيب قد خدمني خدمة جليلة سأكافئه عليها متى جاء وقت المكافئات .

اما الان فسأخبر جان دي فرانس بين الحرب والسلم فاذا خدمني سالمته واذا اعترضني فيما اريده اشهرت عليه حرباً عواناً اكون الظافرة فيها فقد تسلحت الان بأمضى سلاح .

وبعد نصف ساعة وقفت مركبة مس الن عند باب منزل السير روبرت وكان الطبيب في اثرها فعرف من هي هذه المرأة التي كانت عند المركيز .

ولم يكن السير روبرت في المنزل فدخلت الى غرفته وكتبت هذه الرسالة :

« ان توبسي تريدان ترى جان دي فرانس وقد عينت له موعد المقابلة الساعة العاشرة من هذه الليلة في دليتفورد »

وقد غيرت نسق خطها كي تستطيع انكاره عند الاقتضاح ووضعت الرسالة في غلاف كتب عليه هذا العنوان :

الى الشريف النائب عثمان في بيكاديلي

ثم اسندت كوعها الى المنضدة وجعلت تبتسم وتقول :

اليس من المضحكات ان يكون اثنان من النور في مقدمة اشراف الانكليز !

٦

كيد النساء

عندما وصلت رسالة الن الى جان كان يتداول مع الطبيب يلتون فكان يقول له : ـ هل انت واثق من ان هذه المرأة كانت مس الن .

قال كل الثقة الم اقل لك اني قفوت اثر مركبتها .

فقطب جان حاجبيه وقال اتعلم ان روجر متوله بحبها؟

قال لا اعجب من ذلك فهي جميلة طماعة تريدان تدعى مركيزة

قال ولكني انا لا اريد وهذا لا يكون وانا اعلم ان توبسي خصم لا يهزء به فان لها ميلا فطريا الى الشر ولها جرأة وصبر شديد وارادة لا تغلب فاذا ظفرت بي فهي لا ترحمني وفوق ذلك فانها تسلطت على السير روبرت فلا يعمل الا بارادتها .

قال ولكني اخاف ان تكون نصبت لك فخاً في هذه الرسالة

فابتسم ابتسامة احتقار وقال ان خنجرها لا يصل الي هذه المرة اذن ستذهب الى حيث دعتك .

ـ دون شك اني ذاهب من فوري .

ثم نادى شمشون وقال اخبر البيسي ان تتأهب فانها تكون في مأمن على ظهر السفينة ثم اذهب بها في قاربي وانتظرني في النهر الى

ان آتي اليك .

فذهب شمشون مسرعاً وسأل الطبيب جان قائلا من هي اليبسي هذه ؟

قال انها المرأة التي تستحق ان تحب فانها مثال الخير كما ان توبسي مثال الشر ـ ارى انك تحبها من تهدج صوتك .

ـ هو ذاك فاني احبها اصدق حب .

وقد نظر عند ذلك في ساعته وقال لقد بلغت الساعة الثامنة وان روجر ينتظرك للعشاء ايها الصديق .

قال اني ذاهب اليه وساعود اليك مساء غد فاخبرك بنتيجة الدواء

وبعد انصراف الطبيب تنكر جان بملابس نوتي وذهب الى النهر فوجد اخته وشمشون ينتظرانه في القارب .

وقد صعد اليه فساله شمشون الى اين تريد ان تذهب ؟

قال الى الباخرة فولر ثم الى ريشفورد .

فقالت له اخته دعني اصحبك يا جان الى حيث انت ذاهب فانتظرك مع شمشون في القارب .

لماذا تريدين ان تصحبيني ؟

لاني خائفة فقد حلمت امس حلما مخيفا .

اذا كنت تعتقدين بالاحلام فهلمي معي ولكن لاتخشي علي

ثم امر شمشون فدفع القارب الى جهة ريشفورد .

وكانت الن قد سبقته الى الموعد ووقفت في ردهة المنزل تنظر الى النهر في تلك الليلة المقمرة فرأت جان قد خرج منه الى الشاطىء ورأت ان القارب لا يزال واقفاً وفيه رجل وامرأة .

وقد دخل جان اليها فاستقبلته بملء البشاشة وقالت له اشكرك لاسراعك بتلبية دعوتي .

فانحنى امامها واشارت له ان يجلس على كرسي بجانبها فقالت له :

انك تعلم يا عدوي العزيز اني ما دعوتك الى مقابلتي الا وقد عقدنا هدنة فلا خوف عليك من خيانة ما زلت عندي .

قال وانا رضيت عقد الهدنة فلا خوف عليك من انتقامي .

والان فهل لك ان تخبريني عن سبب تشريفك اياي بهذه المقابلة

قالت دون شك فاني ما دعوتك الا لاقترح عليك عقد الصلح فقد رأيت اننا كفؤان متوازنان فأية فائدة من العداء .

قال هو ذاك واني راض بالصلح

ـ ان هدية العلبة التي ارسلها الي ناثانيل دلتني انك عدو مخيف ولكن نتيجة هذه الحادثة دلتك ايضاً على اني لم اكن مغلوبة وفوق ذلك فقد رجعت عليك بتلك الطعنة التي اصابتك بها الهندية

ـ تريدين ان تقولي انك التي طعنتني اذ انت التي ارشدتها الي

ـ هو ذاك واني بهذه المناسبة اريد ان اسألك عن امر أشكل علي

ـ اتريدين ان تعلمي كيف نجوت . ـ نعم .

ـ الامر بسيط فقد كنت واهمة باعتقادك ان الخنجر مسموم وذلك ان الهندي الذي يصحب الهندية كان يعلم انها مجنونة فابدل خنجرها المسموم بخنجر عادي فلم يقتلني الجرح .

فابتسمت الطف ابتسام وقالت اني اريد ان اعرض عليك الصلح .

– ما هي شروطك . – ليس لي غير شرط واحد .

– ما هو . – هو اعتزالك : – ان اعتزالي قد يكون كثيراً وقد يقل .

– اني منذ عام لسائل نفسي هذا السؤال وهو اية فائدة لجان دي فرانس وهو نوري مثلي في توليه حماية المركيز روجر ابن ذلك اللورد الذي طالما اضطهد طائفتنا .

أأنت سألت نفسك هذا السؤال .

نعم ولولا حدوث حادثة لم اكن اتوقعها لما عرفت الحقيقة .

أعرفتها ؟

نعم ووثقت الان ان المركيز روجر هو ابن اللورد اسبرتهون وسنيتيا النورية اي اختك وعرفت ايضا ان الطبيب بولتون لفق له حكاية عن الوشم الذي وشم به كتفه وانه آخذ بمعالجته فلا يمر اسبوع حتى يزول هذا الوشم كما زال وشمي .

اما هذه الحكاية الملفقة فقد يثق بها رجل بسيط القلب كالسير روبرت الذي ربائي ولكنها لا تجوز علي وعلى ذلك فان المركيز روجر انما هو نوري مثلنا . – وبعد ذلك .

– اني احب هذا المركيز . – تريدين ان تحبين ثروته ولقبه .

– انه يحبني ويريد الزواج بي فلماذا تعترض هذا الزواج ؟

– لاني لم اجعله مركيزاً ولوردا كي يتزوج نوريه .

– اصغ اني يا جان فاني اتوسل اليك جاثية ان تغفر لي اساءتي وان ادعك تتزوجين المركيز ؟

– نعم ياجان اني طامعة متكبرة وان روجر نوري مثلي

ولذلك اريد ان اشراكه في مجده .

وانك متكبر مثلي ولم يدفعك الى ترقية ابن اختك غير الكبرياء فثق يا جان اني اذا تزوجت به اكون من اشد الناس اخلاصاً لطائفتكم .

– ان هذا محال فكوني سيدة عظيمة اذا استطعت واما ان اجعل ابن اختي وملكنا سلماً لمرقاتك فهذا محال .

فارتجفت شفتاها من الغضب وقالت له :

اني توسلت اليك فكنت من غير اشفاق وأبيت الا الحرب فليكن ما تريد واحذر لنفسك .

– كما تريدين ولكني امهلك يوما لتتمعني .

– لا اريد مهلة .

فاخذ قبعته وحاول الانصراف فقالت له بصوت يرتجف اصبر اني مصغ اليك .

– احرص على ابن اختك وملكك فان عدوه سيكون له اتبع من ظله – لقد اعذر من انذر .

– كلمة ايضاً – ماذا .

– من هي هذه المرأة التي تنتظرك في القارب – البيسي .

تلك المصرية الحسناء – نعم فهل غرت منها .

– انك تحبها – اصدق حب .

– اذن ساكون اقوى منك فانك تطعنني باطماعي اما انا فاطعنك بقلبك .

– جربي .

www.liilas.com RAYAHEEN

ـ فانقدت عيناها ببارق مخيف وقالت له :

اذهب واذكر اني اهنت نفسي ونزلت عن عرش كبريائي بتوسلي اليك .

●

بعد هنيهة كان جان واقفا عند الشاطئ وقد صفر فجاء شمشون بالقارب وصعد جان اليه فجلس بجانب اخته فقالت له :

ان هذه المرأة ستكون شؤما علينا يا جان فانك بينا كنت عندها سقط نيزك من السماء وهذه علامة الموت .

فاجابها مازحاً ان هذا النجم الحمل برغيه فسقط .

قالت لا تضحك يا جان فهذه علامة الموت كما قلت لك .

وعند ذلك سمع دوي طلق ناري فصاحت اليسي صيحة عظيمة وسقطت بين يدي جان فان الرصاصة اصابتها .

●

في تلك الليلة نفسها ذهبت الن الى حيث تقيم الهندية فدخلت اليها وكشفت قناعها وقالت لها : انه لم يمت .

فوقفت الهندية كالمذعورة افعى وقالت من هو : قالت سارق كنز الآله سيوا .

فهزت كتفيها وقالت ان هذا محال ـ لقد قلت لك انه لم يمت

ـ العلك رأيته ؟ ـ وكلمته ـ متى ـ منذ ساعة .

ـ اذن ان هذا الرجل تحميه قوة الهية او هو من السحرة .

ـ كلا ولكن رفيقك الهندي بدل خنجرك المسموم بخنجر عادي .

ـ ذلك لا يصدق فان له قوة تحميه .

فرأت الن ان لا فائدة من الجدال معها فقالت لها :

ان هذه القوة قد تحميه من الخناجر ولكنها لا تحميه من السموم التي تبيعينها .

فتوهجت عينا الهندية من الحقد وقالت اين اجده ـ في منزله في بيكاديلي .

ـ حسناً فستعلمين ما يكون من امره قبل ثلاثة ايام .

ـ اذن فاعلمي انه يدعى النابات عثمان الهندي والآن استودعك الله .

وقد امدلت قناعها على وجهها وحاولت الانصراف ولكنها سمعت ان باب دكان الهندية يقرع فاسرعت واختبأت وراء ستارة كانت تفصل بين الدكان والسرير الذي تنام عليه الهندية واشارت اليها ان تفتح ففتحت ودخل رجل كان متشحاً برداء كبير وهو يحاول اخفاء وجهه فقالت الن في نفسها لا فائدة من تنكرك فقد عرفتك .

اما الرجل فانه قال للهندية هل نحن وحدنا هنا ؟

قالت نعم فماذا تريد يا سيدي أتريد شراء مسابح وروائح عطرية

قال كلا ـ اذن اتريد ان اكسف لك طالعك ؟

ـ ربما ـ هات يدك

فبسط لها يده ونظرت في باطن كفه فقالت له يوجد رجل تكرهه اشد الكره ـ هو ذاك ـ وقد حاولت قتله مراراً فلم تفز .

ـ لقد اصبت ـ ولكن يوجد طريقة للتخلص منه ـ ماهي؟

– السم – لقد خطر لي هذا الخاطر ولذلك جئتك لاشتري منك هذا السم .

– اني لا ابيع السموم يا سيدي وقد اخطأ من اخبرك .

فظهرت علائم الامتعاض على الرجل وقالت الهندية اني اعلم بانهم يتهمونني ببيع السموم ولكنها تهمة باطلة فاني ابيع المسابح واكشف الطوالع وارقص في الشوارع وهذا كل ما اعمله .

وعند ذلك سمعت الهندية حركة من وراء الستارة لم ينتبه لها الرجل فالتفتت فرأت الن تشير اليها اشارة لم تفهمها فقالت للرجل اصبر يا سيدي فسأريك سبحة تشتريها لا محالة .

ثم دخلت الى ما وراء الستارة لترى ما تريده الن فهمست في اذنها قائلة :

ان هذا الرجل سينتقم لك فاعطه السم الذي يطلبه وضعي في العلبة الن تضعين فيها السم هذه الورقة .

وقد اخذت ورقة من دفترها وكتبت عليها هذه الجملة :

« ابدأ بقتل النائب عثمان اذا اردت ان تفوز »

ثم قالت لها لا تعطيه من السم الا بقدر ما يكفي لقتل رجل واحد فقط .

فاخذت الهندية علبة وخرجت الى الرجل فقالت له هذه سبحة مصنوعة من خشب الستيكنوس وهي تفيدك فيما بعد .

فارتعش الرجل وقال ماذا تعنين ؟

قالت ان محلول هذا الحبوب سم يقتل في الحال وهذه السبحة يستطيع صاحبها ان يعبث بها قدر ما يشاء دون ان يصاب باذى

واما اذا اذاب حبة منها في كأس من الخمر تستحيل الى سم صاعق ولكن هذا السم غالي الثمن فان الحبة الواحدة تساوي خمسة وعشرين جنيهاً .

قال اذن اعطني حبتين .

قالت لا استطيع ان ابيعك غير حبة واحدة فاذا احتجت الى سواها عد الي . فنفدها ما طلبت واخذ الحبة وانصرف .

فقالت الن هو ذا الرجل كان يحسبه الناس من الاموات وقد خرج من بين القبور .

ثم خرجت الى الهندية فقالت لها اصغي الي واعلمي يقيناً انك اذا كنت لا تريدين ان نحكم عليك بالموت في النار فاحذري ان تبيعي احداً حبة ايضاً من هذه السبحة .

– حتى هذا الرجل ؟ – هو على الاخص .

– ولكن ما اصنع اذا توعدني بالشكوى .

– انقذك كما انقذتك من كنز الاله سيوا واعلمي ان هـــذا سيقتل جان دي فرانس قبل اسبوع – هل انت واثقة مما تقولين؟

– كل الثقة فان هذا الرجل جبان وهو يعلم ان جـان يحمي عدوه فسيقتله قبل ذلك العدو .

– اذن سأكون عبدة له – انسيت انك عبدتي ؟

– نعم نعم فمري اطع .

ان هذا الرجل بعد ان يقتل عثمان يعود اليك كي يلتمس سما يقتل به عدوه فتوهمينه انك ستبيعينه ما اراد وتدخلينه الى ما وراء هذه الستارة – لماذا .

لان الصدفة قد تجعله يجلس على هذا المقعد وفيه ابرة مسمومة تشك جلده فاذا التقى ذلك اعطيتك من الذهب قدر ما تكسبين في مدة عشرة اعوام - ليكن ما تريدين فسأساعد هذه الصدفة .

اما هذا الرجل فقد كان مستر جيمس ابن اخي اللورد اسبرتهون ذلك الذي القى نفسه من فوق الحصن في امير كاثم انقطعت اخباره فتوهم الجميع انه مات .

وقد عاد الى لندرا متنكراً فلم يعلم حقيقة امره غير خادمه ويلس وهو الان يريد شراء السم كي يقتل به ابن عمه المركيز روجر

فلما عاد الى منزله فتح العلبة وقرأ الجملة التي كتبتها الن فأيقن ان له شريكا يعاونه بالسر وانه مصيب بما اوصاه به فانه لا يستطيع ان يتمكن من ابن عمه الا بعد ان يتخلص من عثمان .

غير ان كيد الن لم يقتصر على هذا الحد فانها بعد ان مهدت للسير جيمس سبيل قتل عثمان وبعد ان اصابت حبيبته بجرح كاد ان يودي بحياتها كمنت لاخته سينيتيا ام المركيز مع فريق من اعوانها فاختطفتها وهي خارجة من منزلها لغرض سوف يظهر .

●

والان لنعد الى السير روبرت فالدن فقد كان شديد التمسك بالشرف كثير الحرص على مقام الاشراف وقد رأينا منه كيف ابى ان يزوج ربيبته بليونيل وهو يحبها كبنته كي لا يؤنبه ضميره على تزويج نورية بشريف وانما اراد تزويجها بالمركيز لاعتقاده ان المركيز ليس ابن اللورد الشرعي فانه كان اصيب مرة بجرح في كتفه اثر مبارزة كان السير روبرت احد مشاهديه فيها فلما كشف

الطبيب على كتفه رأى روبرت هذا الوشم على كتفه وهو يعلم انه خاص بالنور فتولدت في نفسه الشكوك من ذلك العهد .

وقد كثرت هواجسه واشتد قلقه واراد ان يعرف حقيقة هذا السر الذي كاد يقتله فقال في نفسه :

لم يبقى بد من ان اذهب الى روجر واستوضح منه جلية الامر فاذا برهن الي انه ابن اللورد اسبرتهون الشرعي اعتذر اليه واذا لم يستطع البرهان لجأت الى مروءته فانه كريم الاخلاق عزيز النفس لا يرضى ان يلقب بلقب سواه .

وكان قد وعد ربيبته ان يأتيها بالخبر اليقين بعد ثلاثة ايام فبرح منزله في اليوم الثالث وذهب الى المركيز فلقي عنده الطبيب بلتون يعالج كتفه فابتسم المركيز له وعاتبه لانقطاع زياراته فتمتم بعض كلمات اعتذار وقال الطبيب :

انا اعرف السبب الذي دعا السير روبرت الى الانقطاع عنك منذ عهد مبارزتك مع القائد مكسويل .

فقال له المركيز اذا كنت تعرف السبب كما تقول فاسرع باخباري عنه فاني لا ازال مندهشاً من مناهج السير روبرت .

قال تصور ايها المركيز ان السير روبرت فالدن وهو صديقي منذ ثلاثين عاما اراد يوماً ان يقتلني عند سريرك .

فصاح المركيز قائلا ولكن هذا محال . - قال سله يخبرك اني قلت الحقيقة .

فهز السير روبرت رأسه اشارة الى الموافقة وقال الطبيب :

هل تعلم لماذا كان يريد قتلي. ذلك لاني ابيت ان ابوح بسر ابيك المرحوم .

فقال المركيز : هذا الذي اسمعه فاني احسب نفسي حالماً احق ما يقوله يا سير روبرت ؟

– نعم انه يقول الحق . – أأنت اردت قتله ؟

فقال الطبيب نعم وذلك لاني ابيت ان اكشف له سبب وجود الوشم على كتفك .

ففهقه المركيز ضاحكاً وقال اراهن على ان السير روبرت توهم اني من النور .

فقال الطبيب هو ذاك .

وكان السير روبرت توقع ان يرى المركيز يضرب فاذا به يضحك ويقول له اطمئن ايها الصديق فاني حقيقة ابن اللورد اسبرتهون

وقال الطبيب اعلم ايها الصديق اني اقسمت يميناً للورد اسبرتهون ان لا ابوح بهذا السر لاحد الا متى تمكنت من ازالة هذا الوشم عن كتفه وقد وجدت اليوم الدواء الذي يزيله ولم اعد مقيداً باليمين فاسمع ما حدث .

وعند ذلك قص عليه الحكاية نفسها التي قصها على المركيز منذ يومين فلما فرغ من حديثه احمر وجه السير روبرت من الخجل والتفت الى المركيز فقال له :

اني لا اعذر نفسي لظنوني السيئة فهل تتفضل بمعذرتي ايها المركيز ؟

فاجابه المركيز بان مد له يده وصافحه وزالت الظنون .

•

وعاد السير روبرت الى منزله فوجد مس الن تنتظر فقالت له اين كنت يا عمي ؟

قال اني قادم من عند المركيز وقد ثبت لي الآن ان ليونيل لا يمكن ان يكون ...

– كيف ذلك ؟

– ذلك اننا خدعنا فان المركيز هو حقيقة ابن اللورد اسبرتهون

– أأنت واثق ؟

– كل الثقة – والوشم .

– ان له حكاية قصوها علي ووثقت بها .

– انك تلبث واثقا الى ان تجد البرهان الوافي على انهم كانوا يمثلون امامهم رواية – ماذا تقولين يا ابنتي العلاك جننت

– وانت ماذا قالوا لك عن اصل هذه العلاقة . ولكن لا تقل شيئا فاني اعرف الحكاية كما عرفتها فهي من مخترعات جان دي فرانس .

جان دي فرانس ؟

– نعم اي ملك النور وهو اخو سينيتيا التي كانت خليلة اللورد اسبرتهون وام المركيز روجر الم يخبروك ان النور اختطفوا المركيز في عهد حداثته من سراي كلكوتا .

– نعم وكيف عرفت ذلك ؟

فابتسمت ابتسامة الساخر وقالت :

اصغ الي يا عماه فاننا نسير وراء غاية واحدة ولكن الاسباب

مختلفة فانك تريد ان ترى ليونيل وهو ابن اللورد الشرعي في مكان ابيه .

– ولكن كيف يكون ذلك اذا كانت الحكاية التي سمعتها اكيدة .

– بل انها مختلفة وانا اتعهد بان ابرهن لك عن اختلافها .

– انت – نعم ولكن بشرط

– كيف ذلك

– اني استمهلك ثلاثة ايام على الاكثر ويوماً على الاقل فاتيت لك ان المركيز روبرت هو اميركي ابن سينيتيا النوربه واكرهه هذه الايام على الاعتراف – انت تفعلين ذلك ؟

– نعم اذا اردت ان اكون انا الفكر المدبر وانت اليد العاملة

– لقد رضيت

– اذن اني احتاج هذه الليلة الى اثنين من رجالك لاستعين بهما على اختطاف . فنظر اليها منذهلا فقالت :

العلك تسيت يا عمي اني نورية . انك شريف حر الضمير فلا تستطيع ان تتغلب على جان دي فرانس .

– ولكن اين سمعت اسم هذا الرجل فاني اذكر اني سمعته من قبل .

– تذكر يا عماه الم تخبرني مرة ان اللورد اسبرتهون كاد ان يفترسه النمر فانقذه رجل نوري – نعم

– ان هذا النوري كان جان دي فرانس ثم الا تذكر ان

المركيز روجر كاد يبطش به الوحش في الغابة وان رجلا انقذه – نعم ان هذا الرجل كان جان دي فرانس ثم الا تذكر حين احتالوا على المركيز يوم مبارزته مع الضابط مكسويل فأعطوه حساما سريع الانكسار وان رجلا ابدل السيف بسواه . ان هذا الرجل كان جان دي فرانس . اذن انه شيطان في زي انسان .

– هو ذاك ولكنه ملاك يحمي روجر من كل الاخطار فقد انقذه عشر مرات من الموت في اميركا وهو يلزمه لزوم ظله اين ذهب .

– وان روجر شريكه لا محالة لانه يعرف اصله .

– كلا فان روجر يعتقد اعتقاداً راسخا انه ابن اللورد الشرعي

– اذا كان ذلك يمكن ارجاعه الى الصواب .

– نعم ولكن لست انت الذي تستطيع ارجاعه .

– كيف ذلك ايشك بكلامي .

– ان الذين يخضعون لسلطة جان دي فرانس لا يثقون الا به او بي .

– انت .

– نعم فان روجر يحبني اعظم حب بحيث استطيع به مقاومة جان دي فرانس فاذا اطلقت لي حريتي جعلت ليونيل يخلف المركيز دون ان ادع الالسنة تلهج بهذا الانقلاب .

– ولكن ماذا يكون مصيره .

– ليتوارى معي عن العيون ويكفيه ثروة ان احبه كما يحبني

– ولكن اية فائدة لجان دي فرانس من حماية المركيز .

انه ابن اخته ومن طائفته المضطهدة فهو يريد ان يتخذه سلاحاً ضد مضطهدي تلك الطائفة .

ـ وانت تعتقدين انك تستطيعين مقاومة جان دي فرانس

ـ بل اني واثقة من الفوز عليه اذا كنت تأذن لي ان اخرج من المنزل حين اشاء .

ـ اني امنحك هذه الحرية فلا هنأ لي عيش قبل ان تنحل هذه الرموز .

ـ لقد قلت لك اني محتاجة الى رجلين يساعداني على اختطاف

ـ من الذي تريدين اختطافه ؟

سينيتيا ام المركيز وان عندك خادمين شديدين وهما نوح وبلاك فمرهما ان يطيعاني وعلي البقية .

ثم قرعت جرساً وامرت ان يعدوا لها مركبة .

●

وقد تقدم لنا القول انها اختطفتها وكان اختطافها بواسطة الرجلين والهندية فانهم كمنوا لها عند مدخل منزلها حتى اذا خرجت منه دنت منها الهندية وبسطت يدها تسألها الاحسان فبينما تحاول اعطاءها قطعة من النقود شعرت ان كيساً غطى رأسها وانها حملت فوضعت في مركبها ثم سمعت تلك المتسولة تقول لها .

احذري ان تصيحي اذا اردت السلامة لك ولولدك .

وبعد ان سارت المركبة قليلا قالت لها الهندية ان هذا الكيس يزعجك كثيراً فاذا اردت ان نعصب عينيك نزعناه عن رأسك فتستطعين التنفس بحرية .

فأومأت برأسها اشارة الى القبول فنزعت الكيس عن رأسها وعصبت عينيها ثم قالت لها اننا نستطيع الآن ان نتحدث .

قالت ماذا تريد مني ؟ ـ قالت اريد ان احدثك بشأن ولدك

ـ ليس لي بنون . ـ بل انك تكذبين .

ـ ثقي انك مخطئة فليس لي ولد ولا زوج .

ـ بل اننا واثقون ان لك ولداً وانهم فرقوا بينك وبينه .

ـ لقد قلت لك انه ليس لي ولد فالى اين تذهبون بي .

ـ الى هذا الولد الذي تنكرينه .

ـ اذن سوف ترون انكم مخطئون فان الولد يعرف امه .

فامتنعت الهندية عن مباحثتها وبعد نصف ساعة وصلت المركبة الى منزل النن الصيفي وهو ذلك المنزل الذي استقبلت فيه جان حين ارادت مخالفته فاخرجتها الهندية من المركبة وادخلتها الى المنزل فسمعت سنيتيا الرجلين يتحدثان وسمعت من خلال حديثها اسم مس النن فسرى الرجاء الى قلبها اذ علمت انها في منزل مس النن وان اخاها جان يعرف هذا المنزل .

وعند ذلك نزعت الهندية العصابة عن عينيها فوثقت انها عند مس النن فان جان قد وصف لها تلك الغرفة فوجدتها كما وصف .

ثم مشت بها الهندية الى قاعة المكتبة فادارت لولباً في الجدار فانفتح باب خفي فدخلت واياها منه فاقفلته وقالت لها وهي مجردة خنجرها .

انك سترين ولدك ـ لكن احذري ان تصيحي صيحة .

وقد ازاحت كتابين عن موضعهما فنفذ النور الى تلك الغرفة

من ثقبين وراء الكتابين فقالت انك تستطيعين ان تري من هذين الثقبين حين يأتي ولدك .

قالت اني لا افهم شيئاً مما تقولينه فلقد قلت لك انه ليس لي ولد قالت سوف ترى .

– بعد هنيهة دخلت مس الن الى القاعة فرأتها سينتيا وعرفتها فانها وقفت معها في المركبة يوم عاد ابنها من اميركا .

اما الن فانها جلست على مقعد امام الثقبين وجعلت تحدث نفسها بصوت مرتفع فتقول :

ترى اياتي . نعم انه سيأتي . آه كم اطلبه . ولكني اخاف ان يكون تأخر وصول رسالتي اليه .

ثم قامت ففتحت نافذة تشرف على النهر فاطلت منها وقالت :

روجر اين انت اني لا ارى قارباً في النهر ولا اسمع صوت مركبة في الطريق . اواه ما اشد وقع الريب في قلوب المحبين .

فكانت سينتيا تسمع اقوالها وهي تتذلل وتقول في نفسها عجباً كيف يقول اخي انها عدوة روجر وهي تحبه هذا الحب .

وعند ذلك صاحت الن صيحة فرح وقالت هذا هو قد حضر . اني اسمع وقع المجاذيف في المياه . نعم نعم هذا هو وافرحاه .

وكانت الهندية ممسكة بيد سينتيا فقالت لها ارأيت كيف ان يدك تضطرب في يدي حين علمت بقدومه ؟

فحكمت نفسها وقالت كلا ليس لي ولد واتمم واهون .

وبعد هنيهة دخل روجر فقبل يد الن فقالت له .

اول ما ابدأ به ايها الحبيب رجائي ان تغض الطرف عن

دعوتي اياك ولكني فقد صوابي للخطر المحدق .

قال اي خطر هذا ؟

انه خطر يحدق بي وبك فقد كدت افترق عنك الى الابد .

– رباه ماذا اسمع – ان عمي اراد ان يحول بيننا فقد علم بحبنا

– انه كان عندي اليوم .

– لا اعلم ولكن الذي اعلمه انه تآمل علي مع والدة ليونيل .

فاصفر وجه المركيز وقال لقد بت اكره ليونيل بعد ان كنت احبه كاخي .

قالت اغفر له ايها الحبيب فهو يحبني ويتوهم اني احبه .

– وهذه المؤامرة .

– انهما يريدان ان يرسلاني الى قصر لعمي في ايكوسيا وهناك يأتي ليونيل فيزوجاني به ولكن اطمئن فقد اكتشفت سر هذه المؤامرة ولذلك دعوتك .

– اذن انت لا تسافرين – كلا

– ولا تتزوجين ليونيل – الم اقسم لك ؟

فقالت سينتيا في نفسها لا شك ان اخي منخدع فكيف تكون عدوته وهي تحبه هذا الحب .

وعادت الن الى الحديث فقالت :

اما وقد رأيتك الان واخبرتك بما كان يحدق بك من الخطر فلا يجب ان ارتكب هفوة جديدة .

– ماذا تعنين ؟

– اعني ان عمي علم اني زرتك في منزلك والان يجب ان

اسرع الى العودة الى لندرا فانني اخاف ان يعود عمي من النادي فلا يجدني في المنزل .

– كيف ذلك أأفارقك وانا لم اكد اراك .

– لا بد من ذلك ولكني سأعود معك فيخفينا الظلام فصاح صيحة فرح فقالت له :

– اسكت اذ يوجد هنا خادمة جديدة تحرس المنزل وانا آتي لي هنا من حين الى حين لافتقدها .

وان قاربي يرسو عند الشاطىء وقد اطلقت سراح النوتي الذي اوصلني لترجعني انت فلا تجزع لامر وثق بي – واواه من ليونيل

– لماذا تخافه وانا لا احبه – اني اخاف ان يكرهك عمك الى الامتثال .

– لا توجد قوة تكرهني فثق بي كما تثق بامك .

– امي واسفاه اني لم اعرف امي – اكنت تحبها اذا عرفتها

– بل كنت اعبدها ومن هذا الذي لا يحب امه ،

وعند ذلك سمعت الهندية تنهداً عميقاً تلاه سقوط جسم على الارض ذلك ان سينتيا كان قد اغمي عليها اما الن فانها خرجت مسرعة مع المركيز .

الخيبة

٧

عند ما استفاقت سينتيا من اغمائها لم تكن في تلك الغرفة التي سمعت الحديث منها فان الهندية كانت قد اخرجتها الى القاعة وعالجتها حتى استفاقت فقالت لها هل تستطيعين الانكار انه ولدك

ولكنها عادت اليها قواها فقالت بصوت اجش لقد قلت لك انه ليس لي ولد .

– اذا كان ذلك فلماذا اغمي عليك حين سمعته يتكلم عن امه

– لاني تذكرت ولداً لي مات والان الا تطلقين سراحي .

– كلا – لماذا – لانه يجب ان تري مس الن .

– من هي هذه الفتاة – هي تلك الحسناء التي تحب ولدك .

وانت تقولين انها تريد ان تراني – نعم فانها تريد ان تجمعك بولدك .

– لقد قلت قلت لك انه ليس لي ولد فكيف اكون انا الفقيرة أم هذا السيد العظيم ثم اذا كانت تريد ان تراني فلماذا ذهبت ؟

– انها ستعود غداً والآن انصحك ان تنامي على هذا المقعد فان الليل قد انتصف وانت في حاجة الى الراحة .

فامتثلت وغطتها الهندية بغطاء ثم اضطجعت على مقعد آخر كأنها تريد ان تنام ايضاً فقالت سينتيا في نفسها اني سأصبر عليها حتى تنام فأختطفها قبل ان تتمكن من الصياح واهرب .

ولكن حدث عند ذلك مالم تكن تتوقعه فان الباب فتح فجأة ودخل منه الخادمان فقالا للهندية اسرعي فانهم في اثرنا وقد رأيناهم في النهر .

فقالت سينتيا هذا اخي قادم لانقاذنا ثم صاحت الي الي .

فأسرع الخادمان اليها فكمماها وقالت لهما الهندية اقبضا على يديها فسأعمل لها عملية تمنعها عن الصراخ .

فقبضا عليها واخرجت الهندية زجاجة فيها رش اصفر فادنته

من انفها واكرهتها على تنشقه حتى تلاشت قواها وسقطت يداها فحملوها الى الغرفة السرية واختبأوا جميعهم فيها فجعلت الهندية تنظر اليها وتقول :

ليأتوا الآن وليبحثوا عنك قدرما يشاؤون. اني ادعى دايبي فاتها وما زالت اخت جان دي فرانس ذلك اللص الذى سرق كنز الهي فاعلمي اني شممتك رائحة تفقدين بعدها كل حس ماعدا النظر والسمع بحيث تصبحين حية شبه ميتة .

وبعد هنيهة دخل جان وشمشون فقد كانا علما باختطاف سينتيا فان شمشون كان قد رأى عن بعد رجلين يحملان امرأة الى مركبة وكانت المركبة بعيدة عنه فلم يستطع ادراكها فأيقن جان ان الن قد اختطفتها واسرع مع شمشون الى منزلها الصيفي فبحثا فيه بحثاً دقيقاً فلم يجد لها اثراً فاقترح شمشون ان يحرق المنزل فمنعه جان قائلا لا أريد مداخلة البوليس ولا بد لي الآن ان ابحث عنها في منزل السير روبرت فهلم بنا نعود الى لندرا .

ولما ابتعدا قال احد الخادمين لرفيقه انها لن يظفرا بالاسيره هذه الليلة وما راعني الا خوفي ان يحرقا المنزل .

اما جان فانه عاد مع شمشون بطريق النهر وهو ينذر ويتوعد ويقول اني سأقتل هذه الماكرة جلداً بالسياط .

فقال له شمشون اني عينت رجلا كما امرتني لمراقبة منزل السير روبرت ولا بد ان يكون رأى الن ليلة امس .

ـ من هذا الذي عينته ؟

ـ جولد ـ انه من الاذكياء فلماذا لم تره اليوم .

لقد كنت عازما على الذهاب اليه في الساعة الثامنة ولكن عرفت ما جرى ـ ستراه الان .

وقد ذهبا الى منزل السير روبرت ولقياجولدفسألهجان قائلا: ماذا رأيت .

قال ان مس الن خرجت امس في مركبتها ولكنكم لم تأمروني ان اتبعها فلم اعلم الى اين ذهبت .

ـ متى عادت . ـ عند انتصاف الليل ـ ألم تخرج بعد ذلك.

ـ كلا فقد زارها في تلك الساعة فتى لم أتبين وجهه اذ كان وجهه ملتفاً بوشاحه وقد دخل من باب الحديقة بمفتاح كان معه .

فقال جان في نفسه انه ليونيل ثم ساله قائلا كم اقام معها .

ـ نحو ساعة فقد كنت ملتصقاً بالباب وسمعتها تقول له حين خروجه : الى اللقاء غداً .

واليوم أخرجت من المنزل ـ نعم عند الظهر .

ـ ومتى عادت . ـ منذ ساعة . ـ اعادت وحدها ـ نعم.

ـ حسناً فعد الى منزلك .

وقد نظر جان في ساعته وقال ان السير روبرت لا يعود من النادي قبل انتصاف الليل ولا يزال الوقت فسيحاً لدي .

ثم ذهب الى شمشون وقال اذهب واكمن عند باب المنزل فاذا رأيت السير روبرت عاد فاسرع واخبرني واذا لم تجدني في هذا الزقاق فنادني بصفيرنا الخاص .

قال العلك تريد الدخول الى الحديقة يا سيدي .

ـ ربما . .. اتريد ان اكسر بابها .

ـ كلا فسأدخل اليها بطريقة اخرى .

ـ فذهب شمشون فكمن بجانب الباب ولبث جان واقفاً حيث كان الرقيب وهو يقول في نفسه :

ان الن تريد ان تتزوج بروجر ومع ذلك فانها تنتظر ليونيل فلماذا تحتفظ بحب هذا الفتى ايضاً .

وكان جان قد عرف كثيراً من الاسرار ولكنه لم يتصل الى معرفة سر ولادة ليونيل .

وفيما هو واقف ينتظر سمع خطوات ليونيل ثم راه وصل الى باب الحديقة فالتفت يمنة ويسرة ثم اخرج مفتاحاً من جيبه وحاول فتح الباب فاسرع جان فحال بينه وبين الباب وقال له وقد وضع قناعاً على وجهه ،

لي كلمة اقولها لك ايها النبيل .

وكان ليونيل باسلا جريئا فدهش لهذه المفاجئة وحسب جان من اللصوص فانتهره قائلا :

سر في سبيلك ايها الرجل .

فلبث جان في موقفه وقال له الم اقل لك لي كلمة اقولها ؟

ـ لي انا .

ـ نعم انا لك انت الضابط ليونيل .

ـ اذا كنت في حاجة الى كيسي فليس فيه الليلة ما يذكر وليس لي وقت للدفاع عنه فخذه .

ثم اخذ كيسه من جيبه والقاه الى الارض فقال له جان بلهجة الساخر لا باس من ان تنتظرك مس الن ربع ساعة .

فاضطرب وقال له مغضباً من انت فتكلمني بهذه اللهجة ؟

ـ اني رجل يريد ان يسدي اليك نصيحة .

ـ ما تعودت ان اسمع نصائح من يبرقعون وجوههم .

ـ انك مخطىء فالعاقل لا يحتقر النصيحة كيف كان مصدرها فسأم ليونيل من الجدال وقال له ما هي نصيحتك ؟

ـ قال هي ان تعطيني مفتاح هذه الحديقة وتعود الى منزلك فتنام واني اعدك ان ارده اليك مع خادمي في الصباح .

قال يعز علي ان اخترق صدرك بحسامي لانك غير مسلح ولكن ...

وكان مع جان عصا حشوها حربة طويلة كالحسام فجردها وقال له :

اذا كان لديك حسام فاني اشرفك بالمبارزة تحت هذا المصباح المعلق في الطريق اليس هذا الذي تريده ؟

ـ هو ذاك فتفضل بكشف برقعك كي أراك .

يسوؤني اني لا استطيع اجابة سؤالك .

وقد اشتبك القتال بينهما فقال له جان :

اني غير حاقد عليك وشهد الله اني لو لم اكن في اشد الاحتياج الى هذا المفتاح الموجود في جيبك لما قاتلتك ولذلك لااقتلك بل اصيبك اصابة بسيطة لا يعرف سرها سواي فستسقط مغمياً عليك نصف ساعة وهذا كل ما احتاج اليه من الوقت .

فهاج ثائر ليونيل لهذا الكلام وانقض على خصمه انقضاض الصاعقة ولكنه لم يكد يتم هجمته حتى شعر ان سيفه سقط من

يده وسقط هو على الارض لا يعي .

فقاده جان اشفاقاً عليه ثم اخذ مفتاح الحديقة من جيبه وسار الى بابها وهو يقول لقد جاء الان دور مس الن فلنر ما يكون .

●

كانت مس الن قد عادت مع المركيز روجر في طريق النهر فلما وصلا الى لندرا اركبها مركبة وفارقها بعد ان واعدها على اللقاء فعادت الى منزلها قبل انتصاف الليل بنصف ساعة .

وهناك غيرت ملابسها وتقلدت خنجراً صغيراً كانت الهندية اهدته اليها فكانت تتقلده دائماً بعد ان شهرت حربها على جان

ثم نزلت الى الحديقة لتجتمع بليونيل فيها حسب عادتها في كل ليلة فسارت بين الاشجار حتى انتهت الى مغارة في وسط الحديقة يوجد تحتها دهليز خفي .

وحكاية هذه المغارة ان القصر الذي كان يقيم فيه السير روبرت كان قديماً يتصل بعهد كرمويل والثورة الانجليزيه وهو في ذلك العهد للورد شافستبوري من المتشيعين للملك فبنى هذه المغارة وبنى تحتها الدهليز فكان يخفي فيه الاسلحة والاوراق ويختبيء هو فيه احياناً حين تشتد به المخاوف .

وكان يفصل بين المغارة والدهليز حجر كبير كان له شبه باب فلما مرت الن بهذه المغارة قالت في نفسها اني سأسجن سنيتيا في هذا الدهليز فأكون آمنة عليها فيه .

ثم تجاوزت المغاوة وسارت الى حيث كانت تلتقي بليونيل فلم تكد تجلس على كرسي هناك حتى رأت رجلا يدنو منها فقالت له

بصوت منخفض أهذا انت يا ليونيل ؟

فدنا منها وقال لها بل هذا انا .

فصاحت صيحة ذعر اذ عرفت جان من صوته وحاولت ان تهرب وتستغيث ولكن خطر لها خاطر سريع فلبثت في مكانها وقالت له تعالى فاني انتظرك .

وكان جان بعيداً عنها ثلاث خطوات فدنا حتى وصل اليها فقالت له بلهجة الهازىء :

انك اذا كنت قادماً لتقتلني فقد عرفت ان تنتهز الفرص فان السير روبرت لم يعد بعد وكل من في القصر نيام .

وكان جان يتوقع ان تتذعر فاذا بها تهزء به فاجابها قائلا :

لا اعلم فان حياتك وموتك منوطان بك .

قالت اذا كنت متردداً فهلم نتباحث فهل جئتني بانباء عن البيسي تلك المصرية الحسناء .

فاتقدت عيناه ببارق من الغضب لهذه الذكرى وقال لها :

اني عاهدت نفسي على ان لا اقتلك لانك امرأة ولكن موتك منوط بك فاذا شئت حللت نفسي من هذا العهد .

فقالت الن في نفسها ان ليونيل لا يلبث ان يحضر فينقذني منه فلأماطل في الحديث ثم اجابته قائلة :

اني عرضت عليك الصلح فأبيت الا الحرب .

وقد قالت هذا القول ونظرت الى باب الحديقة فادرك جان معنى هذه النظرة وقال لها :

انك اذا كنت تنتظرين ليونيل فسيطول انتظارك لاني دخلت

الى هنا بمفتاحه .

فسال العرق البارد من جبينها وقالت العلك قتلته .

– كلا ولكني اقسم لك انه لا يحضر فلا تعتمدي عليه .

– والآن ماذا تريد مني .

– ان تردي سينيتيا – من هي سينيتيا – لا يفيدك الانكار فاني مستعجل .

– اذن وضح ما تقول – انك اختطفت اختي في هذه الليلة – انا

– نعم انت وان المركبة التي حملتها وقفت عند باب منزلك الصيفي .

– وقد فتشت هذا المنزل – أوجدت فيه اختك .

– كلا فهي هنا – لا افهم ما تقول .

فقبض جان على عنقها بيده وقال لها سيان عندي اكنت مخطئاً ام مصيباً فان موتك لا يستحق الندم .

ثم ضغط على عنقها فحاولت ان تجرد خنجرها فلم تستطع فقالت بصوت مختنق كفى كفى ارحمني – اتعترفين – نعم .

فافلت عنقها وقال تكلمي .

فقالت له بلهجة المتوسل ان العفو جميل عند المقدرة وانا الان في قبضة يدك يا جان وسأخبرك اين هي اختك .

اذن انت تعرفين انك اختطفتها ؟

لست انا بل السير روبرت – وانت شريكته .

– نعم – اتعلمين اين هي – نعم – قولي :

– بشرط ان تنقذني من غضب السير روبرت – فدهش جان

وقال لها كيف ذلك .

قالت اصغ الي فقد كنت مصممة ان احاربكم جميعكم ولكني اجد الآن ان ذلك فوق مقدرتي واعترف اني مغلوبة غير اني اسأت الى نفسي بقصد الاساءة اليك فأخبرت السير روبرت بكل الامر وقلت انك نوري مثلي وان روجر من النور ايضا فجعلني آلة لكشف هذه الاسرار فاذا اخبرتك اين هي غضب علي وطردني لا محالة .

وكانت تتكلم والدموع تسيل من عينيها بحيث خدع جان بدموعها بالرغم عن حذقه واختباره فهاجت في صدره عوامل المروءة وقال لها :

انه اذا طردك اقمت بيننا وكنت على خير حال . فهزت رأسها وقالت :

انك لا تعلم ما القاه من اليأس لهذا التبديل فقد تعودت ان اعيش عيش الترف والنعيم وان اكون من شريفات الانكليز ولذلك قاومتك واردت ان اكون زوجة المركيز غير اني ندمت لما بدا مني فلا تقذف بي الى الحضيض . دعني اعيش مع الذي جعلني وريثته فلا اقاومك بعد الآن .. قال سوف ترى فقولي لي الان اين هي اختي .

– انها هنا وانت لديك كثير من الجواسيس فاجمعهم وتسلقوا الجدران بل هاجموا القصر فانك تجدها ولا يتهمني السير روبرت اني افشيت بسره .

– اين هي اختي .. قولي .. والويل لك اذا ما طلت .

فتكلفت هيأة الرعب الشديد وقالت :

خير لي ان اعيش شقية مترددة من ان اموت في العشرين من عمري وسأرشدك الى المكان المسجونة فيه .

– اذن سيري امامي وتقي انك اذا صحت اقل صيحة اغمدت خنجري بين كتفيك قبل ان تصيحي اقل صيحة ثانية .

فقالت بصوت يتهدج بالدموع ان الله عاقبني بآثامي فلا اعود الى المقاومة .

وقد مشت الى المغارة ومشى جان في اثرها على قيد خطوة حتى اذا وصلت الى باب المغارة وقفت وقالت له :

اني لا التمس منك غير امر واحد .

– ما هو ؟

– هو ان تقيد يدي ورجلي حين تنفذ اختك وتضع كمامة في فمي كي يشق السير روبرت اني ما خنته .

– اني اعدك بذلك والآن الى اين انت ذاهبة بي ؟

– اعلم انه يوجد تحت هذه المغارة قاعة سرية لا يعلم سرها الا انا والسير روبرت فخذ بيدي ولندخل اليها وهناك نضيئها الديك كبريت شمعي ؟

– قال نعم اخذ بيدها ولبث خنجره بيده الاخرى حتى اذا دخلا المغارة اثار جان الكبريت فرأى غرفة متسعة لم يجد فيها باباً فقال لها اين الغرفة السرية العلك هزأت بي .

قالت كلا فانظر الى هذا الحجر الكبير فانه يحجب بابها فاذا ازحته عن موضعه ظهر لك من تحته لولب صغير تضغط عليه فينكشف

الباب ولكني لا استطيع ازاحة الحجر فهو ضخم كما تراه .

قال انا ازيحه ثم انحنى وجعل يعالج ذلك الحجر الكبير حتى ازاحه وظهر له اللولب كما قالت .

فقالت له اضغط عليه بقوة فوضع يده عليه وضغط عليه بعنف شديد فوثبت الى مسرعة الى الوراء وانشقت الارض حيث كان جان فهوى الى جوف تلك الهوة وصاح صيحة هائلة سمعتها الى فضحكت ضحك الهازىء وهي تقول :

اذا لم يمت من السقطة فسيموت من الجوع .

●

اما شمشون فانه انتظر الى ان عاد المسيو روبرت فجاء الى باب الحديقة كي يخبر جان فلم يجده فصفر الصفير الخاص وصبر فلم يأت فمشى الى الزقاق باحثاً عنه فلقى ليونيل صريعاً والدم يسيل منه فحمله الى قرب مخفر وعاد الى موقفه فصبر الى ان اشرق الصباح دون ان يحضر جان فقال في نفسه لا شك انه عاد الى المنزل بينما كنت اوصل ليونيل الى المخفر .

وقد ذهب الى المنزل فوجد الطبيب بولتون يعالج اليبسي فسأل عن جان فقالوا له انه لم يعد فاخبرهم بامره واشتد قلق الطبيب عليه

وفيما هم يتداولون دخل احد الخدم برسالة وقال ان احد الخدم جاء بها وانصرف ففضها شمشون وعرف خط جان فقرأها على مسمع من الطبيب واليبسي وهي تتضمن جملة واحدة وهي :

لا تقلقوا لغيابي فسأغيب عنكم خمسة ايام فقط .

وحكاية هذه الرسالة ان الن حين القت جان في الهاوية

عادت الى الموقف التي كانت فيه على رجاء ان تجد ليونيل فعثرت رجلها بدفتر فالتقطته وهي موقنة انه سقط من جيب جان حين كان يحاول خنقها .

وعند ذلك ذكرت ما قاله لها جان ان ليونيل لايحضر وانه دخل الى الحديقة بمفتاحه فذهبت الى غرفتها وهي تطمع ان تقف على اسرار جان من هذا الدفتر فلم تجد فيه غير مذكرات لاعلاقة لها بالمركيز .

ولكنها استفادت من ذلك انها مرنت يدها على خط جان ثم نزعت ورقة من هذا الدفتر كتبت عليها تلك الجملة مقلدة خطه أتم التقليد وعند الصباح ارسلت تلك الرسالة مع احد خدمها الى منزل جان كي يطمئن رجاله عليه فلا يبحثون عنه .

وكانت قد لبثت في غرفتها الى ان جاء السير روبرت فسألها قائلا ماذا فعلت ؟

قالت لقد قبضت على المركيز وانت ماذا فعلت ؟

قال اني دعوت الاشراف الثلاثة الذين ذكرتهم لي للغداء عندي غداً ولقيت المركيز روجر في نادي الحسان ففعلت ايضاً ما اوصيتني به وجعلت المحادثة تدور على نادي هرمين السري .

قالت ماذا قال المركيز ؟

قال انه انكر وجود مثل هذا النادي في لندرا ثم قال تاكيداً لحجته انه اذا كان هذا النادي موجوداً كما تدعون فاني اتعهد ان اكون من اعضائه .

قالت اذن لقد تم لنا النصر .

قال وانا قد فعلت كل ما اوصيتني به فهل تريدين ان تخبريني الآن بماذا يكون .

قالت كلا ولكني وعدتك ان ابرهن لك على ان المركيز روجر هو ابن النورية سيسيليا وستقف غداً على هذا البرهان انت واشراف الانكليز .

قال لا يحمل بنا اتقاء هذه الفضيحة ؟

قالت كلا فان روجر لا يتنازل لاخيه الا اذا افتضح الامر لدى جميع الاشراف .

●

وفي الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي ذهب الطبيب بولتون الى المركيز ليتم عملية ازالة الوشم فاخبره المركيز بامر هذه الجمعية السرية وبما كان من بعده بالانتظام فيها وان غرض هذه الجمعية معاقبة كل شريف يقدم على اعمال منكرة وانه ينتظر ان ياتوا اليه في الليلة فيدخلونه في سلك هذا الجمعية .

فاطرق الطبيب مفكراً وقال ارى انك اندفعت اندفاعاً غير محمود وانك تخطىء في ذهابك الى هذه الجمعية .

قال ربما ولكن لم يبق سبيل الى الرجوع حذراً من ان اتهم بالخوف .

وبعد هنيهة خرج الطبيب وهو يقول في نفسه لقد اشغلت بالي هذه الجمعية ولا شك ان هناك مكيدة تكيدها لنا .

اما المركيز جاءه في ذلك اليوم رسول مقنع من قبل الجمعية واتفق واياه على ان ياتي اليه في اليوم التالي للذهاب به اليها .

وفي اليوم التالي جاءه ذلك الرسول عند انتصاف الليل فخرج واياه وركبا مركبة حتى اذا سارت بهما قال له الرجل اني سأعصب عينيك حسب قواعد جمعيتنا فهل تقسم لي انك لا تنزع العصابة .

قال اقسم .

فعصب عينيه وسارت بهما المركبة الى ان وقفت فخرج الرجل مع المركيز ودخلا من باب فمشى واياه بضع خطوات ثم قال له لك الآن ان ترفع العصابة .

فرفع المركيز العصابة ونظر ماحواليه فرأى على نور القمر انه في مقبرة فقال له اهنا تجتمعون ؟

قال العلك تخاف الاموات ؟

قال لا اخاف الاموات ولا الاحياء .

قال اذن اتبعني .

وسار الاثنان بين القبور حتى وصلا الى ضريح كبير من الرخام ففتح الرجل باب الضريح وقال له الى مغارتك الآن فادخل من هذا الضريح تجد سلماً فانزل عليه حتى تبلغ الدرجة الاخيرة فتسير في رواق صغير تجد في آخره باباً فتقرعه ثلاث مرات وتذكر اسمك والآن اعطني حسامك .

فاعطاه حسامه ودخل المركيز غير هياب ونزل السلم حتى انتهت الى الباب فقرعه فاجابه صوت من الداخل قائلا من انت ؟

قال انا الذي تنتظرونه .

قال من انت .

قال انا المركيز روجر دي اسبرتهون .

قال ادخل .

ثم فتح الباب واتقدت الانوار عقب ذلك فأنارت المكان .

●

ولنعد الى سينيتيا فانها بعد ساعة ذهب عنها تأثير المخدر وحلت عقدة لسانها فاخرجوها الى القاعة بعد وثوقهم من انصراف جان واقاموا يتناوبون الحراسة عليها .

وفي اليوم التالي جاءت ان فخفق قلب سينيتيا ولم تعلم اتثق بهذه الفتاة بعد ما رأته من حبها لولدها ام تحذر منها وقد قال لها اخوها انها عدوتهم اللدودة .

اما ان فانها دنت منها فاخذت يدها بين يديها وقالت :

آه لو تعلمين كم يسؤني ان اراك جازعة وانت ام روجر الذي لا احب سواه في هذا الوجود .

قالت انك واهمة فليس لي ولد .

قالت انك تحذرين مني وحقك ان تحذري في الظاهر لانهم لا بد ان يكونوا قد اخبروك باني عدوة ولدك والله يشهد اني احبه

قالت لقد قلت لك انه ليس لي ولد ولا علاقة لي بهذا الفتى الذي تذكرينه ولكن لنفترض اني امه فكيف احذر من امرأة اختطفتني في الطريق وعهدت بحراستي الى امرأة سافلة تعذبني .

قالت ومن انبأك ان الذي حدث هنا قد جرى بأمري بل من انبأك اني لا اتعذب اشد مما تتعذبين ولكني لا احاول اقناعك فان ذلك محال كما يظهر ولم يبق لي الا ان اقول بانك حرة .

www.liilas.com/vb3 RAYAHEEN

فصاحت سينيتيا صيحة فرح ومشت الى الباب ثم رجعت وقالت لها ولكن لماذا حبستني يومين ثم اطلقت سراحي اليوم ؟

فاجابتها قائلة اذا اردت ان تعرفي السبب فلا بد من ان تدعيني افترض انك ام روجر . ان روجر يحبني وانا احبه ولكن رجلا تعرفينه حال بيننا وهذا الرجل هو جان دي فرالس فانه يحبني حباً فاسداً ويتعقبني منذ ثلاثة اعوام وقد آلى على نفسه اهلاك خصمه اذ بات الد عدو له فهو يخدعك ويخدع المركيز استرتهون ويمثل هذه الرواية الشائنة اقبح تمثيل والآن فاذهبي الى اخيك الذي تحبينه وتآمري واياه دون ان تعملي على اهلاك ولدك روجر اما انا فساقاومكم بحيلتكم وحدي لانني احبه .

اني احبه اسمعت وساجد من حبي قوة تعينني على انقاذه من مخالبكم ولكن اذا كنت تحبين اخاك حقيقة فاجتهدي ان تهديه سواء السبيل .

وعند ذلك دخل خادم من خدم المركيز روجر وهو يلهث من التعب فناول مس الن رسالة وقال لها هذه الرسالة من سيدي المركيز .

فاخذت الرسالة ولم تلبث ان قرأتها حتى شهقت وسقطت مغمياً عليها بين يدي سينيتيا واسرعت الهندية اليها فاغتنمت سينيتيا هذه الفرصة ونظرت الى الرسالة فقرأت فيها ما يأتي :

— « حبيبتي الن » .

اني سقطت في كمين وساموت بعد ساعة اذا لم تسرعي الى نجدتي فاني في قبضة جمعية هرمين السرية »

وعند ذلك فتحت الن عينيها وقالت هلموا الى انقاذه انهم سيقتلونه .

وصاحت سينيتيا قائلة ولدي ولدي .

فقبضت الن على يدها وقالت لها هلمي .. اسرعي فان كل دقيقة نفقدها تقربه من الموت .

ثم خرجنا راكضتين الى المركبة فصعدتا اليها وامرت السن السائق ان ينهب الارض الى سانت جيل .

●

والآن لندخل الي نادى تلك الجمعية السرية قبل وصول المركيز روجر اليها ببضع دقائق وذلك في قاعة مستديره مفروشة بالحرير وفي وسطها مائدة من البلاط الابيض عليها نمش مكشوف وبجانبه مطرقة ومسامير وقد وقف رجل بالقرب من تلك المائدة مقنع الوجه مرتدياً بملابس حمراء وهو مستند الي حسام مجرد وكان وقوفه في اناء كبير مملوء بالنخالة .

وامام هذه المائدة منصة من الخشب كان جالسا عليها اثنا عشر رجلا يلبسون فرو السمور وعلى وجوههم براقع من الحرير الابيض وهم جالسون دون حراك كالاصنام .

وكان بينهم رجل واقفاً في الوسط ورائه منضدة من البلور وهو يلبس مثل رفاقه ولكنه كان يمتاز عنهم بعقد من الكهرباء في عنقه .

وكان على تلك المنضدة كثير من الاوراق وقضيب قصير من العاج فقرع المنضدة بالقضيب استرعاء للاسماع وقال :

ايها اللوردات اني جمعتكم الليلة للاحتفال بدخول عضو جديد بيننا مشهود ببسالته وآدابه .

وقال له احد الاعضاء لقد علمنا بامر هذا العضو ولكننا لم نعرف اسمه .

قال انه يدعى المركيز دي اسبرتهون .

فقال سواء اذا كان ذلك فلا فائدة من الوقت في امتحان بسالته فانها مشهورة .

فقال الرئيس لا اجد بداً قبل ان نخوض في الحديث ان اذكركم بغايتنا من تاليف هذه الجمعية وهي معاقبة كل شريف انكليزي يسيء وكل جريء يجسر على انتحال القاب الاشراف اذن فاعلموه انه حدثت جريمة عظيمة من هذا القبيل ابسطها لكم بكلمتين وهي ان جريئاً من طائفة النور تجاسر على انتحال لقب لورد .

فظهرت علائم الاشمئزاز على الجميع ومضى الرئيس في حديثه فقال اني بينا كنت اعد اليوم دعوة اجتماعكم لادخال المركيز اسبرتهون في جمعيتنا وردتني هذه الرسالة التي اتلوها عليكم وهي

ان نادي هرمين لم يهتم الى الآن الا بامور ثانوية مثل كشف حيلة نبيل يحتال في سباق الخيل كي يجعل السبق لجواده ومثل منع زواج الشريف من غنية من عامة الشعب طمعا بمالها الى غير ذلك من الامور التافهة التي لاتذكر بالقياس الى الجريمة التي ابسطها لكم

واني اسال جمعيتكم السرية اي عقاب يستحق من يخدع شعباً باسره وينتحل لقب سيد عظيم مات وهو في المهد ويجسر على

الجلوس في مجلس اللوردية .

فضج الاعضاء لما سمعوه وقال لهم الرئيس اني القي عليكم هذا السؤال الذي سأله صاحب هذه الرسالة فأي عقاب يستحقه هذا الرجل

فوقف احد الاعضاء واجاب قائلا :

يجب ان ينزع عن كرسيه وهو في مجلس اللوردية وان يجره الكناسون على الطرقات .

وقال آخر وانا اقترح نفيه الى احدى الجزر .

وقال سواه اما انا فارتأي غير هذا الرأي . فقال الرئيس ماذا ترتأي ؟ .

قال ان اول شرط من شروط جمعيتنا ان يكون اعضاؤها من النبلاء وان يكون جميع الاعضاء متضامنين فاذا دخل ذئب الى قطيع يقتلونه وكذلك اذا دخل ذئب مزور بين النبلاء فقد وجب عليهم انفسهم ان يقتلوه وعلى ذلك فاذا ثبتت التهمة على المتهم اقترح ان يموت فارتعش الحاضرون وجعلوا ينظرون الى النعش الموضوع على المائدة والى الجلاد فقال الرئيس :

ان البرهان موجود انما يجب قبل الحكم ان نعرض هذه الجريمة على العضو الجديد اي على المركيز روجر فمتى ابدى رأيه فتحت هذا الكتاب الثاني الذي ورد لي اليوم ايضاً فانه يتضمن اسم هذا المزور وهو موجود بين اعضائنا . فصاح الجميع قائلين هذا محال فاننا نعرف انفسنا .

قال لا تعجبوا فقد انبأوني بوجود براهين .

قالوا اذن ليصدر الحكم في هذه الجلسة وليتاهب الجلاد لاعدام

الجـــاني .

وعند ذاك طرق الباب ثلاث مرات وذكر الطارق اسمه ففتح الباب .

وكان هذا الداخل المركيز روجر نفسه فوقف ينظر الى تلك الوجوه المقنعة وابتسم حين رأى النعش والجلاد .

فسأله الرئيس قائلا من انت ؟

قال المركيز دي اسبرتهون اني قائد فرقة الفرسان .

ـ ماذا تريد ـ اريد التشرف بالانتظام في سلك جمعيتكم .

ـ هل انت نبيل نعم .

ـ ألم تقدم في حياتك على ما يمس الشرف ـ على الاطلاق .

ـ حسناً فاجب الآن على هذا السؤال وهو ما يستحق الرجل الذي ينتحل لقب سواه ويعبث باشراف الانكليز .

ـ ان هذا الرجل لا يمكن ان يوجد .

ـ بل هو موجود . وتلا عليه الرسالة فلما انتهى قال له روجر ان هذا الرجل يستحق الموت .

قال هو ذاك فان هذا النعش معد له وهذا الجلاد الذي تراه سيقطع رأسه والآن فاسمعوا الرسالة الثانية كي تعلموا اسم هذا المزور الذي حكمتم عليه .

« منذ ثلاثة ايام عرضت امرأة نورية تدعى سينيتيا شكواها الى مدير البوليس وادعت انهـــا بدلت طفلها بطفل ابن لورد انكليزي ذكرت اسمه فاصبح طفلها النوري ابن اللورد وهو اليوم بعد من كبار النبلاء .

وهناك اوقف الرئيس التلاوة وسأل روجر قائلا الا تزال مصراً ايها المركيز ان هذا المزور يستحق الموت ؟

قال كل الاصرار . فعاد الرئيس الى تلاوة الكتاب وقال :

اما هذا الطفل الذي ابدل بابن اللورد اي ابن سينتيا النورية فهو يدعى اليوم المركيز روجر دي اسبرتهون » فصاح روجر قائلا هذا زور وبهتان .

وعند ذلك سمع الاعضاء صيحة اخرى وهي صيحة ألم ثم فتح باب ودخلت منه امرأة منبوشة الشعر رقد حمظت عيناهـــا فركضت الى روجر فطوقته بذراعيها وقالت للرئيس :

رحماك رحماك اشفق على ولدي . ارحم شبابه ولا تحكم عليه بالموت فهو بريء وانا المجرمة . اقتلوني ولدي ... ولدي اميري الذي لا احب غيره في الوجود . انظروا اليه ما اجمله .

اما روجر فانه ابعدها عنه بعنف وخاطبهم قائلا .

ايها اللوردية ان هذه المرأة اذا كانت قالت الحق واثبتت اني لست ابن اللورد اسبرتهون ارجوكم ان تنفذوا بي حكم الاعدام في الحال .

ثم مشى الى النعش فركع امامه وقال لسنيتيا انت يا من تدعين انك امي هات برهانك ان كنت صادقة وانت ايهـــا الجلاد تأهب .

ولكنه قبل ان يتم حديثه سمع ضجيج في الخارج ثم طرق الباب بعنف وسمعوا صوتاً يقول افتحوا باسم الشرع .

فامر الرئيس بفتح الباب فدخل رجلا بملابس البوليس كان

يتبعه رجل بالملابس المدنية واثنان بملابس عمال المستشفيات فانحنى البوليس مسلماً وقال لهم اسألكم المعذرة ايها السادة لازعاجكم ولكنني ما اتيت الا بمهمة سامية ولا اسألكم عن هذا النعش فما اتيت الا لأساعد الطبيب ملتون وهو طبيب مستشفى المجانين في بلدام فان مجنونة هربت من المستشفى وجنونها ينحصر في كونها تدعي انها ام فخامة اللورد اسبرتهون .

فكان لهذا الكلام اشد وقع على الحاضرين ونظرت سينيتيا الى ما حواليها وقد كاد يذهب صوابها ولكنها فهمت كل ماجرى فدنا الطبيب من الرئيس وقال له :

اني كنت طبيباً للورد اسبرتهون الخاص حين كان حاكماً للهند وقد شهدت ولادة ابنه ورأيته يترعرع حتى بلغ مبالغ الشباب فلما جاءوني بهذه المنكودة وسمعتها تدعي انها ام المركيز ايقنت من فوري انها مجنونة وادخلتها الى المستشفى .

ثم التفت الى احد العاملين وقال احملها يا نبلي .

فدنا العامل منها وعرفت سينيتيا انه شمشون فتكلفت الجنون اثباتاً لقول الطبيب وجعلت تضحك حين حملها شمشون وتقول :

يا لورد اسبرتهون خير لك ان تعود من عالم الاموات كي تقنع هؤلاء المجانين ان روجر ولدنا .

فلم يبق سبيل للريب بانها مجنونة فما انصرفوا بها اعتذر الرئيس الى المركيز وقال :

لقد ثبتت لنا شجاعتك ايها المركيز واننا نعترف بانك ان تكون منا فقد رضيناك عضواً عاملاً في جمعيتنا .

وعند ذلك اشار الرئيس اشارة فأزيلت البراقع عن الوجوه ودهش روجر دهشاً عظيماً اذ رأى ان جميع هؤلاء الاعضاء اصحابه في نادي الحسان فقال يخال لي اني حالم .

فقال الرئيس لقد كان حقاً يكون كابوساً لو لم يحضر الطبيب ملتون والآن فاني اقترح كتمان هذه الحادثة وموعد الجلسة القادمة بعد ثلاثة ايام .

مشكلة حب

٨

عادت الن بعد خيبتها الى المنزل وهي ناقمة على اولئك الاشراف الذين صدقوا رواية بولتون وايقنت ان مساعيهم تخيب الا بمكايد النور ومع ذلك فان جان لم يكن معهم فانه قتيل لا شك في البشر :

وقد خطر لها ان تتفقده فأخذت مصباحاً فعلقته بحبل طويل ونزلت الى الحديقة فدخلت الى المغارة وفتحت باب البئر وادلت المصباح فرأت جثة هامدة في الارض والجرذان من حولها فتراجعت منذعرة لهذا المشهد الفظيع اذ عرفت وشاح جان وايقنت انه مات .

ثم عادت الى المنزل وهي تقول في نفسها لقد هلك عدوي الان ولم يبق لي الا ان اختار ليونيل واجعله مركيزاً فان ذلك منوط بالحادثة التي ستجري بيني وبين السير روبرت .

وبعد هنيهة دخل السير روبرت وهو مصفر الوجه مضطرب فقالت له ما هذا الاضطراب .

قال اظن ان النور قد عبثوا بنا .

كيف ذلك ؟

ـ اني عائد من نادي الحسان وكنت فيه لالتقط اخبار الجمعية السرية كما اوصيتني اذ قلت لي ان النورية ستقول امام اعضاء تلك الجمعية ان المركيز روجر ولدها وكنت اتوقع ان الاعضاء يتهامسون حين عودة المركيز ولكن الامر كان على الضد فقد عاد الاعضاء يصحبهم المركيز وصداقتهم امتن مما كانت من قبل .

ـ اصغ الي يا عماه فسأخبرك بكل ما حدث .

ثم اخبرته بكل ما جرى فقال لها اذن ان هذه المرأة مجنونة

ـ كلا ولكن هؤلاء النور كانوا اشد منا .

ـ بل اني سأنور عليهم ولو اضطررت الى ان اقول في البرلمان ان المركيز روجر مزور .

ـ كيف السبيل الى اقناع البرلمان .

ـ بالعلامة الموشوم بها .

ـ لقد ذهب اثرها تماماً ولم يبق من البراهين الدالة على اصله غير امه التي اذاع الطبيب بولتون انها مجنونة وهو قد ابعدها الان لا محالة .

فضرب الارض برجله مغضباً وقال ولكن لا بد من جلاء الحقيقة .

قالت هذا صعب كما يظهر ولا بد لنا من التسليم وتصديق ما صدقه سوانا .

ـ كلا ان ذلك لا يكون .

ـ اني اتزوج ليونيل ويبقى في عيون النام الي اتعرفني .

ـ كلا كلا وساقتل ابن النوريه .

فنظرت اليه نظرة منكرة وقالت العلك نسيد كان يمكن

ـ اذن ماذا تريدين ان تصنعي ؟

ـ اصغ الي جيداً يا عماه اثبت لك اني قادرة على مقاومة هذه الطائفة .

ـ هو ذاك ولكن حرباً كحربنا لا تنتهي بمعركة واحدة .

ـ العلك تريدين العودة الى المعترك .

ـ دون شك فقد استعملت العنف والعنف ليس سلاح النساء ولذلك وضعت خطة اخرى ـ ما هي ؟

ـ ألم تقل لي انك سافرت مرة الى الصين ؟

ـ نعم ولكن اية علاقة للصين بما نحن فيه ؟

ـ ألم تر الصينيين يبيعون بضائعهم للاوروبيين فانهم يبسطون أبضائعهم فاذا اراد الاوروبي شراء حاجة عد الصيني الثمن على صابعه فاذا اراد الاوروبي المساومة ارجع الصيني بضاعته فلو أمره الامبراطور ان يبيع ذلك الذي ساومه لابى وانا مثل ذلك الصيني .

ماذا تعنين ؟

ـ أعني اني استطيع حمل المركيز على التنازل عن لقبه وثروته لليونيل فلا تسألني لماذا .

ـ وماذا تريدين مني مقابل ذلك ؟

أريد ان تسافر غداً للصيد في جبال ايكوسيا .

على هذا السفر وأطلق لك الحرية فاذا تصنعين

كنعمل ليونيل لوردا .

ـ اذن سأسافر غداً .

فعرضت له جبينها كي يقبلها حسب عادته ولكنه لم يفعل واكتفى بمصافحة يدها فلما ذهب الى غرفته نزع القفاز من يده التي صافحها بها والقاه في النار ثم تنهد تنهداً طويلا :

انها فتاة مسترجلة متهتكة ولكنها ستجعل ليونيل لوردا .

●

ولنعد الآن الى الطبيب بولتون فليست هي الصدفة التي وقفته على سر الان وجعلته يضربها هذه الضربة القاضية .

ولا بد لنا في كشف هذا السر من ان نعود الى الليلة التي القت فيها الن جان دي فرانس في البئر فقد كانت واهمة في اعتقادها انه مات فانه لم يقتل حين سقوطه بل اصيب برضوض بسيطة لوقوعه على ارض رطبة وجرحت جبهته جرحاً خفيفاً .

وقد نهض بعد سقوطه وامتحن اعضاءه بالتمرين فوجد انها مصابة بكسر ولكنه قال في نفسه لا شك ان هذه الشيطانة قد انتصرت علي هذه المرة .

وقد اقام نحو ربع ساعة دون حراك ثم جعل يفحص الارض فعلم انه في جرف بئر فاستعان بعلبة الكبريت الشمعي واثار ذلك المكان المظلم فرأى البئر مستديرة وان جدرانها ملساء وهي بعيدة النور بحيث يستحيل عليه الخروج منها بتسلق الجدران

الي اتعرفني .

فقال في نفسه ترى اقضي علي ان اموت من

ثم جعل يفكر في امره فقال في نفسه بعد ان كان يمكن هذه البئر غير مخصصة لجمع المياه فانها محفورة في وسطه باب يفتح بلولب خفي وليس هذا شأن الابار العادية فلا بد ان تكون حفرت خصيصاً للالتجاء اليها في ايام المخاوف والثورات اي انه لا بد ان يكون فيها منفذ يخرجون منه الى خارج هذا القصر

وكانت ارض البئر ضيقة لا تتجاوز مترين وقد اصبح قرابها وحولاً لشدة الرطوبة فأخذ يرفع تلك الوحول بخنجره ويديه حتى انكشف له بلاط الارض فرأى حلقة من الحديد في وسط رخامة فرقص قلبه فرحاً ونزع تلك البلاط فانكشفت له حفرة اخرى رأى على نور الشمعة ان علوها لا يزيد عن مترين فالقى نفسه فيها وراء مدخل دهليز ضيق لا يستطيع السير فيه واقفاً فسار فيه نحو عشر دقائق فسمع صوت عجلات مركبة فوق رأسه فأيقن انه باب خارج القصر وانه تحت احد الشوارع .

وما زال يسير في هذا الدهليز وهو كل ما توغل في السير شعر بهواء بارد يهب على وجهه حتى بلغ سطح الارض من منفذ كان مخفيا بين ادغال كثيفة رآها على نور القمر .

ولكنه لم يكد يزيح هذه الادغال حتى رأى مكاناً فسيحاً كثرت فيه الاشجار والصلبان السود فعلم انه في مقبرة وطاف فيها فوجد انها مسورة بسور عال لا يمكن تسلقه ونظر في مكان القمر من الافق فعلم ان الساعة قد بلغت الثالثة بعد انتصاف الليل وقال في نفسه سأختبىء وراء هذه القبور الى ان يفتح الحفار باب المقبرة

دجرة كبيرة وهـو يبتسم ابتسام الظافر
م الفظيع .

ك يمكنه رأى ان باب المقبرة قد فتح ثم رأى على نور
رجلين مقنعين دخلا الى التربة ودنو من موقفه وهما يتحدثان
فسمع احدهما يقول لرفيقه لقـ عزمتم على قبول المركيز دي
اسبرتون بينكم .

قال نعم وهل يوجد في نادي هرمين من يفضله وغداً سيقابله
رسولنا وبعد غد نحتفل بادخاله في الجمعية .

وقد سمع جان هذا الحديث ثم رآهما واقفين عند ذلك القبر
الذي دخل منه المركيز الى الجمعية كما تقدم بيانه ففتحاه ودخلا .

اما جان فقد عرفهما من صوتهما وايقن انهما من اعضاء تلك
الجمعية السرية التي لم يستطع الاندماج فيها لانه لم يكن من اشراف
الانكليز ثم ايقن ان حارس المقبرة متفق مع اعضاء الجمعية بدليل
انهم يدخلون اليها في ظلام الليل متى شاءوا .

وقد مشى الى الباب وكان الخادم يهم باقفاله فأشار اليه جان
ان لا يقفله والحنى الحارس امامه اذ حسبه من الاعضاء .

اما جان فانه نظر الى وجهه الاسمر ثم وضع يده على كتفه
وقال له ارني كتفك الايسر فانك من النور .

فاضطرب الرجل وقال له رحماك يا مولاي لا تفتضحني فان
كاهن هذه الكنيسة اذا علم اني من النور طردني . ـ قال ماذا تدعى
ـ قال ادعى في لندرا يا مستر .

ـ وفي المضارب ـ رهامر .

فنزع جان القناع عن وجهه وقال له انظر الي اتعرفني .

فركع امامه وقال له كيف لا اعرف ملكنا .

ـ اذن لقد وجبت عليك طاعتي فاذهب بي الى مكان يمكن
ن نتحدث به دون ان يسمعنا احد .

ثم دله على القبر الذي دخل منه الرجلان فارتعش النوري
وقال له العلك عارف يا مولاي .

قال نعم لقد رأيت رجلين دخلا اليه فمتى يخرجان منه؟

ـ انهما لا يخرجان من هنا بل من طريق آخر .

اذن نحن وحدنا الآن .

نعم اذ لا يدخل احد الى التربة قبل الساعة الثامنة من الصباح
والآن فاني مضطر الى حفر قبر .

ـ لمن ـ لرجل من العمال توفى في المساء وسندفنه في الصباح

ـ اريد جثته .

فنظر اليه النوري بملء الاندهال وقال له جان هل تستطيع
ان تخبأني الى المساء . قال نعم في هذه الغرفة التي نضع فيها الآلات

فقال جان في نفسه اني سارسل هذا الحفار الى شمشون عند
الصباح كي يطمئن علي .

ثم تبع الحفار الى تلك الغرفة فتناول واياه مدة طويلة واطلق
سراحه واقام في تلك الغرفة ينتظر الليلة التالية يجازع الصبر .

وفي الليلة التالية جاءه الحفار وقال له ان الجثـة حاضرة
يا سيدي فماذا تريد ان تصنع بها ؟

قال اني اريد ان ادفنها في المكان الذي اعد لدفني فاحملها واتبعني فحملها وعاد جان بها الى تلك البئر التي القته فيها الن فوضعه فيها والقى وشاحه فوقها .

وبعد ذلك بساعة كان جان عند الطبيب بلتون فقال له الطبيب من اين اتيت ؟

قال من عالم الارواح وقد بعثت بعد الموت امامك وامام شمشون ولكني ميت امام جميع الناس .

ـ ماذا تعني ؟

اعني انه يجب ان يعلم الجميع منذ اليوم اني ميت وهذه هي الطريقة الوحيدة لانقاذ روجر من براثن تلك النمرة التي يدعونها الن

وقد قص عليه كل ماجرى واقام عنده فوضعا تلك الخطة التي نجحت كل النجاح وقضت على امال الن .

وعلى ذلك فان انقاذ سنيتيا في الجمعية السرية وانقاذ روجر انما كان بفضل جان الذي كانت تحسبه الن من الاموات .

●

على ان الاخطار المحدقة بالمركيز روجر لم تقف عند هذا الحد فانه اذا كان نجا من الن فلا يزال له عدو اشد خطراً منها وهذا العدو انما هو ابن عمه السير جيمس الذي كان يتوهم انه قتل في اميركا حين القى نفسه من شرفة الحصن الى البحر .

ويذكر القراء ذلك الرجل الذي جاء الى دايي فاتا الهندية واشترى منها حبة من سبحة اذا اذيبت بكأس من الخمر كانت سماً زعافاً .

اما هذا الرجل فانه كان السير جيمس فانه لم يكن يعلم ان ليونيل هو ابن اللورد اسبرقهون الشرعي لاعتقاده انه مات وهو في المهد فلم يكن له هم غير قتل المركيز روجر لانه وريثه الوحيد فلما فرغت جعبة مكايده عزم على قتله بالسم .

وقد عاد الى لندرا متنكراً فاتى باسم رجل من عظماء الاسبان وعلم ان المركيز مشترك في نادي الحسان فدخل فيه وبات واحداً من اعضائه وانما فعل ذلك كي يتمكن من دس السم للمركيز بحيلة سوف تظهر .

واما الن فقد اعتقدت ان الجو خلالها بعد موت جان وبعد سفر السير روبرت فأخذت تتمعن في امرها وتقول في نفسها :

ان هؤلاء الزور قد ورثوا الحقد عن زعيمهم جان فاذا تزوجت روجر لا آمن شرهم وخير لي ان اغتنم فرصة غياب السير روبرت فاتزوج ليونيل ثم ارى رأيي في فضيحة روجر .

وقد قامت من فورها فكتبت الى ليونيل رسالة موجزة وقالت له فيها انها تريد ان تراه لشأن خطير فاسرع الى موافاتها وقابلها بملء البرود فجزعت لما رأته وقالت له لماذا تنظر الي هذه النظرات يا ليونيل ؟

فاجابها بلهجة الساخر قائلا .

اخاف ان تكوني مع الذي تؤثرينه علي وان اكون نغصت عليك هذا اللقاء .

ـ ليونيل .. ما هذا الذي اسمعه منك ألم تعد تحبني .

ـ لماذا احبك وانت لا تحبينني .

– انك تكذب يا ليونيل فقد انتظرتك في الحديقة فلم تحضر وفي اليوم التالي علمت انك جرحت في مبارزة .

– نعم اني بارزت الرجل الذي تحبينه والذي دخل الى الحديقة مكاني اي المركيز روجر .

– العلك جننت ان المركيز لم يأت الى هنا ؟

لا اثق بشيء مما تقولين .

فوقفت وقد تكلفت الغضب وبرقت عيناها فقالت له اخرج من هنا فانك تهينني .

وقد قالت له ذلك بلهجة الآمر فطاش صواب ليونيل وخرج خروج القانطين وهو يقول : اني سأقتل المركيز روجر .

●

كان المركيز دائم الاضطراب بعد تلك المحادثة التي جرت له في تلك الجمعية السرية فكانت سنيتيا تتمثل له بكل مخيل ويسمع صوتها تقول انه ولدي بلهجة لا تخرج الا من افواه الامهات .

وكان الطبيب بلتون كتب اليه في اليوم التالي يخبره انه سافر الى ارلندا لشأن عائلي مستعجل فخامر المركيز شك واراد ان يستجلي الحقيقة فركب مركبته وذهب الى مستشفى المجانين في بلدام وهو يقول في نفسه اني اريد ان ارى هـــذه الامرأة التي تدعي انها امي .

وهناك قابل المدير وقال له هل استطيع مقابلة الطبيب بلتون احد اطباء المستشفى ؟

قال انه ليس من اطبائه يا سيدي وليس له به ادنى اتصال

فذهل المركيز وقال الا يوجد عندكم امرأة مجنونة تدعى سنيتيا

قال لا اعلم اذ يوجد عندنا تسعماية امرأة وسأراجع السجل.

كم يبلغ عمرها – نحو الاربعين .

– ما هو نوع جنونها – انها تتوهم كونها امي .

– هذا محال يا مولاي فلو دخلت الى المستشفى امرأة تدعي هـــذه الدعوه على فخامتكم لعلمت بامرها في الحال ومع ذلك فسأرى .

وقد اخذ ينظر في سجل ضخم بينما كان المركيز يناجي نفسه فيقول ترى العل هذه المرأة قالت الحق .

وعند ذلك خطرت له بسرعة التصور كل حوادث حياته فذكر الوشم الذي كان على كتفه واهتمام بلتون بازالته ومخاطرة النابلب عثمان بحياته في سبيل حمايته واحتجاب بلتون بعد تلك الحادثة ونظرات تلك المرأة الحنونه التي كانت تدعي انها امه وصياحها تلك الصيحة المنكرة حين سمعت الاعضاء يحكمون عليه بالموت فزاد به الشك ولا سيما بعد ان اخبره المدير ان هذه المرأة لم تدخل المستشفى وعاد الى منزله وهو في اشد حالات اليأس وقد خجل من نفسه حتى انه لم يعد يجسر على الذهاب الى النادي وكتب الى نائبه في قيـــادة الفرقة ان يتولى عنه شؤونها وبحث بحثاً دقيقـــاً عن عثمان فلم يجده .

فبينما هو جالس في غرفته في تلك الليلة دخل خادم ينبئه بقدوم ليونيل فقال له ليدخل .

فدخل وعرف المركيز من اصفرار وجهه وتوهج عينيه انه

قادم اليه بزي عدو لا بزي صديق .

اما ليونيل فانه انحنى امامه وقال له اني قادم لالتمس من فخامتكم اقالتي من الخدمة في الفرقة قال لماذا تريد الاستقالة .

– لاني اريد مبارزة قائد ارقى مني في الفرقة ولا يحق لي مبارزته ما زلت خاضعاً لامره .

فقطب المركيز حاجبيه وقال اذا كان ذلك فقد رضيت استقالتك والآن قل لي من هو هذا الذي تريد مبارزته .

– هو انت ايها المركيز – انا – نعم انت فاني اريد ان آخذ بثأري .

– تأخذ بثأرك ؟

– نعم ورجائي من فخامتك ان لا تتقنع بذلك القناع الذي اخفيت فيه وجهك حين بارزتني منذ عشرة ايام وتركتني شبه ميت على بلاط اندورا .

فجعل المركيز ينظر اليه بعين الانذهال ويقول اقسم بشرفي ذلك فقدت صوابك قال كلا ايها المركيز فما انا بمجنون .

– أتدعي انى بارزتك ثم تقول انك من العاقلين .

– اني لا اعلم بانك تتكر لتصون سمعة التي بارزتني من اجلها والآن ارجوك ان تعين موعد مبارزتنا وان ترد لي ذلك المفتاح الذي سلبته مني كما يسلب لصوص الليل .

فمد المركيز يده ليقرع الجرس وهو لا يشك ان هذا الفتى مجنون فقبض ليونيل على يده وقال كلا انك لن تقرع الجرس وسترد لي ذلك المفتاح الذي اعطتني اياه مس الن .

وقد وقعت هذه الكلمة من فؤاد المركيز وقع شرارة في برميل بارود فدفع ليونيل بعنف وقال له :

انك مجنون وتذل لانك تحاول تدنيس سيدة جديرة بالاحترام كانت تحبني وتشفق عليك .

ثم امتشق حسامه واقتدى به ليونيل ولكنها قبل ان يتقارعا فتح باب الغرفة ودخلت منه امرأة فحالت بينهما وهي تقول كلا انكما لن تتقاتلا .

وكانت هذه المرأة اللادي سيسلي فصاح ليونيل قائلا امي والمحنى المركيز امام هذه المرأة التي لم يكن يعرفها وقال لها يشهد الله يا سيدتي اني تجاوزت مع ولدك حد الصبر ولكنه اهانني كما يهينون المتشردين .

قالت ألا يوجد في القاعة الكبرى في هذا القصر صورة اللادي سيسلي زوجة اللورد اسبرتهون الميتة منذ اثني عشر عاماً .

قال نعم .

قالت اذن انظر الي .

فحدق المركيز بها وقال ان الشبه عظيم .

فأخذت بيده وذهبت به الى تلك القاعة ووقفت بجانب الصورة وقالت انظر الي والى هذه الصورة قال ماذا ارى العلك امي .

قالت لا اعتم اذا كنت امك ولكني ادعى اللادي اسبرتهون زوجة ابيك وان هذا الذي تقاتله انما هو ولدي الثاني اي ابن ابيك اللورد اسبرتهون .

وكان روجر امام التي توهم انها امه فلما علم ان ليونيل اخوه

نهض فمشى اليه وضمه الى صدره وهو يقول اغفر لي ياأخي .

ثم عاد الى اللادي واخذ يقبل يديها فسالت دمعتان من عينيها على جبينه وقالت بصوت يتهدج .

لا شك ان السير روبرت خدعني فانه ولدي .

ثم قبلت جبينه قبلة حادة اخص ما يقال في وصفها انها ام

وفي اليوم التالي ذهب المركيز الى النادي وهو فرح القلب باسم الثغر فتسابق الاعضاء للسلام عليه فانهم لم يروه منذ اسبوع وقال له واحد منهم انك لو اتيت امس لرأيت عجباً .

قال ماذا .

قال لانك كنت رأيت رجلا عجيباً في اطواره فان احدى سجاياه ان له خمسة عشر اسماً تبتدىء بالدون رودرو دانتس الخ وهو من عظماء الاسبان يلبس في اصبع من اصابعه خاتمين من الماس وغيره من الحجارة الكريمة ولا شك ان له متاجم ذهب فقد خسر امس الفين وخمسمائة جنيه وهو يضحك كانه من الرابحين او كانه النائب عثمان .

فارتعش المركيز لذكر عثمان وقال لهم ايها السادة اخبروني عما تعلمونه عن النائب عثمان ؟

فقال احدهم يقال انه يتنزه في اراضيه في ايكوسيا وقال اخر ان هذا الرجل عجيب ايضاً في اطواره فانه بينما نراه هنا وهو مرتد بملابس الاعيان نراه ينجول في اقبح ازقة لندرا وهو بملابس البحارة .

فأجابه احدهما قائلا لعلها حكاية تقصها ؟

قال بل حقيقة رأيتها فقد رأيته في الليل داخلا الى وينسغ وهو يحدث رجلا من عامة الشعب ويحدثه الرجل دون كلفة كأنهما صديقان

فارتعش المركيز لذكر النوري واراد ان يغير الحديث فقال لقد كنتم تتحدثون عن هذا الاسباني فمن اين اتى ؟

قال واحد منهم انه قادم من اميركا وهو يقول انه لقي ابن عمك السير جيمس فيها — منذ ثلاثة اشهر .

— هذا محال ايها السادة فان ابن عمي قد مات منذ ستة اشهر .

— هذا الذي نقوله ولكنه اثبت .

قد حضر وسنقف منه

رجلا من اسرة يدعون ان اميركا اذ زعيم الثائرين في اميركا وهو يدعى السير جيمس . فقال له المركيز متى كان ذلك ؟

قال منذ ثلاثة اشهر تقريباً .

قال اذن لقد مر ت رجلا انتحل هذا الاسم فان السير جيمس قد مات . فابتسم الاسباني وقال نريد انهم — وه ميتاً .

قال ان مر يسافر من علو حسين متراً ويصاب برصاصتين لا يعود الى الحياة

الامير اليوت وحملوه حتى قارب الى معسكر الحياة فشفي وبات اسيرهم ودليل صدقي انه عهد الي بمهمة لدى فخامتكم .

ـ أهي خطبة ام شفاهية .

ـ شفاهية واني ما دخلت الى هذا النادي الا على رجاء فيه فقد عهد الى السير جيمس ان اخبره بشأن خطير .

قال اذا لم يكن مما يقال امام الحاضرين فمين موعد لاجتماعنا قال اذا شئت فاقترح علي عند انتصاف الليل ان نلعب بالشطرنج فاننا نختلي في غرفة ونتحدث .

قال هو ذاك وسنجتمع في الساعة الاولى بعد انتصاف الليل فاني مضطر الى الذهاب الآن في بعض الشؤون .

وقد اقام المركيز ساعة بينهم ثم خرج من النادي فركب مركبته على ان يعود بعد ساعة .

عندما دخلت سيسلي الى الغرفة التي كان المركيز وليونيل يتبارزان فيها لم يكن قدومها من قبيل الصدفة والاتفاق بل كان من تدبير مس الن فانها حين رأت ليونيل خرج من عندها وهو يتوعد المركيز قالت في نفسها .

انه ذاهب الآن لمقابلة المركيز وقد دنت النتيجة التي انتظرها فلاسرع باخبار امه .

وكان منزل اللادي يجوار منزلها فخرجت مسرعة من الحديقة وصاحت :

اركضي يا سيدتي الى قصر اسبرتهون ولا تتأخري لحظة فان ولديك يقتتلان .

وقد عرف القراء ما جرى فان اللادي سيسلي وصلت قبل فوات الاوان ومنعت حدوث المبارزة وكان ما تقدم لنا بيانه

من انها باتت تعتقد ان المركيز والدها حقيقة فان السير روبرت كان قد قال لها قولا مبهما مفاده ان المركيز روجر ابن غير شرعي للورد اسبرتهون ولكنه لم يقل هذا القول بصفة جازمة فلما رأت ما كان من مروءة المركيز حين قابلها وحين رأى صورتها وقال لها انك امي لم تتمالك عن ان تصيح قائلة .

نعم انك ولدي .

وعند ذلك نسي المركيز ما جرى له في الجمعية السرية وما كان من صباح سنيقيا حتى انه نسي تلك الحماية الخفية التي كان يتولاها بها النائب عثمان وعاد الى الاعتقاد بان اللورد اسبرتهون الحقيقي الشرعي

وقد اقام ساعة بين امه واخيه لم يجد اهنأ منها في حياته فكان يسأل امه اسئلة مختلفة وهو يعجب كيف اذاعت خبر موتها بحيث اضطرت الى ان تخبره بكل التفاصيل عن حياتها المحزنة وما كانت تلقاه من ظنون زوجها وعنفه وكيف ان اخاه السير جاك وشى بها وشايات سافلة حتى بات يعتقد ان ليونيل ليس ولده بحيث اضطرت ان توهمه ايضا ان ولده ليونيل قدمات كي تنقذه من غضبه

فقال لها المركيز ولكن ابي قدمات فلماذا لم تأتي الي بعد موته فتقولي لي انا هي امك وهذا هو اخوك .

قالت ذلك لاني كنت اخاف هذه الشرائع الانكليزية الظالمة التي تخص كل شيء بالابن الكبير وتحرم بقية الاولاد فآثرت ان يبقى ليونيل كما هو على ان يظهر واثير عوامل التحاسد بينهما .

قال ان هذه الشرائع التي تخافينها لا تسري الا على الاشراف الذين يريدون ان يلجأوا اليها اما انا فلا فرق عندي بين الاولاد ولا

اميز بين البكر عنهم في شيء .

ثم مد يده الى ليونيل وقال له اننا سنقتسم ارث ابيك يا اخي بالسواء وسألتمس من الملك في اول مقابلة ان يأذن لنا بالاشتراك .

فضمت اللادي روجر الى صدرها وقالت انك شريف ، كريم يا ابني .

وقد اتفقوا ان يكتموا هذا الامر الى ان يعقد مجلس اللوردات اول جلسة .

ثم اوصلها المركيز الى منزلها وقبل ان يفارقهم همس في اذن ليونيل قائلا :

اني تخليت لك عن مس الن فأنت الذي تتزوجها وقد تركه والتفت يسير عائداً الى منزله فيبكي بكاء اليماً لهذه التضحية التي ضحاها

وفي اليوم التالي كتب الى مس الن يقول :

« اني مضطر الى مقابلتك اليوم لشأن تتعلق عليه راحتي في حياتي »

فاجابته مس الن قائلة :

« في الساعة العاشرة من هذه الليلة في منزلي الصيفي »

وبعد ان تلقى هذا الجواب ذهب الى النادي وجرت تلك الحادثة التي بسطناها بينه وبين السير جيمس المتنكر بشكل اسباني توجه النادي في الساعة التاسعة على ان يعود اليه في الساعة الاولى بعد انتصاف الليل كي يجتمع بالاسباني .

وقد خرج في مركبته فذكر ما سمعه في النادي بشأن الشاب عثمان فعاوده الشك وجعل يحدث نفسه فيقول :

ترى لماذا هذا الرجل يحميني وما هذه العلائق السرية التي له مع النور .

وقد عاد الى التفكير بالطبيب بولتون وبذلك الوشم الذي محاه عن كتفه وبسنيليا وعلى الجملة فقد عاوده الشك القديم ولكنه لم يخجل هذه المرة بل قال في نفسه :

اذا اثبت لي اني ابن النورية فاني اسافر سفراً لا ارجع منه واجعل ليونيل وريثي .

وما زالت المركبة تسير به حتى وقفت عند باب منزل الن الصيفي فدخل وهو خافق القلب فانه سيضحي اعظم تضحية يضحيها قلب انسان .

ولما دخل اليها ضبط قلبه وقال لها .

اسألك المغفرة يا سيدتي فقد مضى عشرة ايام دون ان اخبرك بشيء من امري

فأطرقت رأسها الى الارض وقالت وأسفاه لقد فهمت ايها المركيز فارتعش وقال ماذا فهمت ؟

فأجابته بصوت منخفض متقطع قائلة :

لقد فهمت انك لا تحبني .

قال انك مخطئة فاني احبك اليوم كما كنت احبك من قبل واذا كنت اليوم اضحي هذه التضحية العظمى فلأن رجلا اخلق مني بحبك .

وهنا توقف اذ رأى ان الن تكاد ان تسقط عن كرسيها ثم تجلد وقال لها :

ان ليونيل يحبك ؟ قالت اني اعلم .

وانه يحبك حبا لا يوصف — ولكني احبك .

— وان ليونيل اخي .

فتكلفت الانذهال العظيم كأنها لم تكن عارفة بشيء من هذا وقالت له ليونيل اخوك ؟

قال نعم انه ابن اللورد اسبرتهون الاصغر وهو فتى جميل وسيكون غنيا لاني ساقاسمه ثروتي فلا بد ان تكوني امرأته وسيعقد قرانكما بعد ثلاثة ايام في كنيسة قصرنا .

فصاحت الن صيحة قنوط والقت نفسها بين زراعي المركيز كأنها اغمي عليها .

وعند ذلك فتح الباب ودخلت خادمتها فقال لها المركيز بصوت يتهدج :

احليها الى غرفتها وعالجيها حتى تستفيق فان قواي قد تلاشت ولا استطيع الوقوف امامها .

وخرج وهو يشهق بالبكاء ويقول :

رباه لقد تمت التضحية فهبني من لدنك قوة تعينني على التجلد فان الانتحار حرام .

حتى اذا سارت به المركبة استفاقت الن من اغمائها فأطلقت سراح الخادمة ثم جعلت تبتسم وتقول :

اظن الان ان المهمة قضي معظمها فان السير روبرت حين يعود يجدني زوجة ليونيل .

اما اللادي سيسل فستكون معي لا علي لانها تعتقد الان

ان روجر ولدها وهي لا ترى رأي ولدها من ان النورية لا يجب ان تكون امرأة اللورد فلا تعترض في زواج تتوقف عليه حياة ولدها

ومتى تم عقد الزواج يسهل علي اقناع روجر انه ابن سليبتيا وهو من اهل المروءة والكبرياء فلا يرضى بعد ذلك ان يتمتع ساعة للنيب ثروته هنا لسواه ويتنازل عن حقه لليونيل فاصبح المركيز دي اسبرتهون .

رباه هي تناجي نفسها بهذه المطامع انصتت مصغية اذ خيل لها انها تسمع وقع خطوات ففتحت النافذة بسرعة واطلت منها ولكن الظلام كان حالكا فلم تر احداً فقالت في نفسها :

لا شك ان الذي سمعته كان خفيف الشجر او صوت مسير قارب في النهر .

وبعد فما هذا الجنون ومما اخاف اذا كان جان دي فرانس قدمات

٩

عاد المركيز روجر الى نادي احسان فوجد الاسباني ينتظره فاتفقا على اللعب بالشطرنج وتراهن اعضاء النادي واقترح الاسباني ان لا يحضر لعبهما احد ثم دخل مع المركيز الى غرفة فاقفلا بابها وجلسا بجوار نافذة مقفلة تطل على مشرف يشبه الرواق

وقد وضعا الشطرنج بينهما على مائدة وقال له الاسباني :

لقد تعودت ان اشرب كأساً من الخمر خلال اللعب فهل توافقني على ذلك ؟

قال دون شك وملأ كأسين من زجاجة امامهما فشرب كل منهما نصف كأسه وبدأ اللعب .

وكان الاسباني متختما بخاتم من الياقوت بخنصر يده اليمنى .

فبينما هو ينقل رقاع الشطرنج سقط خاتمه الى الارض التي كان فيها المركيز فانحنى المركيز ليلتقطه واغتنم الاسباني هذه الفرصة فألقى في كاس خصمه حبة سوداء لم تلبث ان امتزجت بالخمر حتى ذابت فيها .

ثم اخذ الخاتم شاكرا فقال له المركيز اتعلم لماذا رضيت ان الاعبك بالشطرنج ؟

قال دون شك فاننا سنتحادث بشان السير جيمس ابن عمك فاعلم ان الامير كبير انقذوه . قال لقد اخبرتني بذلك

– واني لقيته حين كنت بمعسكر الجنرال جاكسون فتعرفت به وعهد الي بمهمة لديك – ما هي هذه المهمة ؟

– انه يريد ان يعود الى انكلترا – انها جريمة من هذه الاقمى .

– ولكنه نادم اشد الندامة لاساءته اليك – وانا آسف لاني لم اقتله كما يقتلون الذئاب .

فهم ان يجيبه وعند ذلك فتحت النافذة فجاة وهب هواء شديد اطفأ المصباح فقام الاسباني لينير المصباح من المشرفة ونهض المركيز يحاول اقفال النافذة فلم يلتبه احد منهما الى يد مدت من تلك النافذة فابدلت موضعي الكاسين بحيث وضعت كاس المركيز امام الاسباني وكاس الاسباني امام المركيز

ثم اضيء المصباح واقفلت النافذة وعادا الى الحديث فقال المركيز :

لقد قلت لي ان السير جيمس ندم على ذنوبه وانه يريد العودة

الى وطنه . قال نعم واني اكفل صدق توبته وندمه .

قال لا اشير عليك ان تكفل شيئاً فانه اذا عاد الى لندرا حاكمته ويحكم عليه بالاعدام واني اشرب الان نخب هذه الساعة

ثم اخذ كأسه وشرب ما فيه جرعة واحدة واقتدى به الاسباني فشرب كل كأسه جرعة واحدة وعادا الى اللعب

وكان الاسباني ماهراً في الشطرنج فتغلب المركيز وقام المركيز وفتح باب الغرفة وقال للذين راهنوا معه يسؤني ان اخبركم بأنكم خسرتم معي .

فدفع الخاسرون وقبض الرابحون واعجب الحاضرون بمهارة الاسباني

وعند ذلك دخل عشر جديد الى النادي فقال واحد من الحضور هوذا النائب عثمان عاد الينا بعد الهجر الطويل فحياهم عثمان وقال نعم لقد علمت انه جرت مراهنة عظيمة في الشطرنج .

فأشاروا الى الاسباني وقالوا نعم هذا هو الرابح

فقال عثمان احق ما تقولون أهو الدون بيدرو فقال له الاسباني اتعرف اسمي ؟

قال لا يوجد في لندرا من لا يعرفك فهل تريد ان تشرفني بملاعبتي بالشطرنج ؟

وكان الاسباني يود الانصراف وهو ينظر من حين الى حين نظرة الفاحص الى المركيز فاجاب عثمان قائلا لقد فات الاوان ياسيدي فاننا في ساعة متأخرة من الليل .

فقال له عثمان ان من كان من سلالة فرنند كورتس لا يخاف

ملاعبة هندي مسكين مثلي .

فقال الجميع نعم هذا محال فان الدون بيدرو من اعظم اللاعبين وقد الحوا عليه بالقبول فلم يجد بداً من الامتثال وقال لعثمان اني رهين امرك ياسيدي .

فقال عثمان انك لاعبت خصمك منذ هنيهة دون شهود قال هو ذاك .

قال اما انا فأوثر ان يكون لكل منا شاهد فاختر شاهدك من بين الحضور .

فاختار الاسباني الصراف مكسويل وهو الذي ادخله الى النادي واختار عثمان المركيز روجر فتراهن الحاضرون ودخل الاربعة الى قاعة اللعب فقال الاسباني في نفسه :

يخال لي ان هذا النوري الذي خيب كل آمالي قد عرفني وقد شعر بدوار خفيف حمله على محمل الاضطراب من مقابلة جان

اما جان فانه اقفل الباب بالمفتاح من الداخل وجلس في المكان الذي كان المركيز جالساً فيه وبدأ اللعب

فقال جان مخاطباً الصراف انه اذا رضي الدون بيدرو ان يلاعبني كل ليلة فلا يمضي زمن وجيز حتى ينقد ما له في مصرفكم من المال .

فابتسم الاسباني وقال سوف نرى

فقال جان ولكن الوقت لا يسمح له لسوء الحظ

فاضطرب الاسباني وقال كيف ذلك ؟

قال ذلك ان المرء لا يعلم كم يفسح الله في اجله وفوق ذلك

فقد درست شيئاً من الطب .

فزنشد اضطرابه وقال اتعني اني مريض ؟

– بل اعني انك في اشد حالات الخطر من مرضك .

– وانا ارى انك تلاعبني على الطريقة الهندية .

– كيف ذلك – ذلك انك تحاول اخافتي .

– كلا فاني اراهن انك تشعر الان بحرارة شديدة في صدرك لا تقدر [illegible] تلعب يا سيدي .

– [illegible] ولكني اخاف ان لا تستطيع اتمام اللعب فقد بدأ وجهك يصفر وهذا الاصفرار من تأثير الخمر التي شربتها فهل هي جيدة

– انها من افضل الخمر .

– اتحسبها جيدة بالرغم عن تلك الحبة السوداء التي وضعتها في الكأس .

أرى انك تشبه المجانين .

– ما انا المجنون بل انت فانك غلطت في الكأس ايها السيد العزيز ولم يكد جان يتم حملته حتى صاح الاسباني صيحة الم فاصفرت شفتاه وحاول ان ينهض فمنعه جان عن النهوض وقال ابق في مكانك فان الموت على هذه الكرسي خير لك من الموت في الطريق

فصعق الاسباني وجعل ينظر الى جان نظرة المأخوذ والصراف والمركيز ينظران الى الاثنين منذهلين وهما لا يفهمان شيئاً من هذا الحديث .

وعند ذلك التفت جان الى المركيز وقال له اعلم ياسيدي ان هذا الرجل الذي اراد تسميمك وهو يلاعبك فوضع في كأسك

www.liilas.com/vb3
ARAYATHENA

هما هنديا يقتل شاربه بساعة .

قال ماذا تقول ؟

قال اقول الحق فانظر الى هذا الاسباني الكاذب كيف ان اعضاءه تتشنج من الالم ولكن اتفق لحسن الحظ انه بينما كان يدير الصباح الذي اطفأه هواء النافذة مدت يد من وراء تلك النافذة فوضعت كأسك موضع كاسه بحيث شرب الدون بيدرو بكأسك المسمومة .

فصفر وجه روجر وقد رأى تأثير السم بدأ على وجه الاسباني فقال ولكن اية فائدة لهذا الرجل من قتلي واذا لا اعرفه ولم اسيء اليه

فلم يجبه جان بل التفت الى الصراف وقال له ان المال المودع في مصرفكم باسم الدون بيدرو قد دفعتموه لهذا الرجل اليس كذلك ؟

قال نعم .

قال اذن فاعلم ان الدون بيدرو قتل منذ شهرين وان الذي انتحل اسمه انما هو هذا الرجل .

حاول الاسباني ان ينهض ولكنه لم يستطع اذ كان قد دخل في دور النزاع فدنا جان منه فنزع الشعر المستعار عن رأسه ولحيته وقال للصراف انظر .

فبهت الصراف وصاح المركيز قائلا السير جيمس .

فقال له جان ان الموت قد مر بك ايضا ايها المركيز .

ثم فتح تلك النافذة التي مر به الهواء فاطفأ المصباح ونادى تعال ياويلس .

فدخل من النافذة ويلس خادم السير جيمس ودنا من سيده وهو يحتضر فقال له بكل البساطة .

يسؤني يا سيدي ان اراك تموت ولكن الخمسمائة جنيه التي قبضتها من هذا الهندي الكريم افضل منك فانها تضمن لي العيش بسلام ولذلك بحت بسرك .

غير ان السير جيمس لم يفقه كلمة من حديثه فقد كان يحتضر وبعد هنيهة فاضت روحه وسقط الاثر فدنى جان من الصراف والمركيز وحاول الانصراف [illegible] وقال له اما هي يدك التي غير [illegible]

قال ربما - اذن [illegible]

فدنى جان ولم [illegible] منه ذلك منجيبني اذن على اسئلتي .

قال كلا .

اريد ان اعلم على الاقل لمن انا مدين بهذه الحماية السرية التي اريد افهمت ... واذا ابيت ان اقول .

- اني اعرف عن ذلك كيف اكرهك على التصريح

فابتسم جان ابتسام المطمئن وقال له :

لقد كان ابن عمك السير جيمس يزاحمني في امرأة هواها وقد اختطفها مني فاستعنت منه بانقاذك .

ثم انسحب من النافذة مقتفيا اثر الخادم فتوارى في الظلمات .

اما روجر فانه وضع يده على جبينه وقال انه كذب نعم اذ

معاً هندياً يقتل شاربه بساعة .

قال ماذا تقول ؟

قال اقول الحق فانظر الى هذا الاسباني الكاذب كيف ان اعضاءه تتشنج من الالم ولكن اتفق لحسن الحظ انه بينما كان ينير المصباح الذي اطفأه هواء النافذة مدت يد من وراء تلك النافذة فوضعت كأسك موضع كاسه بحيث شرب الدون بيدرو كاسك المسمومة .

فاصفر وجه روجر وقد رأى تأثير السم بدأ على وجه الاسباني فقال ولكن اية فائدة لهذا الرجل من قتلي وانا لا اعرفه ولم اسيء اليه

فلم يجبه جان بل التفت الى الصراف وقال له ان المال المودع في مصارفكم باسم الدون بيدرو قد دفعتموه لهذا الرجل اليس كذلك ؟

قال نعم .

قال اذن فاعلم ان الدون بيدرو قتل منذ شهرين وان الذي قتله وانتحل اسمه انما هو هذا الرجل .

فحاول الاسباني ان ينهض ولكنه لم يستطع اذ كان قد دخل في دور النزاع فدنا جان منه فنزع الشعر المستعار عن رأسه وحيته وقال للصراف انظر .

فبهت الصراف وصاح المركيز قائلا السير جيمس .

فقال له جان ان الموت قد مر بك ايضا ايها المركيز .

ثم فتح تلك النافذة التي مر به الهواء فاطفأ المصباح ونادى قائلا تعال ياويلس .

فدخل من النافذة ويلس خادم السير جيمس ودنا من سيده وهو يختلس فقال له بملء البساطة .

يسؤني يا سيدي ان اراك تموت ولكن الحمسينة جنيه التي قبضتها من هذا الهندي الكريم افضل منك فانها تضمن لي العيش بسلام ولذلك بحث بسرك .

غير ان السير جيمس لم ينقه كلمة من حديثه فقد كان يحتضر وبعد هنيهة فاضت روحه وسقط الاربعة فتحنى جان امام الصراف والمركيز وحاول الانتصار [illegible] المركيز على [illegible] وقال له اما هي يدك التي غيرت [illegible] .

قال ربما — اذن ان [illegible]

فانحنى جان ولم [illegible] اجيبني اذن على اسئلتي .

فقال كلا .

اريد ان اعلم على الاقل لمن انا مدين بهذه الحماية السرية التي اريد افهمت — واذا ابيت ان اقول .

— اني اعرف عند ذلك كيف اكرهك على التصريح

فابتسم جان ابتسام المطمئن وقال له :

لقد كان ابن عمك السير جيمس يزاحمني في امرأة هواها وقد اختطفها مني [illegible] بانقاذك .

ثم [illegible] من النافذة مختفيا اثر الخادم فتوارى في الظلمات .

اما روجر فانه وضع يده على جبينه وقال انه كذب نعم اذ

كاذب في ما قال .

. . .

قبل ذلك بساعة كانت مس الن قد استفاقت من اغمائها الكاذب فجعلت تبتسم هازئة بمروءة المركيز الذي ضحى نفسه من اجل اخيه وقد سمعت خطوات كانت تقدم ففتحت النافذة واطلت منها فلم ترى ما يحمل على الريبة فعادت وهي تلوم نفسها وتقول :

ترى ممن اخاف وقد مات جان دي فرانس .

ولكنها لم تكد تتم جملتها حتى فتح الباب فذعرت ذعراً عظيما اذ رأت شمشون يصحبه نوري آخر وسينيتيا اخت جان وحاولت ان تأخذ غدارة معلقة بالجدار ولكن شمشون كان اسرع منها اليها الى الغدارة فقبض وكم النوري الاخر فمها واوثقت سينيتيا يديها فحملها شمشون وخرج الجميع بها وهي شبه مغمى عليها لاضطرابها لا تدري الى اين يذهبون بها .

واما ليونيل فقد كان تأثره شديداً من مروءة اخيه حين قال له انك تحب مس الن وستتزوجها وكان سروره عظيما حين عرف حقيقة نسبه وايقن انه عظيم الاشراف .

وفي اليوم التالي ذهب الى اخيه فلم يجده ولكنه كان قد ترك له رسالة يقول له فيها اني مهتم بتحقيق سعادتك فلا تجزع وكن من الصابرين .

وقد عاد في الليل الى اخيه فلم يجده وفي صباح اليوم التالي ضاق صدره ولم يعد يطيق الصبر فذهب الى منزل السير روبرت فطرق الباب وجاءه خادم فقال له سل مس الن اذا كانك تريد ان تقابلني

فقال له الخادم انها لو كانت هنا يا سيدي لما كانت استفاقت الآن

- ماذا تقول أما هي هنا - كلا يا سيدي

- اذن اين هي لقد وردت اليها رسالة مساء امس فركبت مركبة وذهبت بها .

- من اين اتت هذه الرسالة ؟

- لا ادري ولكن الذي جاء بها كان احد خدم المركيز دي اسبرتهون فخطب ليونيل حاجبيه وقال الى اين ذهبت ؟

- اظن انها ذهبت الى منزلها الصيفي .

فاضطرب ليونيل حتى انه لم يعد يدري ما يصنع وقبض على ذراع الخادم فقال له انك ستذهب بي الى هذا المنزل فاني لا اعرف مكانه .

فلم يسع الخادم مخالفته اذ كان يعلم ان له منزلة سامية عند السير روبرت وذهب واياه الى ذلك المنزل فأخبرته الخادمة ان رجلين وامرأة قد اختطفوها في الليل فهاج ليونيل هياج المجانين اذ ايقن ان اخاه قد اختطفها بدليل الرسالة التي ارسلها اليها وعاد مسرعا الى اخيه فقال له وهو يتوهج من الغضب .

انك خدعتني شر خداع .

فتراجع المركيز منذهلا وقال له ليونيل نعم انك اختطفت مس الن لتجعلها خليلتك .

فصاح المركيز وقد بلغ منه الانذهال اشده قائلا مس الن .. هل اختطفوا مس الن

قال انك تعلم من ذلك فوق ما اعلم فانت الذي ...

فقبض المركيز على ذراعه وقال له انك تتكلم من غير عقل وانا امنعك عن ان تتهمني هذه التهمات الشائنة .

وكانت لهجة المركيز تدل دلالة واضحة على صدقة فقال له ولكن من الذي اختطفها ؟

قال اوضح لي ايها المنكود ما جرى بدلا من ان تتهمني

قل ... ماذا جرى ؟

قال جرى انهم في الليلة الماضية اختطفوا مس الن من منزل الن الصيفي

ـ من الذي اختطفها ؟

ـ رجلان وامرأة وسمعت الخادمة ذينك الرجلين يدعوان المرأة باسم سينيتيا .

فارتعش المركيز حين سماعه هذا الاسم وقال لاخيه اذهب فسأجدها .

وكان الخادم الذي دل لبونيل على منزل الن الصيفي قد دخل معه الى غرفة المركيز فارتعش ايضاً حين سمع اسم سينيتيا وقال اذا كانت هي تلك المرأة التي عرفتها فاني اعرف اين توجد .

ـ اتعرف اين هي سينيتيا ؟

ـ نعم بشرط ان تكون تلك النورية التي عرفتها .

فلمس المركيز قبعته وقفل حسامه وحاول لبونيل ان يتبعه فأوقفه وقال له :

اني اقسم لك يا خي بشرفنا ان ابينا اني رجعت عن حب مس الن ولم اعد احبها الا كأخت وسأفرغ كل مجهودي لتكون امرأتك

قال لقد وثقت بك فدعني اذهب معك .

قال اني لا اجدها الا اذا كنت وحدي فثق بي واني اؤوب اليك ان لا تتبعني .

فتردد لبونيل وقال له المركيز استحلفك بالله ان لا تتبعني فاطرق برأسه وقال ليكن ما تريد .

وسار المركيز يصحبه الخادم وكان يسير مستعجلا والخادم في اثره لا ينبث بحرف حتى اذا وصلا الى زقاق ضيق كثرت فيه الوحول قال الخادم يخال لي ان الليلة التي اختطفنا فيها سينيتيا .

فقاطعه المركيز قائلا أأنت اختطفتها ؟

فاحمر وجه الخادم ولم يجب فقال له المركيز بلهجة المتوعد: قل

قال اني اخاف يا مولاي ان تطردني مس الن اذا تكلمت .

ـ لا خوف عليك فاني استخدمك .

ـ اذا كان ذلك فاعلم يا مولاي اني اختطفت سينيتيا النورية بمشاركة زميلي نوح وامرأة هندية تبيع السموم ـ متى ؟

ـ منذ ثلاثة عشر يوماً . فداختطفناها بينما كانت تسير في هذا الزقاق .

لماذا اختطفتموها ـ لا اعلم فقد كان ذلك بامر السير روبرت ومس الن .

ـ مس الن ... اهي التي امرتكم باختطافها ـ نعم يا مولاي

ـ الى اين ذهبتم بها ؟

ـ الى منزل السير روبرت الصيفي وحين قبضنا عليها كانت خارجة من منزل الطبيب بولتون .

فقال المركيز في نفسه : بولتون ... مس الن . ما هذه

الاسرار ثم قال للخادم : امض في حديثك واخبرني بكل ماتعلم

قال اننا حبسنا سينيتيا في منزل مس الن مدة يومين وفي المساء جاءت مس الن وقالت لها تعالي فان حياة ابنك في خطر .

فجعل العرق يسيل من جبين المركيز وقال له هل تبعتها قال نعم فقد ركبت واياها مركبة ولم ادر الى اين ذهبتا فان زميلي نوح كان يقود المركبة - والان كيف ترجو ان تجد سينيتيا .

- لظني انها عادت الى منزلها - هذا المنزل ؟

- يجب ان يكون هنا في زاوية هذا الزقاق . نعم لقد عرفته فهذا فهو .

وقد سار به حتى اوصله الى المنزل فقال المركيز اذهب الان فلم يعد لي بك شأن .

ثم طرق الباب ففتحت له فتاة حسناء تبلغ السادسة عشر من العمر فحياها المركيز وسألها قائلا هل سينيتيا هنا ؟

فنظرت الفتاة نظرة حذر الى الشارع واجابته قائلة انك واهم ياسيدي فلست اعرف سينيتيا .

وكان المركيز قد رأى ماكان من حذرها فقال لها وهو يبتسم لا تخافي يا ابنتي فاني صديق وان عثمان ارسلني .

ففتحت الباب وقالت ادخل يا سيدي فان سينيتيا في الغرفة العليا مع اختي .

قال يجب ان اقابلها وحدها .

قالت اذن تفضل بالانتظار الى ان اخبرها .

وبعد هنيهة جاءته سينيتيا فخفق قلبها حين رأت ولدها وبادرها

المركيز بقوله هل انت التي تدعين سينيتيا ؟

قالت نعم - قال أأنت التي تقولين انك امي ؟

فاصفر وجهها ولكنها تمكنت من ضبط نفسها فقالت له التمس من فخامتك معذرتي اذ يظهر اني كنت مجنونة فقد كنت في الطريق حين رأيتك عائداً من اميركا فذكرت حين رأيتك ولداً فقدته كان يشبهك اتم الشبه فاشتد بي الحزن حتى اصبت بذلك الجنون .

وكانت تكلمه بلهجة المتوسل ويرى المركيز من اضطرابها ان عوامل خفية تتنازع في قلبها فقال لها :

اقسمي لي بالمسك وبأرواح آبائك انك تقولين الحق وانك لست امي .

فرفعت يدها الى السماء وفتحت فمها كي تقسم ولكن يدها سقطت على ركبتها واطبق فمها دون ان تستطيع الكلام .

فصاح ورجر قائلا نعم انك امي . انكرينني وانا ولدك .

فنسيت المنكودة عند ذلك ايمانها ونسيت عهودها لاخيها ولم تعد تذكر غير امر واحد وهو ان هذا الفتى الجميل الذي يملأ العين قرة وهذا القائد الباسل الذي لا يتحدثون الا ببسالته انما هو ثمرة احشائها فصاحت صيحة حب لا تدركها غير الامهات والقت نفسها بين يديه وهي تقول ولدي ولدي .

. . .

ولنعد الآن الى مس الن فانهم بعد ان قيدوها وكموها خرجوا بها الى قارب كان راسياً عند الشاطيء فعفر في المياه الى

سفينة كبيرة وهناك اصعدوا الاسيرة اليها ونزعوا الكمامة عن فمها فقالت لها سينيتيا :

لقد دنت ساعة عقابك يامس الن وانت التي ستتولين الحكم على نفسك . قالت ان هذا الكلام مبهم لا افهمه .

قالت سوف تفهمينه فانك انت هنا الان في سفينة ستسافر بعد غد صباحاً فاختاري بين ان تسافري فيها وبين ان تعودي الى لندرا .

قالت اني لا اجد الاختيار صعباً .

ـ اتحسبين ـ دون شك فاني لا اريد السفر الان .

ـ انك اذا بقيت في هذه السفينة تسافر بك الى امير كاوهناك يضمنون لك عيشاً رخياً شريفاً .

فأجابتها بلهجة الساخر قائلة هذا هو اقتراحك الاول قد عرفناه فلننظر الى اقتراحك الثاني .

قالت واذا ابيت ان تسافري نعود بك الى لندرا .

ـ وبعد ذلك ؟

ـ يحاكمونك امام محكمتنا الخاصة وينفذ فيك العقاب الذي يحكمون بـه فتمعني .

ـ لا حاجة الى التمعن ـ اذن تسافرين .

ـ كلا ـ اتؤثرين المحاكمة ـ والعقاب ؟

فتنهدت سينيتيا واشارت الى ربان السفينة فدنا من الن وقال لها :

انك اسيرتي ايتها السيدة الى مساء غد فتفضلي واتبعيني .

قالت سر اتبعك . ثم قالت في نفسها انى لا اعدم وسيلة

لالقاء نفسي في النهر فاني اجيد السباحة .

وقد سجنوها في غرفة لانافذة فيها الى البحر فلم تيأس وقالت سنرى في الغد ما يكون .

ونامت ليلتها وعند الصباح دخل اليها غلام بحر بالطعام فطمعت باغوائه لما رأته من ظواهر بساطته وقالت له :

هل تريد ان تكون من الاغنياء ؟

فابتسم وقال دون شك فاذا يجب ان اصنع .

قالت لا شيء سوى ان تساعدني على الخروج من هذه السفينة

فضحك الغلام وقال ان الربان يشنقني في صاري السفينة بالسلام عليك ايتها اللادي .

ثم وضع صينية الطعام امامها وخرج فاقفل الباب فلم تجزع ولم تقنط وكان مثلها مثل مريض لا يزال يرجو الشفاء ويعد معدات المستقبل ولو رأى الموت ماثلا لدى عينيه ولذلك فانها اكلت بملء الشهية ثم وجدت كتاباً في تلك الغرفة فجعلت تتلهى بالقراءة فيه كأنها آمنة مطمئنة في منزلها .

ولبثت على ذلك الى ان حان وقت العشاء فجاءها البحار بالطعام ولكنه لم يكن وحده هذه المرة فارتعشت الن حين رأته وقالت له لاشك انك قادم الي بنبأ جديد فأجابها بلهجة الحزين قائلا اني قادم لارى رأيك الاخير فقد كنت عازماً على الرحيل صباح غد ولكني وجدت الرياح موافقة للسفر وستقلع السفينة بعد نصف ساعة .

فاصفر وجهها وقالت انك ستنزلني الى البر فيما اظن .

قال ذلك منوط بك فقد تركوا لك الخيار .

قالت وانا اخترت البقاء في لندرا .

- انك مخطئة فاني نوري مثل شمشون وجان دي فرانس الذي قتلته ومثلك . اني عارف بتاريخك فانك عدوتنا اللدودة ولكن مجلس طائفتنا اشفق على شبابك فاذا شئت ذهبت بك الى الانتيل او الى لويزيانا - كلا كلا لا اريد الذهاب .

- يظهر انك لا تعلمين ما ستلاقينه من العقاب اذا بقيت .

- بل اني عالمة فان النوريريدون حبسي في احد السجون المظلمة

- ربما

- ولكن يوجد رجلان يحباننني وكلاهما غني باسل وسيعرفان كيف يخرجانني من سجني .

فهز الربان رأسه وقال اذن لا تريدين السفر - كلا .

- لم يبق لك غير ربع ساعة للتمعن فان رجالنا قادمون الى السفينة .

- ليعودوا بي الى لندرا اليس كذلك - اظن .

- اذن سأستفيد من هذه المهلة لاتعشى .

فخرج الربان وهو يقول في نفسه اني لم اجد اجرأ من هذه الفتاة وجلست وهي تأكل وتقول :

ان روجر وليونيل يبحثان عني وجان دي فرانس قد مات فلا اقنط ولو اجلسوني على النطع .

وبعد ان فرغت من طعامها عاد اليها الربان فقال ماذا ارتأيت فقد دنا وقت السفر .

قالت لم ارجع عن عزمي واني ادعو لك بالسفر السعيد .

قال انك مخطئة يا توبسي فاعلمي اني لك من الناصحين .

فألقت وشاحها على كتفيها وقالت لقد حضر الجلادون دون شك فسر بي اليهم .

فأصعدها الربان من جوف العنبر الى سطح السفينة .

فرأت رجلين بملابس السواد وهما مقنعان فضحكت ضحك الساخر وقالت اية فائدة من التقنع الغلي لا اعرفكم فأين القارب هلموا بنا اليه .

فدنا منها الربان وقال لها اني اتوسل اليك ياتوبسي ان تسافري فذلك خير لك . قالت كلا فاني اريد العودة الى لندرا .

فتنهد وقال لقد فعلت ما علي فليفعل الله ما يشاء .

وعند ذلك عصبوا عينيها وانزلوها الى القارب فساروا بها نحو نصف ساعة ثم نزعوا العصابة عن عينيها ونظرت الى البر فلم تجد اثر المنازل ولكنها رأت على الشاطىء رجلا يمسك اعنة اربعة جياد فقالت في نفسها يظهر اننا سنركب الجياد فالى اين يريدون ان يذهبوا بي ؟

وقد اخرجوها من القارب الى الشاطىء حيث كانت الجياد فناداه احد الرجال المقنعين وقال له هل لك ما تقوله لي ؟

قال نعم فسنجد اخوانا لنا في الطريق .

فاضطرب الن وقالت الا نعود الى لندرا ؟

قال اننا ثلاثة رجال سنصحبك وقد تلقينا الامر بقتلك اذا حاولت الفرار وقد كان بوسعنا ان نقيدك فوق ظهر الجواد ونربطك الى السرج كالاكياس ولكننا نؤثر ان تركبي مثلنا فاركبي

فلم تجد بداً من الامتثال فركبت الجواد وركب الثلاثة يخفرونها فلم يسيروا بضع خطوات حتى يأست الن من الفرار اذ وجدت جوادها يشبه البغال .

وبعد ساعة من سيرهم وصلوا الى غابة وهناك صفر احد الثلاثة فاجيب بصفير مثله ثم اقبل ثلاثة فرسان من الغابة فانضموا اليهم واستانفوا السير فساروا ساعة ثم التقوا بثلاثة فرسان آخرين فانضموا اليهم وكانوا كل ما التقوا بكوكبة من اولئك الفرسان يتبادلون اقوالا مبهمة لم تكن الن تفهم شيئا من معانيها فاشتد خوفها على بسالتها حتى انها ندمت لمغادرتها السفينة .

وما زالوا يسيرون الى ان صاح الذي كان يتقدمهم قائلا قفوا وترجلوا عن الجياد ودنا اثنان من الن فامسك كل منهما باحدى يديها فسارا بها في زقاق ضيق والرفاق في اثرهم ربع ساعة حتى انتهوا الى مكان رأوا فيه نوراً يضيء فقال رعيمهم لقد دخلنا .

فرجف قلب الن وقالت هنا !

قال نعم فاننا فقراء كما تعلمين وليس لنا قصور نجعل فيها محاكمنا .

فاشتد رعبها وقالت محكمة !

قال دون شك اتحسبين اننا نعاقبك دون محاكمة ثم جرها بعنف الى مكان ذلك النور فرأت ناراً مشبوبة عند باب مغارة ودخلوا بها الى هذه المغارة فرأت كثيراً من الرجال متربعين على الارض وكلهم مقنعين ثم رأت رجلا وقف وقال لقد تكامل عددنا الان .

فارتعدت الن حين سمعت هذا الصوت كأنها عرفته واستأنف الرجل حديثه فقال مخاطباً الفتاة .

ان صبر الذين خنتهم يامس الن قد نفد وانتزعت الرحمة من قلوبهم ومع ذلك فقد عرضنا عليك الحرية ولو رضيت ان تسافري الى اميركا لاعطيناك ثروة ولكنك لم تقبلي .

فصاحت بصوت ملؤه اليأس قائلة رباه أنشر من في القبور ؟

وعند ذلك كشف الرجل قناعه وسقطت الن على ركبتيها اذ رأت جان دي فرانس فقال لها :

لاحاجة الى تعداد جرائمك ياتوبسي فانك تعرفيها وقد اتت ساعة عقابك فاننا اخترنا اربعة وعشرين رجلا منا لمحاكمتك وسيقذ حكمهم لا محالة فلا تطمعي بالعفو .

ثم نظر الى اعضاء المحكمة وسأل رجلا كان واقفاً على يمينه فقال اي عقاب تستحق هذه المرأة ؟

فأجابه الرجل دون تردد قائلا ـ انها تستحق الموت .

فصاحت الن قائلة أأموت وانا في العشرين من عمري .

فقال لها جان اترضين ان نشوه وجهك وتعيشين .

قالت كلا فاقتلوني ... اقتلوني .

وعند ذلك سمع صوت عند باب المغارة يقول بلهجة ملؤها السيادة .

بل انك تعيشين ويبقى جمالك عقاباً لك .

فالتفت الجميع الى هذا الرجل فلم يعرفوه اذ كان مقنعاً وصاح جان قائلا ألعلهم خانونا فمن هذا الرجل ؟

فمشى الرجل اليه فوضع يده على كتفه وقال له بصوت منخفض اني ادعى اميري ويحق لي ان احكم عليكم فاني ملككم .

ثم كشف قناعه ورده الى وجهه مسرعا بحيث لم يره غير جان فانحنى امامه بملء الاحترام وقال مر أطع فقال له مر رجالك ان يبتعدوا .

قال كلهم ـ قال ماخلاك وهذا الرجل الضخم مشيراً الى شمشون فنظر جان اليهم وقال لهم ايها الاخوان ان اميرنا الاكبر يأمركم ان تخرجوا ـ فخرج الجميع ممتثلين ولم يبق في المغارة غير جان وشمشون والن وهذا الرجل .

وعند ذلك كشف الرجل قناعه فصاحت الن قائلة روجر .

وقال شمشون المركيز دي اسبرتهون .

فقال المركيز كلا بل اميري النوري ابن سينيتيا وزعيم الطائفة الاكبر .

ثم التفت الى الن وقال لها ان هؤلاء الرجال ارادوا قتلك وانا عفوت عنك ولكني ما عفوت الا بشرط ان تبرحي لندرا في هذة الليلة وان تذهبي الى السير روبرت في ايكوسيا وان ترجعي عن فكرة الزواج بليونيل .

فأطرقت رأسها دون ان تجيب والتفت روجر الى شمشون فقال له وانت فاذهب بهذه الفتاة ولا تفارقها الا عند باب منزل السير روبرت والويل لك اذا اصبت بسوء .

فأخذ شمشون بيد الن وخرج بها من المغارة ونظر روجر الى جان بفتور وقال له ـ لنتحدث الان .

الرحيل

. . .

قال المركيز لجان حين خلا به في المغارة هلم نتحدث ايها النائب عثمان فقد عرفت الان كل شيء فانت جان دي فرانس وانك خالي اي اخو امي سينيتيا .

ان امي اخبرتني بكل امري وكيف انك تجاسرت وجعلتني من اعظم اشراف الانكليز وانك وبلتون كنتما كاذبين حين اوهمتما الاعيان في الجمعية السرية ان سينيتيا مجنونة بل انك كذبت علي حين قلت لي اني ابن اللورد اسبرتهون الشرعي فلماذا ؟

قال انك ما زلت عرفت سر مولدك فلا بد لي من ان اخبرك بتفصيل ما جرى .

ثم قص عليه كل حكايته وكيف انه كان ابناً غير شرعي للورد اسبرتهون وكيف ان السير جيمس قتل ولده وهو في مهده بسم الافعى وكيف ان اباه اللورد سرقه كي لا تعود ثروته الى ابن اخيه جيمس لانه كان يعتقد ان ولده الثاني ليونيل مات وكيف انه كان يراقبه الليل والنهار في لندرا واميركا وفي كل مكان ذهب اليه كي يحميه من السير جيمس الى آخرما عرفه القراء من امره .

فلما فرغ من حديثه قال له المركيز انك اذا كنت قد اسأت الي فقد كان شفيعك حسن القصد واني اغفر لك وليلتون هذه الاساءة التي لا تغتفر فانك لو علمت ما اقاسيه الان من العذاب لعذرتني على هذا القول وكفى اني كنت لوردا وقائد فرقة الملك ومن اعظم نبلاء الانكليز ثم وجدت نفسي نوريا لقيطا لا

فرق بيني وبين الخدم .

– ولكنك ابن اللورد اسبرتهون – هل انا ولده الشرعي ؟

– كلا ولكن فات الاوان الان ولم يعد في وسعك ان تدوس تاج المركيزية وتخلع وشاح اللوردية فقد لقينا في هذا السبيل اشد ما يلقاه بشر من العناء واذا كنت ترى ان وجودنا في لندرا يثقل عليك فقل كلمة نبرحها بجملتنا ويبقى سرك محفوظاً مدى الحياة .

فهز روجر رأسه وقال لا تسافرون واذا اردتم السفر سافرت معكم واعلم انه لو كان السير جيمس باقياً في قيد الحياة لخشيت ان يعود اللقب والثروة اليه ولبثت على تنكري .

فقاطعه جان قائلا ولكن ماذا يحدث بهذه الثروة اذا تركتها فانها تعود الى بيت المال .

قال انك واهم بل انها تعود الى وريثها الشرعي اي الى ليونيل ابن اللورد اسبرتهون الثاني فانه لم يمت كما تتوهمون .

فغطى جان وجهه بيده وقال واأسفاه لقد قضى على آمالي .

وعند ذلك ظهر رجل في باب المغارة فصاح الاثنان قائلين هو ذا الطبيب بولتون !

اما بلتون فانه دنا منهما وقال اني اجتزت خمسين ميلا بست ساعات ولكني وصلت قبل فوات الاوان .

فقال روجر ماذا حدث – قال حدث ان عدونا السير روبرت واقف على كل امرنا .

– السير روبرت الم يكن صديق ولدي .

– نعم ولكنه الان عدوك الالد بل انه عدو طائفتك بأسرها

فاني ارى انك عرفت الان حقيقة امري فلم يبق سبيل الى التكتم فاعلم ان السير روبرت يشتغل بملء الجد منذ اسبوعين وقد زار جيم الوردية في ايكوسيا ولندرا وسيتكلم في المجلس الاعلى بعد اسبوع حين افتتاحه .

ماذا يريد ان يتكلم ؟

يريد ان يطلب نفي الثوار من جميع انكلترا وانت ترى اذا كان يوافق ان تتنازل الان عن لقبك لاخيك وتدع هذا الرجل يقضي القضاء المبرم على طائفتك – فأطرق المركيز مفكراً ثم قال :

كلا ان الجندي لا يعتزل الخدمة في يوم القتال وسيرى السير روبرت اني ساكون خير كفوء له في ذلك المجلس فاطمئنوا ايها الرفاق وسأبقى المركيز دي اسبرتهون وقائد فرقة الملك الى ان تزول هذه الاخطار .

ولنعد الان الى البن فقد اوصلها شمشون الى منزل السير روبرت ثم تركها وانصرف فدخلت وهي تقول في نفسها :

لقد نجوت الان وبات روجر يحتقرني ولكن بقي لي ليونيل بشرط ان اجتمع به قبل ان يلقاه روجر .

ولما دخلت الى المنزل وجدت السير روبرت فيه وعلائم القسوة بادية في وجهه فقالت له متى عدت يا عماه .

فاجابها بلهجة ملؤها الاحتقار قائلا :

لقد وقفت على كل مكايدك وعلمت انك تجتمعين برجال طائفتك وبذلك المزور المحتال الذي انتحل لقب المركيز دي اسبرتهون .

ولقد قرأت في الامثال العربية ان اعرابية اختارت جرو

ب وربته مع شاة لها فلما اصبح الجرو ذئباً نسي التربية وافترس الشاة فقالت فيه :

بقرت شويهتي وفجعت قلبي فمن انبـاك ان اباك ذيب ؟

وهكذا انت فقد ربيتك خير تربية وجعلتك من شريفات الانكليز فلما تكامل هدك نسيت التربية ولم تذكري الا انامك الفرية فاعلمي اني لااريد ان تقيمي في منزلي بعد الان وسيعطيك الصراف مكسوبل مبلغاً من المال في كل شهر تنفقينه لاني لا اريد ان تعيشي عيش المتسولين والان خذي هذا .

ثم دفع اليها محفظة فيها اوراق مالية فاخذتها من يده والقتها عند قدميه وهي تقول : اني لا اريد صدقتك ولا شفقة احد

وقد خرجت من ذلك المنزل الذي قضيت فيه كل ايام حداثتها وهي تأنف ان تلتفت الى الوراء .

. . .

وقد وجدت نفسها على بلاط لندرا لا نصير لها ولا معين ولو اصيبت امرأة ببعض ما اصيبت به لبكت بكاء الثكلى ولكن قلبها كان قد صنع من الحديد فكان عزاؤها عن طردها من منزل السير روبرت قولها : ان هذا الرجل قد حلني من قيود الامتنان فبت قادرة ان انهج مع ليونيل كما اشاء :

وكان البرد شديداً في تلك الليله والهواء زمهريراً فمن كان في موقفها التجأ الى احد الفنادق فقد كان لديها شيء من النقود بكيسها ولكنها كانت مجربة تعلم ان الوقت ثمين وان الدقيقة الواحدة

قد تغير مستقبل الانسان بحملته .

ثم انها كانت قد رأت السير روبرت لا يزال في ثياب السفر فأيقنت انه لم يجتمع بعد بليونيل فذهبت مسرعة الى مكان تجتمع فيه المركبات فركبت مركبة وامرت سائقها ان يذهب بها الى الثكنة التي تقيم فيها فرسان الملك وهي تعلم ان ليونيل يبيت اكثر لياليه في الثكنة .

وهناك لقيت حارس الباب وقالت له اني اريد مقابلة الضابط ليونيل في شأن خطير .

قال ان الدخول محظور يا سيدتي ولكنك تستطيعين ان تكتبي اليه . قالت لا حاجة للكتابة اذ يكفي ان تذكر له اسمي

فنادى الحارس احد الجنود فقالت له : قل للقائد ليونيل ان مس الن فالدن تريد ان تراه في الحال .

فانطلق الجندي وبعد هنيهة اقبل ليونيل فصاح صيحة فرح حين رآها وقالت في نفسها انه لم يعلم شيئاً بعد .

وكان ليونيل قد لقي عذاباً شديداً في ذلك اليوم فانه ذهب الى اخيه مرتين فلم يجده ولكن المركيز ارسل له رسالة يقول فيها اني وقفت على أثر مس الن فأقام كل يومه وهو يسير سير الهائمين بين منزل السير روبرت ومنزل اخيه واقبل المساء فلم تعد الن الى منزلها ولم يعد اخوه فبات شبه المجانين .

وكانت واجباته تقضي عليه ان يبيت في الثكنة تلك الليلة فعاد اليها رجعل يشمعن في امره فتارة يثق بأخيه فيطمئن وتارة يعاوده الشك فتقتله الغيرة .

وما زال على ذلك الى ان جاءه الجندي واخبره بان مس الن تريد ان تراه فذهب الى لقائها وقلبه يكاد ان يخرج من صدره لفرحه وقال لها اهذا انت ؟

فمدت اليه يدها وهي في المركبة فقطعها تقبيلا وقالت له : نعم انا هي وانك اذا لم تبادر الى نجدتي كنت من الهالكات فهل تستطيع التغيب عن الثكنة ؟

قال نعم فاني انيب عني احد زملائي .

قالت اذن افعل ايها الحبيب واسرع فان الوقت لا يتسع للامهال

فعاد ليونيل الى الثكنة فكتب رسالة الى صديق له من الضباط يسأله فيها ان ينوب عنه ورجع الى مس الن فصعد الى المركبة بجانبها وقال لها :

ماذا حدث ايتها الحبيبة فانك لا تعلمين مقدار ما لقيت من العذاب .

فقبضت على ذراعه وقالت ليونيل اتحبني ؟ قال اتسالينني اذا كنت احبك .

– ماذا تفعل من اجلي ؟

– خير ما عندي دمي واني اسفكه في سبيلك .

– اذن فاعلم ان عمي وروجر قد تآمرا على اهلاكك فان عمي هو الذي اختطفني كي يبعدني عنك الى الابد ويزوجني بروجر .

فاصفر وجهه من الغضب وقال انها خيانة سافلة .

قالت اتريد ان اكون امرأتك يا ليونيل ؟

– كيف تسالينني وانت تعلمين ان هذا كل ما ارجوه في الحياة

– اذن لنهرب ولنبرح لندرا في هذه الليلة الى احدى القرى وهناك لا نعدم كاهنا يعقد زواجنا او زوجوني بالرغم بروجر .. ليونيل اني اموت اذا اكرهت على الزواج ... ليونيل اني لا احب سواك .

وكانت تضغط على يده وهي تقول له هذا القول ضغطاً على قلبه حتى سحرته ووافقها على الهرب .

فأمرت السائق ان يسير فانطلق بالعاشقين وخرجت المركبة من لندرا بينما كان السير روبرت قد دخل الى غرفة رقاده وعزم على ان يجتمع غداً بليونيل ويشفيه من حب الن .

• • •

مضى على ذلك ثلاثة ايام والسير روبرت مضطرب اشد الاضطراب فان ليونيل لم يظهر في خلالها .

وكان قد سأل عنه في الثكنة فعلم انه خرج بعد انتصاف الليل مع امرأة كانت تنتظره في مركبة وان هذه المرأة تدعى مس الن فالدن وانها سارت واياه في تلك المركبة فلم يبق لديه شك انه هرب مع النورية .

وكان قد انبأ البوليس بامرهما ولكن البوليس على مهارته في لندرا لم يقف على اثر الهاربين فكاد يجن من يأسه لوثوقه ان الن لا تعود الى لندرا الا وهي زوجة ليونيل .

وذلك ان في انكلترا ولاسيما في ذلك العهد كان الزواج سهلا فلو ذهب عاشقان الى دير كاهن وسألاه ان يعقد زواجهما فعل دون اعتراض فكان هذا الخاطر يعذب السير روبرت عذاباً

شديداً لانه كان قد آلى على نفسه قضاء امرين احدهما الان يدع ربيبته تتزوج بليونيل لانه من الاشراف وثانيهما ان يكره روجر على ان يرد ثروته لاخيه ليونيل ابن اللورد الشرعي .

وفيما هو في منزله يتأهب للذهاب الى مدير البوليس دخل اليه الخادم وقال له ان رجلا يلبس ملابس التجار يريد ان يقابلك .

فأذن له فدخل فقال روبرت في نفسه يخال لي اني عرفت هذا الرجل .

اما الرجل فانه انحنى امامه سلاماً وقال له : ان سيدي يعرفني دون شك . قال اذكر اني رأيتك ولكن لا اذكر اين ؟

قال لقد تشرفت بلقائك يا سيدي في الهند — في الهند ؟

— نعم وكان ذلك مرتين احدهما في الطريق من شاندناجور الى كلكوتا والثانية في خمارة عند باب تلك العاصمة .

أأنت هو — نعم انا هو ثانيال والدتوبسي الذي جلدوه خمسين سوطاً لانه طلب ان ترد اليه ابنته

فقطب حاجبيه وقال له والان ماذا تريد اتريد مالا ؟

قال ان تجارتي رابحة باذن الله وانا اشتغل هنا منذ خمسة عشر عاماً ما شكوت فيها الا يوم جلدوني فان هذا الشعب الخامل لا يفتأ ينتصر للظالم على المظلوم وقد ابوا ان يصدقوا ان مس لن الحسناء انما هي ابنتي .

— اظن انك لم تأت الى هنا الا لتقص علي تاريخ حياتك ؟

— كلا دون شك — اذن ما تريد ؟

اني اصبحت شيخاً كما ترى وانا الان غني وليس لي وريث

فاريد ان ترد الى ابنتي .

— اني لا اعترضك فان ابنتك قد اساءت الي بعد احساني .

— لا عجب فقد كانت امها على شاكلتها — وقد طردتها من عندي

— لقد عرفت ذلك ايضاً من سيدي — اذا كنت قد عرفت ذلك فلماذا اتيت الي .

— اصغ الي يا سيدي فاني اعرف اموراً اخرى ايضا العلك تعرف اين هي ؟

— نعم — تكلم .

— رفقا ياسيدي ولنبدأ بوضع شروطنا اذا اردت .

فادرك ان لهجة العنف لا تفيد مع هذا الرجل فقال له برفق قل فاني مصغ اليك .

قال ان توبسي ليست في لندرا فقد هربت مع فتى جميل يهمك امره وهي ستتزوج به .

كلا هذا ان لا يكون .

— انك تستطيع منع هذا الزواج اذا تدخلت في شانه واما اذا لم تتنازل الى التدخل فان الزواج كائن لا محالة .

— ارى ايها الرجل انك تعلم اين هما وانك تريد ان تبيعني هذا السر .

— لقد قلت لك يا سيدي اني لست في حاجة الى المال .

— اذن ماذا تريد ؟

— ان ليونيل احب بنتي حبا عظيما حتى انه لم يعد يصغي الا لصوت قلبه ولا يستطيع منع هذا الزواج غير رجل واحد .

– وهذا الرجل – هو انا ولكنك انكرت ولا تزال تنكر لسوء الحظ اني ابو توبسي .

– سأعترف بهذه الحقيقة .

– ان اعترافك وحده لم يعد كافياً الآن – ماذا يجب ان افعل ايضا .

– يجب ان تذهب بي الى الملك .

فلم يتمالك السير روبرت عن الضحك فقال له النوري نعم يجب ان تذهب بي الى القصر فتقدمني للملك وتعترف امامه بانى والد توبسي ثم تلتمس من جلالته ان يصدر امراً برد ابنتي الي ومتى صار هذا الامر في يدى منعت الزواج .

فكره السير روبرت ان يقول امام الملك بانه جعل فتاة نورية ابنة اخيه وقال له ان هذا محال .

قال اذا كان ذلك فليتفضل مولاي بعذرني لازعاجه ويأذن لي بالانصراف – بل ابق وقل لي اين هي الفتاة .

– اني لا اخبرك الا بهذا الشرط فاما ان ترضى به واما ان ترضى بأن تتزوج ليونيل .

– كلا ان ذلك لا يكون وانا في قيد الحياة .

وقد ادرك السير روبرت انه لم يبق له حيلة مع هذا الرجل وانه اذ ابى موافقته تزوجت تلك النورية بليونيل اي المركيز اسبرتون الحقيقي فرأى انه لا بد من الامتثال وقال ليكن فسأذهب بك الى الملك .

ثم امر الخادم ان يعد مركبته فقال له ناثانيل لقد اصبت

يا سيدي فان توبسي لا تعرف ان تكون سيدة عظيمة وهي ستكون في مخزني على خير حال .

• • •

كان السير روبرت فالدن يعد من عظماء الرجال في لندرا وطالما اهتز منبر البرلمان لبلاغته ومن كانت له هذه المنزلة بين قومه على ما هو فيه من شرف النسب لا يطول وقوفه في ابواب الملوك .

وقد وصل الى سراي الملك فوجد كثيرين من الناس في الردهة يلتظرون بجازع الصبر صدور الاذن لهم بمقابلة جلالته فلم يكد يذكر اسمه للحاجب حتى صدر الامر بادخاله قبل جميع المنتظرين

وكان الملك جالساً وحده في قاعته فلما دخل اليه السير روبرت دهش اذ رأى وراءه رجلا بملابس التجار .

فادرك سر دهشته وبدأ الحديث فقال : ان ملوك الانكليز من بدء عهدهم الى جلالتكم لم يرق لهم مثل ان يقضوا بانفسهم بالحق

قال هو ذاك قال مولاي ان هذا الرجل الذي تراه يضطرب بحضرة جلالتكم انما هو اب منكود انكرته ابنته وهو يلتمس من جلالتكم ردها اليه .

وعند ذلك بسط له حكاية توبسي بالتفصيل وكيف انه اخذها ورباها الى ان رأى ما كان من فساد اخلاقها فاضطر الى التخلي عنها وان اباها يطالبها الان ولكنها تنكره وتأبى ان تعود اليه وانه يلتمس من جلالة الملك ان يصدر امره الكريم برد الفتاة الى ابيها

وقد وجد الملك هذا الملتمس حقاً فنادى رئيس حراسه وأراه ناثانيل ثم قال له : اذهب مع هذا الرجل ورد ابنته اليه باسم

الملك واذا اصرت على الانكار بانها ليست ابنته فقل لها ان السير روبرت فالدن شهد بذلك وان الملك وثق بهذه الشهادة

فانحنى رئيس الحراس وبينما كان السير روبرت يحاول الانصراف دخل الى القاعة الملكية المركيز روجر من باب اخر غير الباب العام فان الملك كان قد اذن له بالدخول اليه متى شاء بصفته قائد فرقته الاكبر .

ولم يظهر على المركيز شيء من علائم الانذهال حين رأى المركيز يحييه بيده . اما المركيز فانه انحنى امام الملك وقال مولاي ان فرقة الفرسان معسكرة في السراي وقد جئت اسأل مولاي ان يعين كلمة السر التي يعينها بنفسه كل يوم .

فاشار اليه الملك اشارة مفادها اصبر الى ان نكون وحدنا وحاول السير روبرت الانصراف ولكن المركيز اوقفه باشارة وقال للملك : مولاي اني اعد نفسي سعيداً بلقاء السير روبرت في حضرة جلالتكم لاني سألتمس ان اقول لكم اقوالا تهمه . قال قل ايها المركيز .

قال مولاي يوجد في فرقتي ضابط يدعى ليونيل اظن ان السير روبرت وصيه . وان هذا الضابط ياسيدي قد ارتكب خطأ عظيما فانه ترك الفرقة دون اذن وهرب مع فتاة افاقة محتالة خدع بها وسيتزوجها اذا لم يحل امر جلالتكم دون هذا الزواج .

وظهرت على الملك علائم الاشمئزاز ومضى المركيز في حديثه فقال ان هذه الفتاة كانت تدعو نفسها مس الن فالدن والحقيقة انها بنت هذا الرجل الواقف بحضرة جلالتكم ويدعى ناثانيال .

فجعل الملك ينظر اليها وقال المركيز :

ان وجودهما في قاعة جلالتكم يدل على ان جلالتكم قد اصدرتم امركم بهذا الشأن .

قال هو ذاك :

قال اذا خرج ناثانيال التمست من جلالتكم ان تأذنوا لي بمقابلة بحضور السير روبرت .

فقطب السير روبرت حاجبيه اذ لم يكن يعلم مراد المركيز واشار الملك الى رئيس حراسه فاخرج ناثانيال وبقي روبرت والمركيز

وكان الملك مصابا بمرض قضى عليه بان يكون ضيق الاخلاق فلو لم يكن يعطف عطفاً خاصا على روجر لما صبر على بطئه في بيان مراده الى هذا الحد ولكنه نظر اليه وقال له برفق :

قل ايها المركيز ما تريد قوله .

قال مولاي اني مخبر جلالتكم ستدهشون له لو لم يكن السير روبرت حاضراً فيثبته .

ثم التفت الى روبرت وقال الم تكن يا سيدي صديق والدي المرحوم اللورد اسبرتهون ؟

قال نعم .

قال وانك تعلم ان ابي صدق بامرأته اللادي سيسل وشاياته كاذبة فابعدها عنه مع ولدها الثاني وان خوفها كان عظيما على ولدها اذ كانت تخشى ان ينتقم منها فاوهمته ان ولده الثاني مات

فقال الملك كيف ذلك اهو حي الك اخ ؟

قال نعم يامولاي فهو ضابط في فرقتي واني التمس له العفو

من جلالتكم فهو ذلك العاشق المفتون الذي هام بتلك الحسناء وهرب واياها .

قال اذه مازال اخاك ايها المركيز فقد عفونا عنه واعطيناه اجازة ثلاثة اشهر .

ثم رفع يده مسلماً اشارة الى انتهاء المقابلة فانحنى الاثنان وانصرفا فلما وصلا الى الردهة قال له السير روبرت لي كلمة اقولها لك ايها المركيز : قال لك ان تقول اربعاً اذا اردت .

قال اني اريد محادثتك اليوم سلياً فهل تريد ان تعين لي موعداً للقاء . فاشار المركيز الى الحديقة وقال له انها خالية وليس فيها احد فهلم بنا اليها . قال ليكن ما تريد .

ونزل الاثنان الى الحديقة وجلسا تحت شجرة غضة فبدأ السير روبرت الحديث فقال :

اني تغيبت عن لندرا ايها المركيز مدة اسبوعين .

فأجابه بجفاء قائلا نعم وقد عرفت ايضا انك سافرت على اثر جلسة سرية عقدت في نسادي هرمين كما اظن .

قال أعرفت ذلك .

فأجابه بعظمة قائلا نعم وقد عرفت انك اتفقت مع مس الن على اختطاف امرأة نورية تدعى سينيتيا وكانت تقول انها امي

- انك مازلت قد بدأت انت سرد هذه الحوادث فقد هانت علي مهمتي - كيف ذلك .

- ان هذه المرأة التي تقول انها امك والتي اخذها عمال مستشفى بلدام بحجة انها هاربة منه لم توجد فيه .

- اني اعرف ذلك فقد عهدت الى الطبيب بلتون معالجتها .

- العلك تعتقد انها مجنونة .

- نعم وانك سافرت منذ اسبوعين الى ايكوسيا واجتمعت بكثيرين من اعضاء مجلس اللوردية . . خابرتهم بشأن نفي طائفة النور .

- هو ذاك فاني اريد طرد النور من انكلترا وهي خير طريقة لاكراه المزورين على الجلاء - ولكن هذه الطائفة لا تنكر اصلها .

- اتعتقد ذلك .

- اصغ الي ايها السير روبرت فلا حاجة الى المعميات بيننا فاني اعلم ماذا تفتكر .

- ماذا - انك تحسبني ابناً غير شرعي للورد اسبرتهون وان امي هي سينيتيا ولكي في عيون الملك والنبلاء والناس المركيز روجر وقائد فرقة فرسان الملك واني لا اقول لك اذا كنت مخطئاً او مصيباً في اعتقادك فان من كان مثلي لا يتدانى الى تهمة نفسه

- ولكن ماذا تقول اذا اثبت اعتقادي بالبراهين .

- ان براهينك غريب من المحال ولكن اصغ الي فانك معروف باخلاصك اللادي سيسل وبانك تحب ولدها كانه ولدك .

- هو ذاك ولذلك اردت ان ارد له ميراث ابيه فابتسم روجر وقال :

اليس من العجيب ان تكون شيخاً وان اكون فتى فتثور حدتك واسكن الا تريد ان تصغي لي بسكينة .

- اني مصغ - اقول انك اذا كنت تحب ليونيل حقيقة فلا تخاطر بمستقبله وقد شاطرته اموالي - فقاطعه قائلا انك لو كنت ابن

اللورد الشرعي ...

فبرقت عينا المركيز وقال اني امنعك عن ان تشك بمولدي الى ان تبرهن لانكلترا بجملتها على صحة ما تقول .

فهاج ثائره وقال اني اعلم كيف اكرهك على الاعتراف .

فاجابه قائلا كفاك هياجاً فاننا اذا تبارزنا قتلتك لا محالة فتحرم ليونيل من وصيه وحاميه الوحيد واعلم اني فق ويقال باني باسل وان انكلترا على وشك اثارة الحرب الا يجوز ان القتل في غمارها وانا في طليعة فرقتي .

– ولكني لا اشير على ليونيل ان ينتظر هذه الصدفة .

– وانا ارى انه لا سبيل الى الاتفاق بيننا وانك تريد الخصام فليكن ما اردت – ليكن .

– ولكنك مخطىء يا سير روبرت – لا يخطىء من يعمل بما يوحيه اليه الواجب – اذن انت تريد الخصام – نعم .

– وستطلب الى البرلمان نفي طائفة النور – هذا لا ريب فيه .

– وانا سادافع عنها ... الى اللقاء . ثم حياه وانصرف .

فوقف روبرت مطرقا مفكرا يقول في نفسه ان هذا الرجل شديد فكيف السبيل الى اكراهه على الاعتراف ومع ذلك فلا بد للحقيقة ان تظهر وان يحل الولد الشرعي محل اللقيط .

وقد ترك الحديقة وانصرف فلم يسر بضع خطوات حتى التقى بالطبيب بولتون فحياه الطبيب وقال له :

اني كنت احسبك في ايكوسيا ايها الصديق ؟

قال لقد كنت فيها وعدت امس .

– اني رأيتك خارجا من قاعة الملك فهل اصبحت من الحاشية ؟

– كلا ولكني ادخل الى الملك حين احتاج الى مقابلته واسأل العدل – العلهم اساءوا اليك ؟

– كلا بل اساءوا الى رجل كانوا يحسبونه ميتاً وهو حي يرزق

– اني اعلم ما تعنيه فانك تريد بهذا الرجل ليونيل ابن اللورد اسبرتهون الثاني – بل وريثه الوحيد بعد موت اخيه المركيز .

– ايها الصديق اسألك المعذرة لاني لم انتبه الى حالتك العقلية حين رأيتك وانت تعلم اني طبيب .

فقبض روبرت على ذراعه فهزه بعنف وقال له انك تعلم يقيناً باني لست من المجانين .

وانا اريد ان اعتقد هذا الاعتقاد الا اذا عدت الى مباحثتي في هذه الشؤون فاني التقيت الان بالمركيز روجر وانت تقول انه مات

– ليس هو بالمركيز روجر بل هو ابن سينيتيا .

– أأنت تصدق وشايات توبسي التي جعلتها ابنة اخيك .

فنظر اليه محدقا وقال له انه يجب ان تكون واثقاً على هذه الحقيقة اكثر من سواك فقد كنت طبيب اللورد الخاص .

لا شك اني اعرفها – اذن تكلم .

– اتريد – بل التمس منك ان تقول الحقيقة .

– اذن فاعلم ايها الصديق انك على وشك الجنون وان خير ما تفعله هو ان تعد امتعتك وتسافر الى اوروبا فان السفر مفيد في هذه الحالات .

ثم حياه وانصرف فضرب السير روبرت الارض برجله مغضباً

وقال : ان جميع النساس مع حزبه فليس لي به حيلة .

. . .

ولنعد الان الى الن وليونيل فانهما خرجا من لندرا الى احدى القرى فباتا فيها وعند الصباح سألها ليونيل قائلا الى اين نذهب .

قالت ان عمي وروجر سيطوفان انكلترا للبحث عنا وخير ما اراه ان نذهب الى منزل امك في ايكوسيا وهناك ندعو كاهناً من احدى القرى فيعقد زواجنا ثم نعود ولا خوف علينا من احد .

فوافقها الى ما ارادت وسافرا الى هونفور فأقاما كل يومهما مختبئين في احد فنادقها .

وفي اليوم التالي ارادا استئناف السفر فقال له صاحب الفندق ان الخيل لا تعود قبل ساعتين فاضطر العاشقان الى الصبر ساعتين مرت بهما مرور عامين وكان ليونيل يخرج من حين الى حين الى الطريق مفتقداً قدوم الخيل .

وفي خلال ذلك كانت الن مختلية في الغرفة تسمع حديث الخدم في الردهة فسمعت احدهما يقول للآخر اني لم ار لوردا كهذا اللورد الذي مر بنا .

فأجابه رفيقه الحق انه اشبه الاسبانيين منه بالهنود فان شعره الاسود يشبه جانح الغراب ولون وجهه يشبه الزيتون .

فاضطربت الن لهذا القول اذ ذكرت جان دي فرانس وعاد ليونيل اليها فاخبرها بقدوم الجياد وسافرا الى ايكوسيا .

وهناك دعا ليونيل اليه احد الكهنة وسأله ان يزوجهما في الغد فوافقه الكاهن ولكنه اعترض على ان يكون الزواج في الغد بحجة

ان ذلك اليوم يوم جمعة اي اليوم الذي صلب فيه المسيح واتفقوا على ان يكون الزواج يوم السبت .

وفي ذلك اليوم ذهب ليونيل والن الى الكنيسة في الساعة المعينة وكان فيها بعض اهل القرية حضروا للصلاة ودخل في اثرهما ثمانية رجال غرباء كان اربعة منهم بملابس التجار واربعة متشحوا بوشاحات تخفي ملابسهم .

حتى اذا انتهت الصلاة واراد الكاهن ان يبدأ حفلة الاكليل وقف في باب الهيكل وقال :

ايها النساس اني سأزوج ليونيل دي اسبرتهون من مس الن فالدن فهل يوجد من يعترض على هذا الزواج ؟

فاجابه صوت قائلا انا .

وقد دنا هذا الرجل من الكاهن فاضطربت الن اذ عرفت ان هذا الرجل ابوها تانئيل وقال له الكاهن لماذا تريد الاعتراض ومن انت : قال اني والد هذه الفتاة وهؤلاء هم شهودي

وعند ذلك دنا الثلاثة الذين كانوا معه فقالوا نعم نشهد انه ابوها

فصاحت الن صيحة قنوط اذ رأت ان هؤلاء الثلاثة كانوا جان دي فرانس وشمشون والمركيز روجر وصاح ليونيل بصوت يتهدج بالغضب قائلا روجر !

فقالت مس الن ان هؤلاء الشهود كاذبون .

فتقدم عندئذ واحد من الاربعة الذين كانوا يخفون ملابسهم وازاح الوشاح وظهرت ملابسه العسكرية وقال اني اعترض باسم الملك على هذا الزواج وادعو توبسي باسم الملك ان تذهب مع

ابيها تائيل .

فهجم ليونيل على اخيه وقال ايها الشقي ماذا فعلت .

فوضع المركيز يده على كتف اخيه وقال له بملء السكينة .

اني انقذتك من العار فان مس الن تدعى توبسي وهي نوريه وابنة هذا النوري وقد طردها السير روبرت فعادت لك حتى كادت ان ترميك في فخها .

فاطرق ليونيل برأسه وسقطت دمعتان من عينيه الى الارض

الصبر

١١

بعد شهر من الحوادث التي تقدم بيانها خرج رجلان من سراي سانت جيمس اي القصر الملكي وجعل يسيران في شوارع لندرا وكانت الليلة حالكة والضباب كثيفاً والبرد قارصاً فقال احد الرجلين لرفيقه :

اظن يامولاي اننا نستطيع المخاطرة هذه الليلة ؟

قال وانا ارى رأيك يا دلتون فان مدائني لا يفتكرون بي هذه الليلة .

— ولكني ارجوك ان تكون حكيما فلا تلقبني بلقب السمو ولا تدعني بيا مولاي بل ادعني جورج — ثم تأبط ذراعه دون كلفة وقال له :

اني لا اجد مناخاً اقبح من مناخ بلادنا فما هذا الضباب الدائم وما هذا البرد الذي لا يحتمل . قال الحق ان مناخها شديد .

قال وان شرائعها اشد فاني لا ارى هؤلاء الناس يحترمونني

ويتحنون امامي حتى اجل احترامهم على محمل التهكم واي احترام هذا فان الملك لا يحق له الخروج من لندرا الا باذن خاص من البرلمان وولي عهده لا تحفظ له خدمة الا حين يكون في سانت جيمس او في البرلمان فمتى خرج منهما بات فرداً من افراد الرعية يحق لدائنيه ان يقبضوا عليه ايضا وجدوه .

قال اني اعترف ان هذه الشرائع شديدة على الاسرة المالكة فتنهد وقال هل يسمح ملك فرنسا ان تسري هذه الشرائع على اسرته ولكن ابي شديد الضعف كثير الميل الى العامة فانه ما تقاضى عنده شريف وعامي الاحكم على الشريف .

وهو يقول انه يقتدي بذلك باجداده حين كانوا في هولندا فانه يدعي انهم كانوا يخضعون لشرائع البلاد قبل رعاياهم .

قال اية فائدة يا مولاي من الشكوى فلا دواء لهذا الداء الا الصبر فاصبر الى ان تتيح الاقدار لسموك ان تجلس على عرش ابيك

قال اسكت وكفى تدعوني بهذه الالقاب اتريد ان اميت الليلة في السجن .

. . .

كان هذان الرجلان البرنس دي غال ولي العهد في ذلك الحين وسكرتيره . ولا بد لنا ان نوضح بالايجاز سبب هذه الحادثة الغريبة بينهما وذلك ان البرنس دي غال كان معروفا بفساد السيرة وله عيوب كثيرة اخصها المقامرة فكان يلعب حتى خسر كل ما لديه فلجأ الى المرابين وقد كثرت ديونه وكثر مطله حتى وصلت شكوى الدائنين الى ابيه الملك .

واتفق ان جريناً من اعضاء البرلمان وضع على منضدة الرئيس كثيراً من العرائض .

وكانت هذه العرائض شكاوى قدمها نحو ثلاثين مرابياً . يشكون من سمو ولي العهد انه لم يف ديونهم وانه طردهم اقبح طرد حين طالبوه بالسداد .

فتلا الرئيس هذه العرائض على الاعضاء واضطرب المجلس فقدم عريضة بهذا الصدد الى الملك .

وعند ذلك امر الملك المجلس ان يصدر قراراً مفاده ان ولي العهد يعتبر لدى دائنيه كسائر افراد الرعية وانه يحق لكل دائن ان يحاكمه وان يسجنه اذا امتنع عن وفاء دينه كما يعاملون سائر الناس . ثم نظر الى ولده وقال له : انك عضو في مجلس اللوردية بحق ولادتك وانك تقيم في قصر سانت جيمس بصفتك ولي عهدي فاذا استدنت ديوناً جديدة فأن مدائنيك لايستطيعون القبض عليك في سانت جيمس ولا في مجلس اللوردية ولكنهم اذا بقوك خارجها حق لهم ان يقبضوا عليك وقد انذرتك فتدبر

فوعد البرنس أباه ان يسير سير العاقلين وانه لا يتجاوز بنفقاته الميزانية المعينة له .

ولكن وعده لم يقترن بالوفاء فلم يمض عام حتى تراكمت عليه الديون .

وقد ابى ابوه ان يفي دينه وامر المجلس بتنفيذ قراره فلم يعد ولي العهد يستطيع الخروج من قصر سانت جيمس الا متحذراً متنكراً ولا يذهب الى البرلمان الا في مركبة ملكية يحفرها الفرسان .

والآن فقد عرف القراء سبب شكوى ولي العهد من البرد والضباب فانه لم يكن يستطيع الخروج في رائعة النهار والتمتع بنور الشمس .

وكان يسير مع كاتم اسراره دلتون في تلك الليلة وكلاهما يشكوان فقال له دلتون :

اف لهذا البرد ما اثقله .

قال انه مهما يكن من ثقله فهو اخف عندي من الدائنين وارجو ان يكونوا الليلة في اسرتهم فلا يخطر لهم ان يتبعوني — هذا ممكن — أتظن انه لم يرنا احد حين خروجنا من القصر — اني لم ار احداً يامولاي .

— انك تطمئنني — اتأذن لي يا مولاي ان اسألك سؤالا ؟

— قل — اخرجت في هذه الليلة الباردة لاستنشاق الهواء ام ان لك غاية اخرى — بل لغاية اخرى فقد اصبحت من العشاق .

— ومتى كنت من اهل الزهد يامولاي فانك كل يوم من الغرام في شأن .

— ولكن غرامي اليوم لا بقاس به غرام .

العلنا ذاهبان لانشاد الاهازيج تحت مشرف منزل التي تحبها

— ليس هناك مشرف — ان لجميع القصور في لندرا مشارف .

— وهي ليس لها قصر — اذن انها من نساء التجار .

— بل هي دونهن مقاما — انك تدهشني يامولاي فمن هي هذه الساحرة ؟

— لاشك انها ساحرة كما تقول بدليل انها فتنتني بنظرة :

اتريد ان اصفها لك - تفضل يامولاي .

- انها شقراء الشعر سوداء العينين لا تتجاوز الثمانية عشر ربيعاً وهي تلبس ملابس اهل القرى ولكنها خلقت كما اشتهيت فلو أنها دوقة لسرى الى قلبها الحسد وتمنت ان تكون في مكانها وعلى الجملة فهي جوهرة مكنونة .

- اين وجدت هذه يامولاي ؟ ان لهذا اللقاء حكاية

- دون شك فقد كنت ذاهباً منذ ثلاثة ايام الى البرلمان فمررت من هنا حيث نحن الان .

وانت تعلم اني حين اكون ذاهباً الى البرلمان لا اكترث للدائنين اذ لا يستطيعون ايقاف مركبتي والحراس محدقون بها وقد فتحت النافذة وجعلت ابتسم للناس الذين كانوا يحيونني من الجانبين .

وفيما انا على ذلك رأيت تلك الفتاة التي وصفتها لك وقد وقفت تنظر الي والى مركبتي فابتسمت لها وارسلت اليها قبلة في الهواء بيدي فاحمر وجهها حياء وانصرفت مسرعة .

وكان بصحبتي خادم ذكي رأى ما كان فاندفع في اثرها واخبرني في هذا الصباح عن كل ما عرفه من شأنها .

- اين تقيم يامولاي - انها تقيم في شارع لا يخطر لاحد اني اذهب اليه ثم ضحك وقال انها تقيم في وينغ .

- هو ذاك يامولاي فان دائنيك لا يمكن ان يخطر لهم انك تتجول عند انتصاف الليل وفي مثل هذه الليلة الباردة في شارع لا يقيم فيه غير الرعاع واللصوص .

- اذن اسرع الخطي فأني اريد ان اصل الى هذه الحسناء التي فتنتني - فحك دلتون اذنه فوقف موقف المتردد فقال له البرنس وهو يضحك ألعلك تأنف من الذهاب الى وينغ .

قال كلا يامولاي ولكني لا ارى من الحكمة ان تخاطر بنفسك في هذا الشارع الذي لا يقيم فيه غير قطاع الطرق والبحارة السكارى وفوق ذلك فان هذه الفتاة لا بد ان لها اب او اخوة او عشيق .

- كلا فانها تقيم في بيت صغير مع اختها المريضة وعمتها العجوز كما انبأني خادمي واني متقلد حسامي تحت وشاحي واظن اني احسن استخدامه عند مسيس الحاجة - اسكت اسكت يامولاي

- ماذا - اظن انهم يتبعوننا - ماذا تقول .

- اني اسمع منذ بضع دقائق وقع خطوات من ورائنا وهي متناسبة مع خطواتنا - فوضع البرنس يده على قبضة حسامه ووقف مصغياً فسمع حديثا لم يتبينه اذ كان يصل الى مسمعه شبه الهمس فقال : انهما رجلان يتحدثان في شؤونهما فلنهتم نحن في شأننا .

ومشى فتبعه دلتون وهما يصغيان فيسمعان وقع خطوات الرجلين فقال البرنس :

لقد بدأت ان اضجر منهما فقف الى ان يمرا ونرى ما يكون

ولكنهما حين وقفا وقف الرجلان فمشى البرنس اليهما وهو لا يراهما لتلبد الضباب الى ان لاح له اشباح سوداء فصاح بهم دلتون قائلا : - انكم اذا كنتم من قطاع الطرق قد اخطأتم بتعقبنا فأننا لا نملك غير سيفين صقيلين .

فأجيب بضحك الساخر ورأى ان الاثنين اصبحا ستة فتراجع

الى الوراء وقال للبرنس : جرد حسامك يامولاي فقد طرقونا .

فامتشق حسامه وصاح بهم قائلا الى الوراء .

ولكنهم اجابوه بالضحك ثم سمع صفيراً خاصاً ورأى الاشباح محدقة به فعاد الى الانذار والوعيد .

وعند ذلك قال له واحد منهم بلهجة المتهكم لقد عرفناك يامولاي ونحن كثيرين فخير لك التسليم اذا كنت من العاقلين .

فانقض البرنس بحسامه على الرجل الذي كلمه وتراجع الاشباح كأنهم ذعروا فاندفع البرنس في اثرهم . ولكنه لم يسر ثلاث خطوات حتى عثرت رجله بشيء لم يره فوقع على الارض وافلت الحسام من يده .

وكان دلتون سقط مثله فانقضوا عليهما وقيدوا ايديهما .

وعند ذلك ادرك البرنس ان هذا الرجل الذي كان يتهكم عليه انما كان من ضباط البوليس التجاري الذي كان يعهد اليه الدائنون القبض على المدينين وارسالهم الى السجن .

وقد توهج البرنس من الغضب وقال لهم ويلكم ايها الاشقياء فسنقطع رؤوسكم جزاء لكم . فاجابه الضابط قائلا ان راسي يا صاحب السمو الملكي ثابت بين كتفي لا خوف عليه .

قال ويحك ايها الوقح اتعرفني وتجسر ...

قال لست انا الذي يجسر يامولاي على هذه الجرأة القبيحة وانما هو البرلمان اما انا فاني من اخلص رعايا جلالة الملك

فحسب البرنس انه يستطيع اغواءه بالمال فدفع اليه كيسه وقال خذ هذا . فهذ الضابط الكيس كأنه يريد ان يعلم مقدار ما فيه من

الدنانير ثم قال له : ان سموك مخطىء يامولاي .

قال ماذا تعني ؟ ـ اعني ان هذا الكيس لا يوجد فيه اكثر من عشرين دينار ومقدار الدين الذي على سموكم يبلغ ستة آلاف جنيه وهو المبلغ الذي اضطررت من اجله ان اكمن لكم قرب السراي واقبض عليكم بالرغم مني .

ـ تباً لك من خائن ـ كلا لست بخائن يامولاي فقد كنت عالماً انكم عازمون على الخروج في هذه الليلة من السراي .

ـ اني سأشنقك ايها الوقح ـ ان الحبل المعد لشنقي لم يلسع بعد

ـ ومتى صرت ملكا ؟ ـ ان جلالة ابيك في اتم عافية وهو اصغر مني سناً فمتى ارتقيت الى العرش كنت انا من اهل القبور فلا خوف علي من عقابك .

ـ والآن فليأذن لي مولاي ان اقول له ان البرد قارص وانه يجدر به ان يعود ـ عد بي الى سانت جيمس .

ـ كلا يا مولاي ـ اذن الى ابن ـ الى السجن التجاري يامولاي فارتعد البرنس لهذه الاهانة ومضى الضابط في حديثه فقال : اني كنت واثقاً من القبض على سموكم في هذه الليلة فانبأت مدير السجن فاعد لكم غرفة جديرة بسموكم .

فطاش صوابه من الغضب وقال ايها اللص انك لم تظفر بي بعد

ثم حاول ان يقطع وثاقه فلم يستطع .

وعند ذلك سمع وقع خطوات عسكرية فجعل يصيح مستغيثاً ويقول الي ... الي

فاسرع صاحب الخطوات وقال من هذا الذي يستنجد ؟

فقال البرنس انا هو البرنس دي غالى تجاسروا على ان يمدوا ايديهم الي .

فدنا الرجل وظهرت علائم الدهشة على الضابط حين رأى هذا الرجل فقد كان طويل القامة يلبس ملابس البحارة ولكن نبل هيأته كان يدل على انه متنكر بهذه الملابس .

اما هذا الرجل فانه انحنى بملء الاحترام امام البرنس ثم نظر الى الضابط وقال له :

ويحك كيف جرأت هذه الجرأة على ولي العهد ؟

فتمتم الضابط قائلا الرئيس ثم اجاب الرجل قائلا :

ارجو معذرتي فقد امتثلت للامر الصادر الي .

قال ليس لك ان تتلقى الاوامر الا مني واني آمرك الان ان تركع عند قدمي سموه فانه قد يعفو عنك بعد رجائي .

فركع الضابط ممتثلا وجعل يعتذر بلسان يتلعثم والبرنس مندهش مما يراه ثم امره الرجل ان ينصرف برجاله فأسرع بالامتثال وانحنى الرجل امام البرنس وقال له :

ما كنت اتمنى يامولاي الا ان اكون مروت بهذا المكان قبل ان يتجاسر هؤلاء الاشقياء .

وكان البرنس قد ثاب من دهشه الاولى ولكنه لبث معجباً بهذا الرجل فقال له: من انت ايها السيد فقد رأيت ضابط البوليس التجاري يضطرب امامك وهو لا يضطرب امام احد .

قال ذلك انه مدين لي بجميل . فقال دلتون :

ولكنك كنت تكلمه بلهجة السيادة وسمعته يناديك متمتما

بلقب الرئيس - قال ذلك اني كنت شبه رئيسه - فقال له البرنس :

اني لا ادعك تنصرف قبل ان اعرف اسمك فاني اريد ان اظهر لك امتناني في الغد على مشهد من النبلاء .

قال لا حاجه الى ذلك يامولاي فاني ما عملت الا مايجب علي ويكفيني رضاك . انما التمس من سموكم ان يأذن لي بمرافقته الى سراي سانت جيمس - ولكن البوئس ذكر حين زال عنه هذا الخطر الغرض الذي كان قادماً من اجله فقال له :

اني لا اريد العودة الى السراي - قال ان سموكم قد يكون مخطئاً - قال اني عاشق واريد ان ارى من احب - فابتسم الرجل وقال اني عارف بذلك يامولاي .

فزاد اندهاش البرنس ومضى الرجل في حديثه فقال :

انكم رأيتم يامولاي منذ يومين فتاة شقراء تلبس ملابس عامة الشعب - هو ذاك - وان هذه الفتاة هي اخت المرأة التي احبها فاذا كنتم تريدون يامولاي مراعاة من انقذكم من هذا الموقف ...

فلم يدعه البرنس يتمم حديثه وقال له :

كفى فاني لا اعود الى التفكير بها مهما كلفني ذلك من العناء فاني مدين لك وانا من دم ملكي فأعلم اني اتعهد لك باني لا احاول اغواء هذه الفتاة - اشكركم يامولاي - والآن ولم يبق لي غاية من مواصلة السير فقد رضيت اقتراحك فعد بي الى السراي .

اني ممتثل لاوامر سموكم - وسار الثلاثة عائدين الى القصر الملكي فقال له البرنس :- أتعلم ايها الصديق ان لك من السلطة النافذة ما لم ينل بعضه ابن الملك - فابتسم الرجل وقال :

اتحسب يامولاي ان لي هذه السلطة - دون شك - ليس على سموكم الا ان يثق بي فيستطيع بعد ذلك الطواف في الشوارع حين يشاء وكما يشاء - احق ما تقول - نعم يا مولاي .

كيف ذلك والدائنون يراقبونني ليل نهار ايدعونني اسير دون اعتراض .

- نعم يا مولاي - اذن انت من السحرة .

- ربما - اذا كان ذلك فهبني شيئاً من القوة وثق اني لست ممن ينكرون الجميل - اثق بي يامولاي .

- كل الثقة - اذن تفضل بالذهاب معي .

وكانوا قد اجتازوا في تلك الساعة جسر لندرا وعطفوا الى الشوارع الكبرى الجميلة فكان الرجل يسير في الطليعة مسرعاً والبرنس ودلتون يتبعانه .

وبعد ربع ساعة وصلوا الى منزل جميل حسن الرواء فوقف الرجل وقال لقد وصلنا .

ثم قرع الباب ففتحته امرأة عجوز وانحنت امام الرجل بعلامة الاحترام وقال البرنس في نفسه لا شك انه قبيل متنكر .

ثم دخل دلتون في اثره الى المنزل فاجتازوا رواقاً ثم صعدوا سلماً ففتح الرجل الباب وادخلهما الى قاعة كان يدل فرشها انها غرفة اشغال - وقد قدم كرسياً للبرنس وليث واقفا امامه باحترام فضحك البرنس وقال له :

لقد قلت لنا انك ساحر ولكني لا اجد في هذه الغرفة ما يحمل على الرعب - قال ان الطريقة التي سأرشد مولاي اليها تشبه

السحر لبساطتها قال ما هي :

قال ان الدائن يشبه الكلب الهائج فاذا اعطيته لقمة سكت هياجه - قال ان الطريقة سهلة كما تقول ولكن تنفيذها صعب فاني لا استطيع ان اعطي الدائنين شيئاً .

ففتح الرجل درجاً واخرج منه غلافا محشواً بالاوراق فقال له هذه هي قوائم حسابك يامولاي

فوقف البرنس منذهلا وقال له الرجل

وان هذه القوائم معلم عليها بالوصول من اصحابها .

- ولكن ... - هذه هي يامولاي فتفضل وانظر فيها

فافتقدها فوجد عليها توقيع اصحابها فخيل له انه في حلم وقال له

هل لك ان توضح لي هذا المعمى

قال ان حله سهل يامولاي فقد وفوا جميع دائنيك ما خلا الذي كان يطالبك هذه الليلة وسيوفي حقه غداً

- من الذي وفى عني هذا الدين - المخلصون لسموك يامولاي

- ربما كنت انت - نعم يامولاي - اذن من انت - ان اسمي لا يدل على شيء يامولاي - ولكني اريد ان اعرفه .

فانحنى الرجل وقال - اني ادعى عثمان

أأنت هو النائب عثمان الذي جعلك جان روجر وريثه الوحيد

- نعم يامولاي - وانت الذي وفيت ديني ؟

فانحنى عثمان وقال له البرنس اذن انت من كبار الاغنياء ؟

- لست انا الغني يامولاي بل طائفة اتولى زعامتها .

- ما هي هذه الطائفة - هذا الذي يستحيل ان اقوله لسموكم

- ولكني اريد ان اعلم - ليس هذا بسري يامولاي .
- اتعلم اني مدين لك بستة آلاف جنيه .
- كلا يامولاي فلست مديناً لي بشيء .
فوقف البرنس وقد بدت عليه علائم الانفة فقال :
انه لو وفى البرلمان ديوني لقبلت واما ان تقيها طائفة سرية فلا
- أذا اتيت يامولاي الى سراي سانت جيمس والتمست مقابلة سموكم اتـأذن لي بالمقابلة - دون شك .
- اذن سأزور سموكم في يوم لا استطيع ان اعينه الان واطلب مكافأتي عن هذه الخدمة البسيرة التي تشرفت بتقديمها لمولاي .
فقطب البرنس حاجبيه وادرك عثمان خوفه من هذا القيد فقال
اطمئن يامولاي فلا اطلب ما يمس بالشرف والواجب .
قال اذن ابق هذه القوائم عندك فاني اريد ان ابقي مدينك الى ان اني هذا الوعد الذي اعدك به اليوم . فانحنى عثمان وقال؟
لم يبق لي يامولاي غير ملتمس التمسه من سموكم . ما هو ؟
- هو ان تتفضلوا بكتمان ما كان بيننا - اني اعدك بالكتمان
ثم التفت الى كاتم اسراره وقال له اسمعت يا دلتون ؟
فانحنى دلتون وقال عثمان مخاطباً البرنس .
والان هل يريد مولاي ان يعود الى السراي ؟ قال نعم .
فقرع عثمان جرساً ودخل شمشون فقال عثمان للبرنس ان هذا الرجل يمثلني يامولاي في شوارع لندرا وانكم تستطيعون ان تسيروا الى حيث تشاؤون حين يكون في خدمتكم
ولما وصل البرنس الى السراي ودخل الى غرفته دهش دهشاً

عظيماً اذ رأى على منضدة جميع قوائم الحساب التي رآها عند عثمان فقد وصلت قبله الى غرفته مع انه لم يقف في الطريق حين خروجه من منزل عثمان وقال في نفسه لم يبق شك في ان هذا الرجل من السحرة
وقد صعد الى سريره وحاول الرقاد ولكنه لم يغمض له جفن الى الصباح وهو يناجي نفسه بهذا السؤال ويقول
ترى ماذا يريد مني هذا الرجل مقابل الدين الذي وفاه عني وهو ستة الاف جنيه .
ولما اشرق الصباح قام الى منضدة وكتب ما يأتي
من البرنس دى غال الى النائب عثمان
« ايها السيد - انك انقذتني من الدائنين ورددت الي القوائم ولكني لا ازال مديناً لك فاعتبر هذا الاعتراف سنداً علي بذلك الدين »
ثم نادى دلتون وأمره ان يذهب بالرسالة الى المنزل الذي اجتمعا فيه بعثمان وانتزع من اصبعه خاتماً كان منقوشاً عليه شعار الاسرة المالكة وقال له - اعطه الرسالة وهذا الخاتم على سبيل التذكار
فخرج دلتون وعاد بعد ساعة وهو يحمل الرسالة والخاتم
فقال له البرنس ما هذا .
قال العلك واثق يامولاي اننا لم نكن امس حالمين وان ما جرى لنا كان في اليقظة
- وانت - لست واثقاً - كيف ذلك
- ذلك اني بحثت ادق بحث في ذلك الشارع عن المنزل وعن النائب عثمان فلم اقف على اثر - ان الرجل قد يختفي واما المنزل ..

ـ لم اجدها ـ انا اجدها

ثم قابط ذراع دلتون وخرج واياه في رائعة النهار فطاف جميع شوارع لندن دون ان يقف على اثر لذلك المنزل فجعل دلتون يضحك ويقول ـ أرأيت يامولاي اننا كنا حالمين

قال اريد أن اوافقك على اعتقادك ولكن ذلك محال فقد لقيت في طريقي كثيراً من الدائنين فكانوا ينحنون امامي بملء الاحترام مما يدل انهم قبضوا ديونهم

وعاد البرنس الى السراى فلبث بضعة ايام وهو منذهل اشد الانذهال مما اتفق له

ثم تناسى هذه الحادثة وكاد ان ينسى عثمان .

وبعد اسبوع دعاه ابوه الملك اليه وقال له يظهر ان نصائحي قد أثرت فيك ـ قال ماذا تعني جلالتك ـ قال لقد علمت انك وفيت ديونك ـ قال نعم يامولاي .

فمد اليه يده فصافحه وهو يقول ـ اذا كان ذلك فاني اعود الى صداقتك وازيد راتبك اربعة آلاف جنيه في العام .

فانحنى البرنس امامه شاكرا وهو يقول في نفسه لا شك ان عثمان سحر ابي فانعم علي هذا الانعام .

ثم قال له الملك انك ما زلت اصبحت من العاقلين فاني أأذن لك بحضور المجلس الخاص الذى حرمتك من حضور جلساته .

قال لقد اغدقت علي نعمك يامولاى فانك تسمح لي ان اهتم بشؤون المملكة ـ قال انك تعرف السير روبرت فالدن احد اعضاء مجلس البرلمان اليس كذلك ـ قال نعم .

قال خذ هذه الورقة التي قدمها الينا واقرأها فأخذ البرنس الورقة وقرأها مما يأتي ـ مولاي :

التمس من جلالتكم ان تأذنوا لي بمقابلة خاصة يحضرها سمو البرنس دي غال واثنان من اعاظم النبلاء لشأن خطير يمس شرف جميع نبلاء الانكليز ـ فلما قرأها قال له ابوه ما عساه يريد السير روبرت

قال انه يامولاي مشهور بغرابة اطواره واظن انه يهتم بالصيد والاسفار اكثر من اهتمامه بالسياسة ومع ذلك فان جلالتكم قد عودتم الاشراف ان لا ترفضوا لهم مقابلة وسنرى ما يريد .

قال اذن اكتب له اننا سنستقبله غداً في الساعة التاسعة من المساء في قاعتنا الخاصة وسيحضر هذه المقابلة ولي عهدنا واثنان من الاشراف كما قال . فأخذ البرنس قلماً وكتب ما يأتي :

ان جلالة الملك جورج الثالث قد تفضل واذن للسير روبرت فالدن ان يتشرف بمقابلته في الساعة التاسعة من مساء غد في القاعة الخاصة

جورج

برنس دي غال

وقد اقام البرنس مدة يتحدث مع ابيه ثم دعاه ابوه الى متناولة الطعام معه فذهب البرنس الى قاعات الخاصة كي يتأهب للجلوس على مائدة الملك فقد كان من مصطلحاتهم ان لا يجلس ولي العهد على مائدة الملك الا وهو مرتد بملابس قائد الفرسان العام .

وبينما كان غلمانه يعطرونه ويلبسونه حانت منه التفاتة الى المنضدة فرأى رسالة مختومة ففضها وقرأ فيها ما يأتي :

« نلتمس من البرنس دي غال ان يمر بدائرة اشغاله لحين ينتهي

من لبس ثيابه » فالقى هذه الرسالة في النار وبعد ان فرغ من لباسه ذهب الى قاعة اشغاله فصاح صيحة دهش .

ذلك انه رأى النابابعثمان يجانب المستوقد وهو على اتم السكينه

١٢

في اليوم التالي اي في اليوم الذي عينه الملك لمقابلة السير روبرت فالدن ركب روبرت مركبته وذهب لزيارة اللادي سيسلي قبل موعد الملك بساعة فانها لم تكن اشهرت امرها بعد .

وكان ليونيل قد برح به الوجد فانه على اتقته ونفوره من الزواج بنورية كان لايزال يحب توبسي وقد امرضه هذا الحب حتى اوشك ان يشرف على الموت .

فلما دخل روبرت كان ليونيل نائما فسأل امه عنه فقالت له ان الطبيب ببشرنا بقرب شفائه ولكنه اول من امس كاد ان ينتحر

– كيف ذلك – انه اراد ان يلقي بنفسه من النافذة ولولم يتفق دخول روجر في تلك الساعة ويمنعه عن قصده لقضي عليه ولكنه سكن بعد ذلك وذهب يأسه بذهاب الحمى .

فقطب روبرت حاجبيه عند ذكر روجر وقال اني اتيتك لاحدثك بشأن المركيز روجر – ولدي – المركيز روجر – اني مصغية اليك

– اني لم ارك بعد ذهابي الى قصر اسبرتهون وقد اتصل بي ان المركيز روجر يريد ان يعترف علناً بان ليونيل اخوه وان يشاطره ثروته – هو ذاك فكيف تشكك الآن بولده .

بل لم يبق سبيل الى الشك – تريد انه ولدي اليس كذلك

– كلا انه ليس ولدك وقد ثبت لي ذلك بالبرهان

ما هو برهانك

لقد لقيت العبد الذي كان يحرس ولدك روجر حين كان خادماً عند اللورد اسبرتهون وهو يثبت ان ولدك لسعته حية وهو في مهده فمات وكان ذلك في اليوم الذي قتلت فيه السير جاك

– رباه ماذا اسمع الا يمكن ان يكون هذا الرجل كاذباً

– كلا بل انه يقول الحق

– واذا لم يكن ولدي فعلى ماذا عزمت

– على ان التمس من الملك ان يجعل ليونيل مركيزاً بدلا منه

– وروجر – يعود الى طائفة النور التي خرج منها

– كلا ان ذلك لا يكون فانه اذا لم يكن ولدي فاني احبه كأنه ولدي وكفى انه كاد ان يقتل ليونيل فلما سمع صوتي القى حسامه الى الارض .

تمني فانك تسيئين الى ليونيل وتحرمينه من لقبه

– ان ليونيل نفسه لا يريد حرمان من يدعوه بأخيه

– ولكنه ليس كذلك بل هو مزور

– ليس هو الذي ارتكب هذا التزوير وفوق ذلك فانه اذا لم يكن ولدي فهو ابن اللورد

فنظر اليها بحزن وقال في نفسه لا ارى احداً غيري يسمع صوت الواجب ثم نهض فودعها وقال

ارى ياسيدتي انه يجب ان اعمل قصدي

قالت ماذا تريد ان تعمل – قال واجباتي

وقد تركها وانصرف الى دكان كان يجتمع فيه العبيد الذين يطلبون الاستخدام فنادى واحداً منهم وهو احد العبدين اللذين كانا في خدمة اللورد اسبرتهون في الهند وقال له هل انت متأهب

قال نعم يامولاي

– اتقول ما قلته لي امام الملك – نعم يامولاى

– اذن انت واثق ان المركيز الحقيقي قد مات

– كل الثقة فقد اخبرتك كيف ان الطبيب بولتون اخذه من مهده وهو ميت بموافقة اللورد وكيف انه عاد في الليلة نفسها بطفل حي يشبهه فوضعه في مهده وكيف ان هذا الطبيب رشاني بمبلغ عظيم من المال حين علم باني رأيته وامرني ان اسافر الى سنجابور

– أتعيد كل هذه الاقوال امام الملك – نعم – اذن تعال معي

فصعد العبد الى جانب السائق وسارت المركبة الى قصر الملك فلما اراد السير روبرت الدخول اعترضه حاجب قائلا الدخول ممنوع

قال ان الملك ارسل الي كتاباً يامرني فيه بالحضور .

العلك لم تعلم يامولاى بماذا حدث – ماذا

– ان الملك اصيب بالليل بعارض جنون وقد تولى البرنس دى غال مكانه ادارة المملكة . فاعتنم السير روبرت محاول الانصراف وعند ذلك جاءه ضابط فقال له أأنت السير روبرت يا مولاى

قال نعم . قال تعال فقد امر سمو البرنس ان تدخل اليه

فأمر العبد ان ينتظر في الردهة ودخل وحده الى القاعة الملكية فابتسم له البرنس دى غال وقال انك التمست مقابلتك جلالة الملك فأمرني ان اتولى مقابلتك عنه لانه مريض .

ثم انك التمست ان تكون هذه المقابلة بحضور شاهدين من اشراف المملكة فاخترت شريفين من خيرة رجال بلاطنا .

ثم قرع جرساً فدخل كاتم اسراره دلتون فاشار البرنس اليه وقال مخاطبا السير روبرت .

هذا احد الشاهدين وهو اللورد ارشيبالد دلتون كاتم اسراره وان احد اجداده قاتل بجانب الملك غيلبوم الفاتح .

فانحنى السير روبرت امامه وقرع الملك الجرس ايضا وقال وهذا شريف آخر لا سبيل الى الشك بشرفه وبسالته .

وعند ذلك فتح الباب ودخل المركيز روجر دي اسبرتهون وهو بملابس التشريفات الكبرى .

فتراجع السير روبرت كأنما هوة قد فتحت امامه .

اما المركيز فانه حياه وجلس الى يمين البرنس كما جلس دلتون عن يساره فنظر البرنس الى السير روبرت وقال له تكلم فاننا مصغون اليك . فبذل السير روبرت جهداً عنيفاً حتى تمكن من ضبط نفسه ونظر نظرة منكرة الى المركيز ثم انحنى امام البرنس وقال : ان طائفة يامولاي قد جاءت الى انكلترا منذ عشرين عاما وهي طامعة بالمناصب وتنذر بان تحل محل ابناء البلاد فيها

قال اوضح ما تقول فمن هذه الطائفة

قال انها طائفة النور يا مولاي .

فضحك البرنس وقال – لقد كنت احسب ان اعمال هذه الطائفة مقصورة على التجول في الشوارع والرقص في الطرقات .

– كلا يامولاي اذ يوجد واحد منهم من كبار الجوهريين .

www.liilas.com/vb3 RAYAHEEN

– حسناً – ويوجد واحد منهم من الصيارفة – وبعد ذلك .
– وآخر من القضاة – لم اجد الى الان موضع الضرر .
– واخيراً فان واحد منهم يجلس مع النواب في مجلس اللوردية
– ما هذا القول ألعلك فقدت صوابك – كلا يامولاي بل اني
اقول الحق – الديك برهان على ما تقول – دون شك .
– اذن انت تعتقد انه يوجد لوري بين اعضاء اللوردية – هوذاك
– انك تروي لنا حادثاً جللا فكيف يكون هذا الانتحار .
– انه ابن احد اللورديه ولكن امه النورية ولدته سفاحاً فحل
محل ولده الشرعي – انك اذا استطعت ان تبرهن لي عن ذلك
طردت جميع النورية من المملكة .
– واني التمس منك ان تأذن لي بتقديم هذا البرهان .
– ولكني اريد قبل ذلك ان تذكر لي اسم هذا المنتحل .
– انه يدعى روجر دي اسبرتهون وهو على يمينك يا مولاي
اما روجر فانه لم يبدى عليه شيء من علائم الاضطراب بل انه
نظر الى البرنس وقال له بملء السكينة – اني ارى يامولاى ما
يراه سموكم وهو ان السير روبرت فالدن قد فقد صوابه .
ومع ذلك فانه اذا استطاع ان يبرهن اني نوري رضيت ان
اطرد مع طائفتي – فأجابه البرنس قائلا :
لاشك ان السير روبرت اغتر باقوال تلك النورية المجنونة التي
اتتك يوم عودتك من اميركا فذكرت ولدها الميت وادعت انها
امك – فقال السير روبرت انها كانت تقول الحق يامولاى .
– هات برهانك – اتأذن لي يامولاى ان ادخل رجلا كان في

خدمة اللورد اسبرتهون حين كان حاكم الهند فهو يثبت انه روجر
الحقيقي اى ان ابن اللورد الشرعي قد مات .
– اين هو هذا الرجل – في الردهة يا مولاي
فاصدر البرنس امره بادخال العبد ولكنه قبل ان يدخل
ازيحت ستارة بجانب الباب وظهر رجل كان مختبئا وراءها وهو
بملابس فرسان الملك فنظر الى العبد منكرة ثم رفع سبابته على
فمه يأمره بالتكتم ودخل وراء الستار
وقد ارتجف العبدحين رأى هذا الرجل واصفر وجهه الاسود
ثم اطرق برأسه اطراق المستسلم للقضاء ودخل فقال له البرنس
ماذا تدعى ايها الرجل – اليفيو
– اكنت في خدمة اللورد اسبرتهون في الهند – نعم يامولاى
– اكان له ولد – نعم يامولاى – وهذا الولد مات – لا اعلم
فتوهجت عينا السير روبرت من الغضب لهذا الجواب غير
المنتظر وقال له – ويحك ايها الشقي الم تقل لي انه . . .
قال لقد قلت لك يا سيدي ان حية لسعته وانه كان مريضاً
– بل قلت لي انه مات .
– لا اعلم ياسيدى اذا كان قد مات فقد طردوني من القصر
في اليوم نفسه وكان الطفل لا يزال في قيد الحياة .
فاصفر وجه السير روبرت ووضع يده على جبهته فابتسم البرنس
وقال لروجر
اطمئن ايها المركيز فقد ثبت لنا الان جنون السير روبرت
فالدن . ولما خرج العبد من القاعة الملكية انصرف وهو يقول :

لقد كذبت ولكني اضطررت الى الكذب فان هذا الرجل الذى امرني بالكتمان قد انقذني مرة في الهند من الخناقين فلم اجد بداً من طاعته .

اما هذا الرجل فقد كان جان دى فرانس .

. . .

بعد ذلك باسبوعين كان المركيز روجر مريضاً في سريره وقد اشتد به المرض حتى خشي عليه من الموت .

وذلك انه بينما كان سامراً ذات ليلة في نادي الحسان اصيب بدوار شديد فجائي وسقط بين يدى النادل عثمان .

وقد حملوه الى قصره وجاؤوه بالطبيب بولتون فتولى معالجته

وكان قبل ذلك باسبوع اعلن ان ليونيل اخوه واستأذن اليزنس دى غال واستصدر امراً من البرلمان فاشترك اخاه بثروته ولقبه فانتقل مع امه الى قصر المركيز .

فلما جاء الطبيب بلتون وفحص المركيز قال انه مصاب بحمى هندية وانها حمى خطيرة ولكنه غير قانط من شفائها .

وقد اضطربت لندرا لمرض المركيز فان انتصاراته الاخيرة حببته الى جميع الناس ولا سيما حين ذاع بينهم انه لم يجر على نظام اللوردية وانه ساوى نفسه .

ففي تلك الليلة اي بعد اسبوعين من مرضه كان مرضه يحول الى غيبوبة فلم يكن يعود صوابه الا في النادر — وكان الطبيب بلتون واللادى سيسلي وليونيل واقفين بجانب سريره .

وقد وفتح عينيه ونظر اليهم فأسرعت اللادى اليه واخذت يده

بين يديها وقالت له بملء الحنو

ولدي ... كيف انت ... الم تعرفني .

وقبل ليونيل جبينه وقال له وانا الست بأخيك .

فبرقت عينا روجر وفتح فمه يحاول الكلام ولكنه ما لبث ان سقط برأسه على الوسادة وعاد الى الغيبوبة .

فصاحت ام ليونيل قائلة رباه انقذه مما هو فيه .

وامسك ليونيل يده وجعل يغسلها بدموعه فنظر الطبيب الى اللادي وقال لها بصوت منخفض .

ان مرضه شديد .

قالت انك ستشفيه اليس كذلك .

قال لا استطيع ان احزم بشفائه وأسفاه .

فجعلت تشهق بالبكاء فقال الطبيب .

ان الموقف خطير ياسيدتي ولا بد لي من ان اقول لك الحقيقة في هذا الموقف — رباه ماذا تريد ان تقول لي — ان روجر ليس بولدك

— انى عارفة بذلك ولكني احبه كأنه ولدي فانه كريم شريف

ثم بسطت يديها الى السماء وقالت رباه خذ حياتي واجعلني فداء هذا الفتى الكريم فقد كان يحبني ويحترمني حب الابناء للامهات .

وركع ليونيل وقال ايها الاخ العزيز اني لا اعلم اذا كان بطن واحد قد حملنا ولكني اعلم ان اباً واحد وانك اليق مني بارث لقبه المجيد — فنهض بولتون وقال له اذن اتوافق اذا قدرت السلامة لروجر ان يكون هو المركيز الحقيقي وتكون انت ثاني المجال اللورد اسبرتون .

قال انقذه ايها الطبيب واني اقسم بالله ان لا اقول كلمة في حياتي تدل اني واقف على الحقيقة .

قال اذن سافرغ مفقودي في سبيل شفائه فدعوني ابقى وحدي معه ـ فخرج ليونيل وامه وعيونهما غارقة بالدموع وذهب بولتون فاقفل الباب من الداخل وعاد الى المركيز وقد فتح عينيه واستوى جالساً في سريره وعاد اليه هداه فقال له بولتون اسمعت الحديث؟

قال نعم وقد ايقنت الان انهما جديران بفضيحتي .

ثم نظر الى شعار اسرة اسبرتهون المنقوش فوق المستوقد والى صور اعضاء تلك الاسرة المعلقة على الجدران فقال يخاطبها

ايتها الرسوم الكريمة اصفحي عن ابن النورية اللقيط لحادثة زمناً محل الابن الشرعي ولاقامته في قصر لا يحق له الاقامة فيه

يا آل اسبرتهون اني لا يحق لي ان اتسمى باسمكم وان كانت دماؤكم تجول في عروقي فسأرجع سيفكم القديم الى من يعرف ان يتقلده وسأرجع ثروتكم العظيمة الى من يعرف كيف ينفقها في سبيل مجدكم .

ثم التفت الى الطبيب وقال له

ايها الصديق القديم اني فعلت الآن واجباتي فهات الشراب الذي اعددته فاني اشربه بملء الارتياح ودون خوف

فذهب بولتون الى منضدته فأخذ كأساً من الفضة واخرج من جيبه زجاجة صغيرة فافرغ ما كان فيها في تلك الكأس وجاء بها الى روجر

فأخذ روجر الكأس وهو يتبسم وشرب ما فيها جرعة

واحدة وقال

ما هذه النهاية فليفحظ الله المركيز ليونيل دي اسبرتهون من كل كد

ثم انقلب على سريره وقد اطبقت عيناه واصفر وجهه وبردت يداه

وذهب بولتون ففتح الباب وخرج الى حيث كان ليونيل وامه فقال له بصوت يتهدج من الحزن

ان قضاء الله لا يرد ياسيدي الكولونيل فانت الان المركيز دي اسبرتهون وستجلس في مجلس اللوردية

وفي اليوم التالي غصت درهات قصر اسبرتهون بالمركبات وغصت قاعاته الرحبة باللوردية واشراف الانكليز فان المركيز روجي دي اسبرتهون وقائد فرسان الملك قد ادركته الوفاة

وكانوا قد وضعوه في القاعة الكبرى واقبل الاشراف يودعون جثته

وكان البرنس دي غال نفسه قد حضر مع جميع بطانته وسمعه الناس يقول حين انصرافه

ان الملك فقد بفقده ابسل فواده واما فقدت خير صديق

وبعد انصراف البرنس اقفلت ابواب القصر فقد انتهى عرض الجثة

وعند ذلك قال النائب عثمان لليونيل

يجب ان تخرج من هذه القاعة ياسيدي المركيز

قال أأترك اخي كلا .. كلا

قال ان هذا لا بد منه فقد دنا وضع الجثة في التابوت وعادة الانكليز انهم يدعون اهل الميت يحضرون هذا المشهد الفريع

فاكب ليونيل على وجه روجر ليعانقه ويغسله بدموعه فنهض عثمان واخرجه من القاعة

وعاد اليها فاشار الى الكاهن ان ينصرف فخرج ولبث عثمان وحده امام روجر وهو يتحقق في وجهه ويقول

اني اعددت لك مستقبلا عظيما ولكنك ابيت

وعند ذلك فتح الباب ودخل منه الطبيب بولتون ووراءه رجلان يحملان التابوت وهما شمشون وذلك النوري حارس مقبرة سانت جيل .

فوضع عثمان اصبعه على فمه اشارة الى السكوت وسأله بصوت منخفض قائلا :

أأعددت المعدات

قال نعم فان تشييع الجنازة سيكون عند هبوط الليل وسندخل التابوت الى مدفن العائلة وجميع حراس المقبرة من رجالنا .

– انت واثق من الدواء الذي اعددته

– نعم ولكن لا يستطيع سواي استعماله

– واذا اتفق انك مت هذه الليلة

– يلبث روجر ميتاً الى ان يستفيق يوم الحشر في وادي يهوشافاط .

فارتعد عثمان وقال له الطبيب :

ولكن المحني فسأبقى حياً الى انتصاف الليل وان ابواب القبر

المقفلة على المركيز روجر سفتح فيخرج منها الميري ملك النور وهو في اتم عافية .

قال اذن افعل فعالك واذكر انك ضمنت حياته .

قال لا تخف واذهب في شأنك

فذهب جان ونقل شمشون ورفيقه روجر الى التابوت واقفلاه

فقال لهما الطبيب :

اذهبا الآن الى المقبرة ولا تبرحاها واذكرا

فقال شمشون اطمئن فانا لا ننسى .

ثم انصرفا فاخرج بولتون زجاجة صغيرة من جيبه وقال :

اني ارتعد حين افتكر ان حياة روجر في هذه الزجاجة واني اذا مت ...

ولكنه قبل ان يتم جملته اضطرب وجعل العرق البارد يسيل من وجهه فانه رأى وجه رجل قد ارتسم في مرآة كانت بجانبه ولم يدر من اين دخل فان الباب كان مقفلا

اما الرجل فانه مشى الى بولتون وقال له :

انك اخطأت ايها الطبيب بابعادك الخدم واهل الميت وجان دي فرانس عنك

فتوقع بولتون خطرا عظيما وقال :

السير روبرت فالدن !

قال نعم انا هو فانك اتخذت كل اسباب الاحتياط لكنك نسيت ان تقفل بالمفتاح هذا الباب .

فوضع الطبيب يده على قبضة حسامه وجرد السير روبرت

حسامه ببطء وقال :

لك الخيار الان بين ان تعطيني هذه الزجاجة وبين ان تموت فاني لا اريد ان يعود روجر الى الحياة في هذه الليلة .

وقد مشى بحسامه الى الطبيب فجرى بينهما قتال عنيف لم يكن يسمع في خلاله غير صوت انفاسهما .

وكان بولتون يقاتله وهو يرتعد خوفا على روجر ويقول في نفسه انه اذا قتلني مات روجر .

فكان هذا الخطر يشدوه في القتال ولكن السير روبرت كان من اشهر رجال السيف وقد عول على قتل بولتون وكسر الزجاجة

وفيما هما يتقاتلان صاح بولتون صيحة يأس هائلة فان حسامه قد انكسر وشعر برأس حسام السير روبرت على صدره وسمعه يقول :

انني لست من الذين يقتلون الناس غيلة ولكن اقسم بالهك اذا لم تعطني الزجاجة قتلتك دون اشفاق .

فتراجع بولتون الى الوراء واحتمى وراء كرسي كبير وهو يقول :

من لي بسيف .. رباه لا تقض بموت هذا البريء

وعند ذلك فتح الباب الذي دخل منه السير روبرت بعنف ودخلت منه توبسي ربيبة السير روبرت وهي تحمل سيفا فاسرعت باعطائه الى الطبيب وهي تقول :

وانا ايضاً لا اريد ان يموت روجر فقد انقذني من الموت وانا احبه .

فاخذ السيف من يدها وعاد الاثنان الى القتال باشد عنف .

• • •

وفي الساعة الثامنة من المساء احتفل بتشييع جنازة المركيز روجر دي اسبرتهون الى مقبرة سانت جيل حيث كان لاسرة اسبرتهون ضريح خاص .

وقد مشى في ذلك الموكب المهيب جميع نبلاء انكلترا وكان يتقدمهم اثنان مكشوفا الرأس احدهما ليونيل الذي اصبح الان مركيزا والثاني اعظم نبيل بعد الملك وهو البرنس دى غال

وكان الشاب عثمان يسير بين اعضاء نادي الحسان وهو حزين القلب كاسف البال

ووراء الجميع الطبيب بولتون اما السير روبرت فالدن فلم يره احد بين جموع المشيعين

وقد وضعوا التابوت على بلاطة عند مدخل الضريح وجعل كل من المشيعين يقف في دوره عند التابوت فينحني وينصرف الى ان جاء دور الطبيب فانحنى امامه وقال بصوت منخفض

رحمك الله ياسير روبرت فالدن

ذلك انه كان قد قتله ووضعه في التابوت بدلا من روجر

• • •

وكان رجل واقفاً وراء شجرة كبيرة وهو ممتشح برداء كبير وقد قنع وجهه بقناع كثيف فلم يفته شيء من تفاصيل هذه الحفلة

وقد مر الناس به فكان يراهم من وراء مكمنه ولا يرونه

فرأى ليونيل يسير وهو يشهق بالبكاء ورأى عثمان يسير وهو

ونشب القتال بين الفريقين ولكن توبسي احتالت على اليبسي فالقتها على الارض وركعت فوق صدرها ورفعت يدها بالخنجر وهمت ان تغمده في قلبها فبسط جان يديه الى اميري وقال له رحماك العفو العفو .

فالتفتت اليه ثوبسي وقالت انك تسأل العفو ؟

وقالت اني اعفو ولكن بشرط .

ثم نظرت الى اميري وهي لا تزال راكعة على صدر خصيمتها وقالت له :

اني كنت طامعة وشرائعنا تحرم الاطماع وتجيز الانتقام وبعد فاني اصلحت ما افسدته أليس كذلك .

قال نعم — قالت انه يحق لي ان اغمد خنجري في صدرها فاذا عفوت عنها فماذا تكافئني — فهاج في صدر روجو حبة القديم وقال اني اجعلك ملكة — فنهضت توبسي نهوض المنتصر والقت بخنجرها الى الارض فأمسك اميري بيدها وقال للجميع انحنوا امامها فانها زوجتي وملكتكم .

فكادت تسقط بين يديه لفرحها وقالت له بصوت خافت .

انك تعلم يقيناً اني بت احبك اصدق حب بعد ان انقذتني فاعلم ان حبك لا ينتزع من صدري حتى بعد الموت

. . .

وعند الفجر كانت السفينة تخترق عباب البحر وهي تحمل النور واموالهم

تمت

مطرق الرأس ورأى البرنس دى غار يسير والى جانبه الدوق دى سومرست وسمع هذا الدوق يقول للبرنس

هل تصدقون سموكم ما اشيع من ان المركيز دى اسبرتهون كان من النور

فأجابه البرنس قائلا .

لا اعلم اذ كان البرنس نورياً ولكن الذي اعلمه انه لو كان النور مثلهم لجعلتهم كلهم حين اصير ملكاً من الاشراف .

فقال الرجل المقنع في نفسه .

انك شرفتني اعظم تشريف وسأخدم عرشك بدمي .

ولما انصرف الناس خرج الرجل المقنع من مكمنه فوجد عند باب المقبرة فارسين كان احدهما يمسك عنان جواد ادهم فترجلا عند وصوله وقدما له الجواد ثم انحيا بملء الاحترام وقالا له :

ايها الملك ان رعاياك ينتظرون اوامرك .

اما هذا الرجل فقد كان روجر فان بولتون كان قد رثالية الحياة بعد ان سقاه ذلك الخدر وبعد ان قتل السير روبرت ووضعه في نفسه فتقنع وشهد جنازة نفسه مع المشيعين .

الخاتمة

كان البحر هادئاً وسفينة النور تتأهب للسفر بتلك الطائفة الى غير هذه البلاد .

وكان عند الشاطيء خلق كثير من تلك الطائفة وبينهم اميري ملك النور اى روجر وجان دى فرانس وشمشون وجميع رجال الطائفة ونسائها واولادها وقد احدقوا جميعهم بملكهم الجديد بعد

جان فاسترعى مسمعهم ووقف بينهم فقال .

ايها الاخوان اني جمعتكم هنا لان ساعة الرحيل قد دنت وسترفع سفينتنا مراسيها .

ايها الاخوان ان الله الهنا واله جميع الناس قد وضع كلا من مخلوقاته في الموضع الذي خصه به فقال للنسر انك ستحلق في الفضاء وتحلق بجناحيك وتجعل الهواء مملكتك .

وقال الرجل انك ستنشىء المدن وتؤسس الممالك .

ولكنه قال للثوري انك ابن البرية وان هواء الحرية كان عاصفاً حين مولدك فكانت الرمال تثور على خيمتك والرياح تقتلع اطنابها وانت بعيد عن المدن والقرى .

غير اني منحتك نظر النسر النافذ وقوة الجواد العربي السريع وجرأة الاسد الهصور واردت ان تكون ذلك السائح الابدي تطوف البلاد وتجوب الفيافي وانت آمن مطمئن وجعلت مواطنك الدنيا وحدود بلادك من القطب الى القطب فدع الناس العاديين يشتغلون ببناء المدن وتعيين الحدود وانشاء الممالك اما انت فمدنك المضارب ومملكتك لاحدلها .

ايها الاخوان انه اذا وجد بينكم من الذ عيش الحضارة وانف من عيشنا عيش التشرد واراد ان يبقي في هذه البلاد فليقف فاني لا اكره احداً على الذهاب معنا

فلم يقف واحد منهم بل هتفوا جميعهم بصوت واحد ارتج له الفضاء قائلين :

ليحي اميري .. ليحي ملكنا . قال اذن لنسافر

ثم اخذ مشعلا من يد شمشون فلوح به ثلاث مرات وقال هذه هي الاشاره التي اتفقت عليها مع ربان السفينة

ولم يكد يلتهي من اشارته حتى اجابه ربان السفينة باشارة مثلها وارسل القارب لنقلهم اليها

وعند ذلك سمعوا وقع حوافر جواد يركض ولم تكن غير هنيهة حتى وصل ذلك الجواد ورأوا عليه امرأة

وقد نزلت تلك المرأة عن جوادها وقالت

اني نورية مثلكم واريد ان اسافر معكم

فصاح جان واميري وشمشون قائلين نوبسي

فقالت لاميري نعم انا هي نوبسي التي كانت تدعى مس الن ولو اخبروك بانى انا التي اعطيت السيف لبولتون فانقذك لرضيت ان اكون منكم وانا اسافر معكم

قال نعم لقد علمت وستسافرين معنا

فنهضت عند ذلك امرأة وقالت بصوت مرتفع ولكني انا لا اريد

وقد مشت اليها والخنجر مجرد بيدها فضج الجميع اذ رأوا ان تلك المرأة التي كان يحبها جان اصدق حب وهي التي اطلقت الن النار عليها فاصابتها بجرح كاد يقتلها

ما تلك المرأة فانها دنت من اميري وقالت له انك ملكنا الآن ولا بد للملوك من العدل

قال اني سأحكم بالعدل

قالت اني ادعى البيسي وهذه المرأة عدوتي اللدودة وقد اصابتني برصاصة لا يزال اثرها في كتفي فالتمس طردها من

فالطائفة او قبولها بمبارزتي

فقالت الن لقد رضيت المبارزة

فاضطرب جان وقال اني لا اريد

ولكن اميري اسكته وقال لنوبسي اتقولين انك ترضين مبارزتها

فجردت الن خنجرها وقالت نعم ولكن بشرط ان لا ينتهي قتالنا الا بالموت وان لا يعترضنا احد فيه

فاطرق جان برأسه وجعل اميري ينظر الى هاتين المرأتين اللتين بلغتا من الجمال بقدر ما بلغتا من الحقد ثم قال لقد اذنت بقتالكما .

فصاحتا صيحة فرح وقال جان ماذا فعلت ياميري فقال له شمشون لا يحق ان تعترض الآن فان البيسي كانت البادئة .

ولم ينقض المتبارزتان كما يتبادر الى الاذهان بل وقفت كل منهما والخنجر مجرد بيمينها ويدها اليسرى الى الامام كترس تذود به عن صدرها وهي تنظر الى خصيمتها كما تنظر الضواري الى الفريسة وتتأهب للانقضاض فقالت البيسي .

اني اكرهك لانك اردت قتل جان دي فرانس وهو شبه معبودي .

فأجابتها نوبسي اما انا فلا اكرهك ولكني احتقرك واريد ان اجعلك سلماً ارقى به الى حيث اشاء .

فهلع قلب جان من خوفه على حبيبته وركض يريد ان يحول دون القتال ولكن شمشون اوقفه في مكانه وقال له ان الملك امر ان لا يعترض احد قتالهما فلا تكن اول العابثين بامره يا جان .